

الافتتاحية

النّمط المثالي للباحث والأكاديمي، الذي وهب نفسه للعلم ومن أجله سعى واجتهد وبذل، هذا النمط من علمائنا بدأ يتساقط. وإذا كنا قد فقدنا حمد الجاسر، العالم الجليل، الذي يُعد نموذجًا للعالِم الذي بنى نفسه وكوّن شخصيته، فإن الأنموذج الآخر هو ذلك الطود الشامخ الأستاذ الدكتور إحسان عباس، ومَنْ منّا لا يعرفه؟!! فلا تكاد مكتبة تخلو من عمل أو أكثر من أعماله المتنوعة، التي طاولت كل فرع من فروع المعرفة العربية والإسلامية. كتب عنه وعن أعماله كثيرون، ممن عرفوه عن قرب، أو عرفوه من طريق أعماله، وعدّدوا الجوانب العلمية التي تناولها؛ ولكن جانبًا واحدًا لم يقفوا عنده: اهتمامه بالجانب التاريخي لما قبل الإسلام.

عندما أراد أن يكتب عن فترة ما قبل الإسلام، اختار حضارة عربية أصيلة نفخر بمنجزاتها، هي الحضارة النبطية، إذ يُعد كتابه عن الأنباط: "تاريخ دولة الأنباط" واحدًا من أجَلِّ المؤلفات وأقيمها، التي كتبت باللغة العربية. فقد استطاع إحسان عباس أن يلم بكل ما يتصل بالأنباط، أصلاً وسياسيةً وحضارةً ومجتمعاً. وأن يضع تلك المعرفة بين دفتي كتاب كُتب بأسلوب أدبي، ناصع اللغة، سهل التناول، معتمدًا على المصادر والمراجع الأصيلة؛ فأضحى ذلك الكتاب واحدًا من الأسفار، التي لا يستغني عنها الطالب ويسترشد بها الباحث.

وإذا كان الغربيون في جامعاتهم يرعون شوامخهم بعد وفاتهم، بإحياء ذكراهم وذلك بإنشاء كرسي يحمل اسمهم ويسير في اتجاههم، فإن إحسان عباس حري بالجامعة التي كان يعمل بها أن تثبت بصماته الخيرة، التي أسدت للمعرفة ما لا ينتهي بوفاته، بل سيظل علامة من علامات الفخار في ثقافتنا العربية والإسلامية؛ لذا كان حصوله على جائزة الملك فيصل العالمية في الأدب العربي عام ١٩٨٠م، تتويجًا لجهده وتقديرًا ممَّن رشحوه لكل ما قدمه.

أما ثاني الشوامخ في مسيرتنا العلمية المعاصرة الذي سقطت رايته، فهو العالم الكبير الأستاذ الدكتور صالح العلي، ولعل سقوط بغداد كان ذا أثر فعّال في نفسه، فمات كمدًا على ما أصاب محبوبته بغداد، عاصمة الخلافة الإسلامية قرابة خمسة قرون. مات العالم، الجدير بالصدارة في علمه وفضله، في شهر شوال ١٤٢٤هـ/ ديسمبر ٢٠٠٣م. كان الدكتور العلي عالمًا بتاريخ العرب وحضارتهم منذ ما قبل الإسلام، ولذا يعد كتابه: "محاضرات في تاريخ العرب قبل الإسلام" مرجعًا لطلاب العالم العربي، منذ أربعة عقود حتى الوقت الحاضر. كما كان اهتمامه بالحواضر العربية الإسلامية واضحًا فيما كتبه عن الكوفة والبصرة وبغداد، والأعمال التي نشرها في منشورات المجمع العلمي العراقي، وما نشره في مجلة "العرب"، التي كان يصدرها الشيخ حمد الجاسر، من أبحاث عن الحجاز جغرافيا وتاريخيًا، وقد نال بأعماله جائزة الملك فيصل العالمية في الدراسات الإسلامية عام ١٩٨٩م، فكان نيله لها مفخرة للباحثين في مجال التاريخ العربي والإسلامي.

*****

عندما طُلب مني أن ألقي محاضرة في مكتبة الإسكندرية في العام الماضي في ندوة "الخطوط: نشأتها وتطورها"، اخترت أن أتحدث عن دلالات ما يكتب ويرسم على الصخور في الجزيرة العربية، وما تمدنا به هذه

الكتابات والرسوم من معلومات وأحداث، تسد الفراغات والفجوات التي تملأ تاريخنا العربي والإسلامي. وعرضت نماذج من هذه النصوص والرسوم والأحداث، وهي كثيرة تحتاج إلى عمل خاص يلقي الضوء عليها وعلى أهميتها واحدة تلو الأخرى. ولعل من أهم النصوص، التي وجدناها مؤخرًا وأشرت إليها في كتابنا "نجران: منطلق القوافل"، هو أن خط البادية كان معروفًا كتابة وقراءة حتى القرون الأول للهجرة؛ "طوق بن الهيثم" كتب اسمه بخط بادية حمير، ولكن بأجرومية عربية فصيحة، كما كتبه أيضًا بالحرف العربي، الذي يؤرخه البعض بالقرن الثاني أو الثالث الهجريين. أليس هذا ممَّا يجعلنا نقف أمام هذا النقش، ونقلب أفكارنا، ونعيد تقييمنا لهذا النوع من الكتابات، الذي نجده ممتدًا من اليمن جنوبًا إلى بلاد الشام شمالاً، ومن شرق الجزيرة العربية إلى سيناء والصحراء الشرقية في مصر غربـاً؟ إن هذا الكشف يذكرني بما تحدث به إلى الزميل الأستاذ محمود الروسان، عندما قال لي: "إنني أحس أحيانًا وأنا أتصفح نقوش بادية الصفا أنني أقرأ نقوشًا كتبت في العصر الإسلامي"، ولعل اكتشافنا لذلك في جنوبي المملكة العربية السعودية، يميط اللثام عن أن البادية في العصور الإسلامية كانت تستعمل قلم المسند، وأن ما أشار إليه الهمداني من قدرته على قراءة المسند كان صدقًا لا افتئاتا.

وهذا الكشف ليس الأخير، ولكن سبقه اكتشاف الأستاذ خالد إسكوبي لبضع نصوص لبعض عمال نبونيد، أكدت وجوده وسلطانه على المنطقة أرضًا وسكانًا، وهذه إضافة ما كان لنا أن نعرفها لولا الجهد الذي بذله الباحث، خلال إعداده لأطروحته للحصول على درجة الماجستير.

وصنو هذا العمل ما قام به الدكتور حسين بن علي أبو الحسن، عندما درس نقوش جبل عكمة في العلا، واكتشف الدور الكبير الذي كان لمعبود دولة لحيان "ذي غيبة"، الذي كانت تدفع له النذور من عُبَّاده، ابتداء من عمان في الأردن شمالاً حتى بدر جنوبي المدينة المنورة، ما يعني وجود سلطة دولة لحيان الواسعة في هذه المنطقة، التي تمتد من بلاد الشام شمالاً إلى قرب مكة جنوبًا. وهو اكتشاف يضيف إلى معرفتنا عن دولة لحيان شيئًا كنا نجهله.

أما في العصور الإسلامية، فإن للأستاذ الدكتور سعد بن عبد العزيز الراشد اليد الطولى في الكشف عن كثير من النقوش الإسلامية حول المدينة المنورة، فكان له فضل نشر مجموعة من النصوص في منطقة رواوة، جنوبي المدينة المنورة، ينسب بعض أصحابها إلى الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه، مما كنا في غفلة عنه؛ فأضاف بذلك إلى معلوماتنا قوائم أنساب كنا نجهله، خلال القرون الأولى للهجرة.

وبعد ذلك كنت و أ. د. سعد الراشد والدكتور العباس سيد أحمد في رحلة إلى المدينة المنورة، في العقد الأول من القرن الهجري الحالي، فزرنا سد الخنق وهناك اكتشفنا نقشًا يحمل اسم الخليفة معاوية بن أبي سفيان كبانٍ لهذا السد، كما كشف عن دور معاوية في الاهتمام بمصادر المياه في منطقة المدينة المنورة، مما هو موضح فيما كتبه ونشره زميلنا الأستاذ الدكتور الراشد.

ولا أشك في أن الدكتور لو تفرغ لأمدنا بفيض من الأعمال العلمية، خاصة أننا زرنا شمال غربي المملكة قبل عقدين من الزمن في مهمة رسمية، قصدنا خلالها منطقة حسمى فوجدنا كمًا هائلاً من النصوص الإسلامية ذات الأهمية التاريخية، خاصة أن هذه المنطقة تقع ضمن طريق الحج بين الأندلس والحجاز وما بينهما.

*****



وإذا كان لنا أن نُبدي سرورنا وفخرنا بما يظهر مجهودات باحثينا فإن تسجيل أول نقش إسلامي في "ذاكرة العالم" في اليونسكو، هو لعالمٍ وباحث سعودي في مجال الآثار، هو الأستاذ الدكتور علي غبان، أستاذ الآثار الإسلامية في قسم الآثار والمتاحف بجامعة الملك سعود بالرياض. إنني أعرف شخصيًا معاناة الدكتور في مسيرته العلمية، فهو الذي يحسب له رصد طريق الحج المصري والشامي، واكتشاف كثير من الأعمال الخيرية لمماليك مصر، من إنشاء السبل وحفر البرك والآبار وتعبيد الطرق.

ولعلي لا أكشف سرًا إذا قلت إن اهتمام الدكتور غبّان بالعمل الأثري دفعه إلى التدرب على ركوب الجمال، ركوب المحترف لا الركوب السياحي، لكي يساعده ذلك على قياس المسافات، والوصول إلى الأماكن، التي لا تصلها مركبة أخرى. إن اكتشافه لنص زهير، الذي يعود إلى سنة ٢٤ للهجرة، يعد تحولاً واضحًا في تاريخ بداية النصوص المؤرخة. فقد كان نص أسوان بصعيد مصر، المؤرخ سنة ٣١ للهجرة هو البداية لأقدم شكل من أشكال الخطوط المنقوشة على الحجر، ولكن نص زهير، الذي عُثر عليه على الواجهة الصخرية الواقعة إلى الجنوب من قاع المعتدل شمال شرقي محافظة العلا، أصبحت له الصدارة والبداية. إننا إذ نشير إلى هذا العمل الفذ، فإنما نشير إليه حافزاً للآخرين من الباحثين لكي يعملوا عمله؛ فينالوا شرف تسجيل هذا العمل في "ذاكرة العالم". وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

*****

"القرون الثلاثة الأولى" تُعد مصطلحاً مقدساً لدى الباحثين في الآثار الإسلامية، وهو منجاة لمن يكتشف نصًا غير مؤرخ. أما ما بعد هذه الفترة، فهم يعطون لها تاريخًا واضحًا إلى حد كبير. وإذا كان الباحثون في مصر وبلاد الشام اتبعوا من سبقهم من الباحثين، عربًا وأجانب، في ذلك، فإن المهتمين بالنقوش الإسلامية في الجزيرة العربية تقع عليهم مهمة محاولة دراسة الحروف وأشكالها لكل عصر، مما يعرف باسم: (Palaeography)، خاصة أن المادة العلمية بين أيدينا، مما يفتقده الآخرون من زملائنا الباحثين العرب.

إن الوصول إلى ثبت بالحروف مقسمة حسب العصور التاريخية، عمل يحتاج إلى جهد وصبر؛ ولكن من يصل إلى نتيجة تغنينا عن مصطلح "القرون الثلاثة الأولى"، يكون قد حقق ما لم يصل إليه الأوائل من دارسي الأبجدية الإسلامية. وتهنئتي له مقدمًا.

رئيس هيئة التحرير

دراسة آثارية لموقع الثمامة: النتائج الأولية

عبدالله بن محمد الشارخ

ملخّص: يتناول هذا البحث دراسة آثارية ميدانية لمنطقة الثمامة، الواقعة على بعد ٩٠ كيلومتراً شمال شرقي مدينة الرياض. وتتمثل أهداف الدراسة في التعرف على طبيعة الاستيطان البشري بمنطقة الثمامة، والتحقق من النتائج، التي سبق نشرها في دراسة سابقة من قبل وكالة الآثار والمتاحف. وقد أظهرت المسوحات الميدانية التي أجراها فريق البحث العلمي للموقع غنى المنطقة بأنواع مختلفة من البقايا الأثرية. وقد جُمعت عينات من عدد من المواقع، التي تحتوي على كثافة عالية من الأدوات الحجرية. كما جرى تنقيب عدد من مواقع المنشآت الحجرية، التي تعكس تنوعاً في طبيعة الاستيطان البشري في منطقة الثمامة. وقد حقق العمل الميداني بموقع الثمامة الأثري أحد أهم الاكتشافات الأثرية في منطقة الرياض، وهو تسجيل عشرات المواقد الحجرية المحتوية على كميات من الخشب المتفحم.

Abstract. *This paper relates to an archaeological field work study conducted at the site of Thumamah, about 90 Km. NE of Riyadh. The objectives of this study focus on the nature of human occupation in the Thumamah area, and also on verifying the conclusions reached by an earlier field work team from the General Directorate of Antiquities and Museums. This study shows the richness of the study area with a wide variety of archaeological remains; A number of lithic samples were collected, and some stone strucutres were excavated. This paper presents important discoveries related to past human occupation of the Thumamah site, in particular, the documentation of tens of hearths that contain burnt wood.*

المقدمة

يُعد موقع الثمامة الأثري، في وسط المملكة العربية السعودية، واحداً من أهم المواقع الأثرية المنسوبة لفترة العصر الحجري الحديث في الجزيرة العربية. وعلى الرغم من كثافة الأعمال الأثرية التي أنجزت في الكثير من مناطق الشرق الأدنى، إلا أن الجزيرة العربية، بصورة عامة، ووسطها، بوجه خاص، لم تحظ بالقدر نفسه من الاهتمام؛ إذ ظلت الجزيرة العربية تشكل، إلى حد كبير، فراغاً في الخارطة الآثارية.

وقد ذكر بعض المهتمين (محمد علي ١٤٢١هـ: ٨٩؛ Taha 1982: 1-2) عدداً من الأسباب، التي أسهمت، منفردة أو مجتمعة، في محدودية الدراسات الآثارية، التي تمت في الجزيرة العربية. ويمكن إيجاز هذه الأسباب فيما يلي:-

١- انحصار الجزيرة العربية بين المراكز الحضارية المعروفة في العالم العربي (بلاد الرافدين وبلاد الشام ووادي النيل)، التي تميزت بوجود مظاهر معمارية بارزة وجذابة ساعدت في لفت أنظار المهتمين نحوها .

٢ - صعوبة الظروف المناخية في الماضي القريب، وصعوبة اجتياز المناطق الصحراوية إلى وسط وجنوبي الجزيرة العربية، ما أسهم في الحد من عدد الأجانب، الذين تمكّنوا من اختراق الأجزاء الداخلية من الجزيرة العربية .

٣- خلو الجزيرة العربية من الآثار التوراتية، التي شكلت دفعة لعلم الآثار في مراحل تبلوره.

٤- وقوع الجزيرة العربية خارج نطاق الاستعمار.

٥ - تركيز الاهتمام على المنشآت المعمارية البارزة، مثل: مدائن صالح، والنقوش والرسوم الصخرية، الموجودة في مناطق متعددة من الجزيرة العربية، التي تنسب لبعض الأقوام البائدة الواردة في القرآن الكريم .

٦ - صعوبة التعرف على نوع البقايا الآثارية، التي تعود لفترات ما قبل التاريخ من قبل أبناء المنطقة؛ وكذلك انقطاع التواصل الحضاري بين فترة ما قبل التاريخ والفترات التي تعقبها، إضافة إلى عدم وجود سجلات مكتوبة تتحدث عن هذه الفترة .

غير أن الوقت قد حان لمراجعة هذا الوضع، والقيام بأعمال أثرية تكشف طبيعة التكيف البشري في الماضي، من ناحية، وسد الثغرات الماثلة في الإطار الحضاري، وتسليط الضوء على بعض القضايا، محل تساؤل دارسي آثار الجزيرة العربية وحضارتها، من ناحية أخرى.

ومن هذا المنطلق، تبرز أهداف "مشروع الثمامة الآثاري"، التي تتلخص في السعي نحو كشف طبيعة التكيف والاستيطان البشري في منطقة الثمامة، كعينة مُمثلة لوسط الجزيرة العربية؛ بما تحويه من مواقع تعود إلى بعض فترات العصور الحجرية. كذلك، هدف المشروع إلى كشف طبيعة المنشآت الحجرية الموجودة في المنطقة، التي تتباين فيما بينها من حيث الشكل والحجم وربما الوظيفة.

إضافة لذلك، فإن المشروع هدف إلى فهم التسلسل الحضاري ومراحل الاستيطان البشري في المنطقة، خاصة مع وجود تنوع بيئي وحضاري. يضاف إلى ذلك كله، أن فهم التسلسل الحضاري بمنطقة الدراسة سيُمهد، بلا شك، لفهم أوسع لطبيعة الظواهر الآثارية المماثلة في مناطق أخرى، من الجزيرة العربية.

ولتحقيق أهداف المشروع، تشكّل فريق علمي برئاسة كاتب هذا البحث، وعضوية الزميلين أ. د. العباس سيد أحمد محمد علي ود. يوسف مختار الأمين ودعم مالي من مدينة الملك عبدالعزيز للعلوم والتقنية، لإعداد وتنفيذ برنامج مسح ميداني لكافة الظواهر الأثرية بمنطقة الدراسة، من مستوطنات ومواقع أدوات حجرية ومنشآت حجرية[1]. وكخطوة منهجية أولية، قسّمت منطقة الدراسة لثلاثة أقسام، بحسب تباينها الطبوغرافي. وقد أظهر المسح الشامل لمنطقة الدراسة وجود أعداد كبيرة جداً من المواقع الأثرية، التي استغرق مسحها وتحديد مواقعها بدقة فترة زمنية طويلة جداً، وذلك لوجود تباين طبوغرافي كبير، إلى جانب إتساع الرقعة الجغرافية لمنطقة الدراسة، ووعورة بعض أجزائها، ما أعاق مهمة المسح.

وقد أظهرت الأعمال الميدانية، غنى منطقة الدراسة بالمواقع الأثرية، من ناحية، وكثافة الوجود البشري خلال فترات زمنية طويلة، من ناحية أخرى، فقد كشفت الدراسة الأولية كثافة الأدوات الحجرية، إلى جانب تعدد المهام التي استخدمت فيها تلك الأدوات، ووجود أماكن إقامة للجماعات البشرية، حسبما دلت على ذلك مواقد النار، التي عثر عليها في أحد المواقع المهمة. كما تميزت مواقع المنشآت الحجرية بكثافتها العالية وتعدد أنماطها وأحجامها.

الدراسات السابقة

عند استعراض الدراسات العلمية المتعلقة بهذا الموضوع، كان لا بد من الإشارة إلى أن العمل الأثري، بصفة عامة، والمتصل منه بدراسات ما قبل التاريخ، بصفة خاصة، قد اتسعت أبعاده في الربع الأخير من القرن الماضي. فالجزيرة العربية، عامة، والمملكة العربية السعودية، خاصة، لم تكن معروفة للباحثين والمهتمين بدراسات ما قبل التاريخ، وقلَّ أن نجد لها ذكراً في الكتب العامة، التي تتناول حضارات ما قبل التاريخ. ومن جهة أخرى، نجد أن بلدان منطقة جنوب غربي آسيا الأخرى قد شملتها المسوحات والتنقيبات الأثرية، منذ القرن التاسع عشر الميلادي، وتسارعت وتيرتها بعد ذلك بحثاً عن أصول المدنيات القديمة، وفنون الحضارات الكبرى في بلاد الرافدين، أو في حوض وادي النيل، على سبيل المثال. كذلك، نشطت الأبحاث المتعلقة بفترة ما قبل التاريخ، وخاصة فترة العصر الحجري الحديث، أو ما يطلق عليها أحياناً "مرحلة إنتاج القوت". إذ اتضح منذ وقت مبكر بأن منطقة الشرق الأدنى شهدت المراكز الأولى، التي عرف فيها الإنسان استئناس الحيوان، ومعرفة الزراعة، وممارسة الطقوس والشعائر الدينية. وقد أنجز مختلف الفنون، وصنع الأدوات



من الحجر المصقول وعظام الحيوانات وقرونها. كما استغل الإنسان بيئته بطريقة ناجحة، مكنته من الاستقرار والعيش في تجمعات سكانية كبيرة، كانت هي الأساس في تكوين القرى الزراعية الأولى؛ كان ذلك في الفترة الممتدة بين الألف التاسع وحتى الألف الرابع قبل الميلاد. وقد تطورت بعض تلك القرى لاحقاً إلى مدن كبرى، شكلت نواة لدويلات المدن، حيث ابتكر الإنسان الكتابة، وأسس النظم الإدارية والاقتصادية والسياسية، وأتقن الفنون المختلفة. ودخل المجتمع البشري إلى ما يسمى: عهد الحضارات، أو المدنيات القديمة (Redman 1978; Renfrew & Bahn 1991).

ولكثرة الأبحاث الأثرية في منطقة الشرق الأدنى واستمرارها لأكثر من قرن، وضع المختصون تسلسلاً دقيقاً لتتابع المراحل الحضارية في فترة ما قبل التاريخ، بدءاً بظهور أول آثار لجماعات بشرية في المنطقة منذ نحو ١,٣ مليون سنة مضت (Whalen et al 1986). وقد أتاح لهم الدليل الآثاري، المتميز بالوفرة وإمكانية تأريخه علمياً، رسم إطار تعاقب الأدوار الحضارية، محددين لكل واحد منها خصائصه الحضارية، وكذلك مقارنته مع بقية أقاليم الشرق الأدنى.

وقد أظهرت الأبحاث الآثارية الحديثة أن المملكة العربية السعودية لم تكن بعيدة عن هذه المسيرة الحضارية، كما تدل على ذلك المكتشفات، التي سنشير إلى بعضها في هذا البحث. ومع ذلك، لا بد من القول إن ما اكتشف حتى الآن لا يكفي لإعطائنا صورة كاملة عن مسيرة حياة الجماعات البشرية خلال فترة ما قبل التاريخ؛ فهناك الكثير من الفجوات، أو المسائل المُعلقة، التي تحتاج للإيضاح. فالعمل الأثري في المملكة، على الرغم من الاهتمام به مؤخراً، يظل مطلوباً لسد هذه الثغرات (محمد علي ١٤٢١هـ: ١٢٣-١٢٥).

وتشير الأبحاث المنشورة، أيضاً، إلى أن المملكة شهدت من التجارب الحضارية، خلال فترات العصور الحجرية، ما يميزها عن غيرها. ويظهر ما بها من منتجات حضارية، ودلالات لاتصالات حضارية بالمناطق المجاورة لها. إن السجل الحضاري للمملكة يظهر تنوعاً حضارياً واضحاً، خاصة وأنها تغطي مساحة جغرافية شاسعة، مرت بالعديد من التغيرات والتحولات البيئية خلال عصري البلايستوسين والهولوسين، ما كان له الأثر الكبير في حياة الجماعات البشرية الأولى. وقد وجدت البقايا المادية لهذه الجماعات المبكرة في بعض المواقع، التي يعود تاريخها لأكثر من مليون سنة (Rice 1994).

ففي موقع الشويحيطية، شمالي المملكة العربية السعودية، على سبيل المثال، عُثر على أدوات حجرية تعود للعصر الحجري القديم الأسفل، قارنها مُكتشفوها بأدوات حجرية من موقع أولدفاي قورج بتنزانيا، وهو أحد أهم المواقع الأثرية بشرق أفريقيا. وتدل البقايا الأثرية بموقع الشويحطية على عمق الاستيطان البشري في هذا الجزء من العالم القديم (Whalen et al 1986, Whalen et al 1989). وقد أكدت التقارير الأثرية وجود تجمعات بشرية في المملكة العربية السعودية، على امتداد فترة العصر الحجري القديم، خاصة في الشمال والوسط والجنوب الغربي. وتشير الدراسات الآثارية والأنثربولوجية إلى أن المجتمع البشري بصفة عامة، اتجه خلال الفترة اللاحقة نحو التوسع والتعقيد في العلاقات الاجتماعية، وفي المنتجات المادية، والنظم الاجتماعية، وفي المعتقدات الفكرية والدينية. وقد أشرنا إلى إرهاصات هذا التطور الحضاري، الذي يوسم بالعصر الحجري الحديث، آنفاً . ومن المعروف أن منطقة جنوب غربي آسيا كانت إحدى أقدم الأماكن، التي حدث فيها هذا التحول المهم في حياة الإنسان. وقد تمثّلت معايير هذا التحول في إنتاج القوت من خلال تربية الحيوان والزراعة، وصناعة الفخار والفنون المختلفة (كما ذكرنا من قبل)، إلا أن وتيرة هذا التطور الحضاري لم تكن متساوية في كل الأماكن. وبيّن العلماء أنه لم يكن تطوراً في خط آحادي (Linear) جامد، كما أن تعبيراته المادية لم تكن هي الأخرى متساوية في كل المجتمعات (Binford 1974).

وتُعد هذه المعلومات مدخلاً ضرورياً لتناول خصائص فترة العصر الحجري الحديث في المملكة، وذلك من خلال دراستنا لموقع الثمامة، الذي وصفه فريق وكالة الآثار في عام ١٤٠٣هـ بأنه يمثل مستوطنة أو قرية تعود إلى تلك الفترة. ويمثل التأكد من هذه الافتراضات أحد الأهداف الأساسية لمشروع الثمامة الأثري. وقد ذُكر في تقرير بعثة وكالة الآثار والمتاحف أن مستوطنة الثمامة، يمتد تاريخها خلال العصر الحجري



الحديث والفترات التاريخية اللاحقة، وقُدِّر لها الفترة بين ٥٠٠٠- ١٠٠٠ ق. م. وفي المرحلة الأولى من استيطان موقع الثمامة، يشير التقرير إلى اعتماد الناس على الصيد واستئناس الحيوان والزراعة البدائية، ولكنهم لم يصنعوا الفخار بعد (أبو درك وآخرون ١٤٠٤).

إن ما يجدر ذكره في هذا المقام، أن بعثة وكالة الآثار والمتاحف لم تذكر دليلاً واحداً على استئناس الحيوان أو الزراعة. وقد كان اعتماد الباحثين في تحديد انتماء الموقع للعصر الحجري الحديث، منصباً على نوع الأدوات الحجرية، التي وجدت بالموقع، وهي الحراب المميزة الصنع من حجر الصوان، التي شُحذت من الوجهين بواسطة تقنية الضغط أو الطرق الخفيف، إضافة إلى صناعة المخارز والنصال ورؤوس السهام الدقيقة. وقد كشف فريق العمل ما وصف بأنه مبانٍ سكنية، تتمثل في منشآت حجرية دائرية الشكل. أما مرحلة ما بعد العصر الحجري الحديث، فمثلتها المباني الدينية، التي صنفت إلى خمسة أنواع، مثل: الأبنية الشريطية، أو الدائرية، أو البيضاوية، أو المستطيلة؛ والنوع الآخر من المنشآت هو المدافن، التي لم يرد وصف دقيق لها في ذلك التقرير. ولعل من أكبر الاشكالات التي ارتبطت بأعمال التنقيب بالموقع، عدم نشر تقرير علمي مفصل للعمل الأثري بموقع الثمامة، وطبيعة البقايا الأثرية التي كشف عنها، وعلاقتها بعضها ببعض (أبو درك وآخرون ١٤٠٤)، وهي ما ستناقش في ثنايا هذا البحث.

توضح التقارير والأبحاث المنشورة أن آثار العصر الحجري الحديث، وجدت بنسب متفاوتة في كل أقاليم المملكة العربية السعودية تقريباً. وقد نشرت بعض هذه التقارير في شكل ملاحظات ميدانية، كتبها مستكشفون أو هواة، منذ بداية القرن الميلادي الماضي. ولكن الأدبيات العلمية يمكن إرجاعها لثلاثة مصادر أو أعمال ميدانية رئيسية؛ أولها، مكتشفات بعض الجيولوجيين العاملين في شركة أرامكو، عندما قدموا للمساهمة في عمليات التنقيب عن البترول. وكانت مساهمتهم تتركز في المنطقة الشرقية وصحراء الربع الخالي. فقد وصفوا فيما كتبوه ملتقطات سطحية، مثل: الأدوات الحجرية المختلفة، وكذلك عظام الحيوانات المتحجرة.

أما المصدر الثاني من الأدبيات الحديثة، فهو ما قامت به فرق البحث، التي شكلتها وكالة الآثار والمتاحف، عندما بدأ المسح الأثري الشامل للمملكة في العام ١٣٩٦ هـ. وقد كان لفترة ما قبل التاريخ نصيب وافر من نتائج هذه الأبحاث، التي أوضحت مناطق انتشار مستوطنات هذه الفترة، كما أبرزت في الوقت نفسه، العديد من التساؤلات، التي ما زالت تنتظر الإجابة. وفي المقام الثالث، يقع ضمن الأدبيات الحديثة ما قام به باحثون سعوديون، نقّبوا أو مسحوا بعض مواقع ما قبل التاريخ، وخاصة فترة العصر الحجري الحديث (Masry 1974). إن محتويات الكثير من هذه التقارير تفيدنا في مجال المقارنة والتحليل، لما اكتشفناه من مواد أثرية في موقع الثمامة.

تُعد صحراء الربع الخالي الغربي من أول المناطق، التي حظيت بنشر معلومات عن وجود مواقع العصر الحجري الحديث، منذ أكثر من نصف قرن، عندما وصف بعض الأوربيين والأمريكيين الأدوات الحجرية، التي جُمعت من المنطقة، مثل: رؤوس السهام، والحراب، والأدوات الورقية المشحوذة من جانبين، وكذلك الأدوات المصقولة. وقد تضمنت تلك التقارير معلومات مفيدة عن الأحوال البيئية في الصحراء، التي كانت مناسبة للاستيطان البشري في فترات معينة، إذ عرفت فترات مطيرة، تعقبها أخرى جافة، حيث تقل المستوطنات أو المواقع الأثرية (Smith and Maranjian 1962). ونشر مكلور ملخصاً لتعاقب أدوار ما قبل التاريخ في الجزيرة العربية عموماً، مع التركيز على المنطقة الشرقية من المملكة. وربط ذلك بالتحولات المناخية والتاريخ السكاني في المنطقة. وهو يطرح في ذلك أفكاراً أولية، ناقش من خلالها العلاقات الإقليمية للجزيرة العربية خلال العصور الحجرية (McClure 1971). أما مجموعات الأدوات الحجرية من الربع الخالي، التي جمعها في أوقات متباينة، أشخاص من أرامكو، فقد أجريت عليها دراسة تفصيلية تعد مرشدة لدراسات أخرى مماثلة، لأية أدوات تعود للعصر الحجري الحديث يمكن اكتشافها في المنطقة، خاصة إن كانت تحمل السمات التقنية والنوعية نفسها (إيدنز ١٤٠٢هـ) .

وبحكم مواقعها على ساحل الخليج العربي، كانت المنطقة



الشرقية مثار اهتمام العلماء منذ وقت مبكر، بسبب كثرة مواقع العصر الحجري بها، وما حوته من مواد أثرية؛ خاصة بعد اكتشاف مواقع لحضارة العبيد فيها. وقد توالت الأبحاث في المنطقة، حيث شملتها وكالة الآثار والمتاحف ضمن مشروع المسح الأثري، كما جرى التنقيب في عدد من المواقع (Oates 1978 ; Masry 1974).

وفي المنطقة الشمالية والشمالية الغربية، بدأ المسح الأثري في ١٩٧٦م، واستمر لسنوات عدة، كُشف خلالها عن الكثير من مواقع العصر الحجري الحديث، التي تحوي أدوات حجرية مثل: النصال، والشفرات المبتورة، والمناقش. وقد وجد في بعض هذه المواقع منشآت حجرية، مثل الدوائر وبقايا الأكواخ، ويعتقد أن بعضها يعود للفترة الزمنية نفسها. وهكذا، فإن ارتباط المنشآت الحجرية بمستوطنات العصر الحجري الحديث في المملكة، ظاهرة متكررة في أكثر من مكان (آدمز وآخرون ١٩٧٧، بار وآخرون ١٩٧٨، انجراهم ١٩٨١ كأمثلة للتقارير عن المنطقة الشمالية من المملكة) وما وجد في الثمامة يجب أن ينظر إليه من خلال هذه المعطيات.

كذلك، لا بد من الإشارة إلى المسح الأثري الشامل، الذي أجرته وكالة الآثار والمتاحف في منطقة الرياض، وهي المنطقة التي تشمل موقع الثمامة وما يحيط بها من مواقع أخرى. يحتوي التقرير على معلومات مفصلة عن البيئة الطبيعية والجيولوجيا في المنطقة، ما يؤسس قاعدة معلومات ضرورية لفهم التسلسل الحضاري، الذي يبدو أنه استمر من الفترة الآشولية إلى ما بعد العصر الحجري الحديث . ويُذكر في هذا التقرير أن معثورات العصر الحجري الحديث في منطقة الرياض تنتمي، من ناحية التصنيف الآثاري، إلى المواد، التي اكتشفت في الربع الخالي الغربي وكذلك المنطقة الشرقية. واعتمد الباحثون على أن ظهور رؤوس السهام مشحوذة الوجهين والشوكية منها، علامة على بداية هذه الفترة في منطقة نجد. وقد أمكن تمييز ثلاثة وعشرين موقعاً من ثمانية وخمسين موقعاً حول مدينة الرياض، تعود لهذا العصر (زارينس وآخرون ١٤٠١هـ).

ومن الأدوات المعروفة، أيضاً، الشفرات المشذبه والشظايا والمكاشط . وقد أشار التقرير إلى وجود ثلاث بيئات في المنطقة، تنتشر فيها مواقع العصر الحجري الحديث بطريقة مشابهة تقريباً لما لاحظناه في منطقة الثمامة. كما جاء في التقرير، أيضاً، وجود مواقد للنار من الحصى وبقايا منشآت مؤقتة، إضافة لظاهرة كميات الحصى المتشققة بسبب حرارة النار. وقد ورد في التقرير من المعلومات الميدانية، ما يتيح لنا قدراً وافياً من المقارنة.

كذلك، وصف التقرير أنواعاً مختلفة من المنشآت الحجرية السكنية، ومنشآت ذات طبيعة دينية نُسبت إلى فترة حضارية أعقبت العصر الحجري الحديث، أُطلق عليها فترة "البادية المبكرة" (زارينس وآخرون ١٤٠١هـ) .

ومن جهة أخرى، قدم كاتب هذا البحث نموذجاً منهجياً لدراسة وتصنيف المنشآت الحجرية ومقارنتها ببعضها، في دراسة مستقلة في منطقة الدغم، شمال شرقي مدينة الرياض. ومما لاشك فيه أن نتائج تلك الدراسة تحيلنا إلى مناقشة ظاهرة المنشآت الحجرية، ليس في منطقة الثمامة فحسب، بل في كل أنحاء المملكة (Alsharekh 2002)، خاصة أن القاسم المشترك بين تلك الدراسة ومشروع الثمامة الأثري، يتمثل في أن المنطقتين كلتيهما تقعان ضمن التكوين الجيولوجي لهضبة العُرمة، شمال شرقي مدينة الرياض.

منطقة البحث وطبيعتها:

تُعرف المنطقة التي تغطيها هذه الدراسة بـ: "متنزه الثمامة"، وتقع شمال شرقي مدينة الرياض على بعد ٩٥ كلم منها، بين خطي طول ٣٠َ ٤٦ْ و ٥٠َ ٤٦ْ ودائرتي عرض ٢٥َ ٢٥ْ و٠٥َ ٢٥ْ. وقد اشتقت المنطقة اسمها من نبات الثمام ، وهو نبات بري ينمو طبيعياً في المنطقة الوسطى من المملكة العربية السعودية ، وتتغذى عليه أنواع مختلفة من الحيوانات.

وتشكل هذه المنطقة جزءاً من التشكيل الجيولوجي المعروف باسم "الرف العربي" (Arabian shelf)، الذي يغطي الأجزاء الوسطى والشرقية من الجزيرة العربية، وهو هضبة رسوبية تحوي تكوينات رملية وجيرية، تتخللها جروف صخرية ، من تكوينات العصر الجوراسي. وتنحدر من الغرب



اللوحة ١: المعالم الطبوغرافية الرئيسة بمنطقة الدراسة.

إلى الشرق باتجاه الخليج العربي، مرتكزة على تكوينات الدرع العربي (Arabian Shield)، الذي تشكّل من تكوينات صخور ما قبل الكمبري (زارينس وآخرون ١٩٧٩: ٩-١٠؛ ١٩٨٠: ١٠؛ ١٩٨١: ١٠). وتُظهر تضاريس السطح في منطقة البحث ثلاثة تكوينات متباينة في طبوغرافيتها وتكوينها الجيولوجي (اللوحة ١)؛ (الخريطة ١).

أ - السلسلة الجبلية :

وتعرف بسلسلة جبال العارض ومنحدراتها. وتمتد من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي. وتحوي تكوينات من الحجر الرملي والجيري الطباشيري، تخللها حجارة متحولة. وقد تعرضت لبعض التصدعات بفعل عوامل التعرية، ما أدى إلى تكوين الكثير من الأخاديد والشقوق والمخابئ الصخرية. ينمو فيها القليل جداً من النباتات الصحراوية، ويتراوح ارتفاعها بين سفوح الجبال ومنحدراتها بين ٨٠٠-٦٤٠م فوق سطح البحر.

ب- الهضبة السفلية:

وهي المنطقة التي تلي السلسلة الجبلية مباشرة من ناحيتي الغرب والشمال وتسير بمحاذاتها. وتستند على قاعدة صخرية من الحجر الرملي والجيري، الذي يشكل امتداداً سفلياً للسلسلة الجبلية. وتغطي سطحها طبقة متفتتة من الحجر الرملي والتكوينات الحصوية بفعل التقلبات المناخية. ويتخلل هذه الهضبة الكثير من الشعاب والأودية، التي تنحدر من السلسلة الجبلية حاملة مياه الأمطار الشتوية، وتتراوح في ارتفاعها بين ٦٤٠-٦٠٠م فوق سطح البحر. وتنمو على هذه الهضبة عدة أنواع من الشجيرات والنباتات الصحراوية وشبه الصحراوية .

ج - المنطقة السهلية :

وتعرف باسم "البُطين"، وهي أكثر مناطق الدراسة الثلاث انخفاضاً، حيث يقل ارتفاعها عن ٦٠٠ م فوق سطح البحر. وتلي الهضبة السفلية من ناحيتي الشمال والغرب وتسير بمحاذاتها. وتغطي هذه المنطقة طبقة من الرمل والتكوينات الطينية، التي نتجت عن تفتت الحجر الرملي والترسبات، التي نشأت عن حركة الأودية التي تنحدر إليها من السلسلة الجبلية والهضبة السفلية. وتتسم هذه المنطقة بوجود كثبان

رملية ومنخفضات شكلت بركاً وسبخات قديمة، لا يزال بعضها يحوي تجمعات للمياه في موسم الأمطار. وتشير هذه الظواهر السطحية إلى تأثير الفترات الجافة والمطيرة، والحارة والرطبة، خلال العصور الجيولوجية المتأخرة، خاصة العصر الرباعي بشقيه البلايستوسين والهولوسين. وتنمو في المنطقة حالياً الكثير من النباتات الصحراوية والشجيرات، خاصة في المناطق المنخفضة وحول البرك (السبخات) القديمة.

وكان لا بد من معرفة الظواهر الطوبغرافية لمنطقة البحث، بحكم أنها تقدم دلالات عن اختيار مواضع المواقع الأثرية وأنماط توزيعها. وقد حكَمَ هذا التباين لاحقاً تقسيمنا للمنطقة وانتقاء العينة، عند إجراء المسح والتنقيب .

الخريطة ١: المواقع الأثرية في متنزه الثمامة بشمال شرقي الرياض (مقياس الرسم ١ : ٥٦٠٠٠).

المسح الاستكشافي والمسح الشامل:

في إطار الوقت والإمكانات المتاحة لهذا المشروع ، حرص فريق العمل على جمع أكبر قدر من المعلومات، بمناهج علمية، عن التكيف البيئي للجماعات البشرية، التي مارست نشاطاً حضارياً في هذه المرحلة عبر الزمن، من خلال الظواهر واللقى الأثرية، التي يمكن الكشف عنها.

وقد استعان فريق العمل ببعض الخرائط الطبوغرافية المتوافرة للمنطقة، من هيئة المساحة الجيولوجية، التي تظهر بعض معالم السطح والخطوط الكنتورية . غير أنها لم تكن ذات فائدة فيما يختص بالمواقع الأثرية؛ إذ لم تُرصد عليها أية مواقع، بحكم أن المنطقة لم تتعرض لمسح آثاري سابق، ولم تخضع للمسح الآثاري الشامل الذي أجرته الوكالة العامة للآثار والمتاحف (زارينس وآخرون ١٩٧٩، ١٩٨٠ ، ١٩٨١)

وقد تضمنت أولى الخطوات الميدانية مسحاً استكشافياً في منطقة الدراسة، متخذاً من الحافة الجبلية من ناحية الشرق وحدود المتنزه من ناحية الغرب والشمال والجنوب حدوداً للمنطقة. وقد أُجري المسح الاستكشافي بالسيارة والسير على الأقدام، بدءاً بالمواقع التي سبق اختبارها بواسطة فريق من الوكالة العامة للآثار والمتاحف (أبو درك وآخرون ١٤٠٤). وقد اثبت هذا المسح كثافة الظواهر الأثرية وتباينها في الشكل والحجم. كما أثبت -في ذات الوقت ذاته- وعورة المنطقة والمنحدرات الجبلية، حيث تتركز معظم الظواهر الأثرية، الأمر الذي تطلب جهداً خاصاً عند إجراء المسح الشامل.

عقب ذلك، بدأ إجراء المسح الأثري الشامل، وكان مخططاً أن تُقسّم المنطقة إلى مربعات شبكية (Grid System) أو مسارات متوازية، كما هو متعارف عليه (McIntosh 1999: 48-49)؛ غير أن طبيعة المنطقة ووعورتها أدت إلى تغيير خطوط المسارات، لتساير تضاريس المنطقة تجنباً للأخاديد العميقة والحافات الصخرية، التي حالت أحياناً دون مواصلة السير حتى على الأقدام. وعند تقسيم منطقة الدراسة إلى أقسام فرعية لإجراء المسح، اتبعنا منهج التقسيم الطبوغرافي، فقسّمناها إلى ثلاثة أقسام طبوغرافية أعطيت الرموز التالية (أ، ب، ج- A, B & C) حسب الترتيب أعلاه. وقد نُفّذ المسح عبر وسيلتين: السيارة والسير على الأقدام، في خطوط متوازية أو شبه متوازية.

وفي الحالتين جرت معاينة المعالم الظاهرة على السطح، والوقوف عندها وتمييز ما هو أثري منها عما عداه.

عُرّف "الموقع الأثري" بأنه: الموضع الجغرافي الذي يحوي بقايا حضارية تجمع بينها وحدة مكانية. وتختلف المواقع من حيث عدد الظواهر، التي يحويها كل موقع، من أدوات حجرية، ومبانٍ، وأكوام، ومساطب حجرية، ومقابر.

وقد أمكن الوقوف عند كل ظاهرة أثرية، ووضعت علامة هي عصا خشبية ملونة بطول متر واحد على أعلى الظاهرة، ووضع في أعلى العصا شريط براق بعدة ألوان، وطرفان طافيان لتسهل رؤيته. ومن ثم رؤية الظاهرة عند رصد الإحداثيات من قبل فريق المسح الميداني. وقد حوى "متنزه الثمامة" من الظواهر الأثرية ما فاق تصورنا، إذ بلغت مئات الظواهر، التي تجمّع بعضها مشكّلة وحدة متجانسة في شكلها، حيناً ومتنافرة، أحياناً أخرى. وكانت بعض هذه الظواهر متقاربة، بينما كان بعضها الآخر متباعداً، ما شكّل سؤالاً حول كيفية تحديد أبعاد كل موقع، وما يحويه من ظواهر أثرية. وقد تركنا ذلك لتقديرنا في مواقع المنشآت الحجرية. أما مواقع الأدوات الحجرية، فقد حكمت كثافة وانتشار الأدوات أبعاد الموقع، واضعين في الاعتبار إمكانية انتشار الأدوات الحجرية بسبب عوامل الطبيعة.

وقد استغرق فريق العمل في رصد وتحديد مواقع الأدوات والمنشآت الحجرية، وقتاً فاق ما هو مقدّر له عند إجراء المسح الشامل بسبب كثافة الظواهر الأثرية في المنطقة، من ناحية، وصعوبة الوصول إليها في بعض المناطق الوعرة، من ناحية أخرى (الخريطة ١). وقد تمكن فريق العمل من الوصول إلى تلك الظواهر الأثرية ورصد أغلبها، ما أثر سلباً على الوقت المتاح لبقية جوانب العمل .

التوثيق :

كان لا بد من رصد كل الظواهر والمواقع المكتشفة، وتحديد مواضعها على خريطة طبوغرافية. وقد استعمل فريق من المساحين، ضمن فريق العمل جهازي (جي بي اس



اللوحة ٢: تحديد مواقع الظواهر الأثرية باستخدام جهاز (GPS).

GPS)، أحدهما محمول يدوياً، والآخر ثابت من نوع (Radian)، وهو الأكثر تطوراً، استُعين به لأخذ القراءات الإحداثية لكل ظاهرة أثرية (اللوحة ٢)، ومن ثم إسقاطها على الخارطة. وقد رأينا عند تحديد المواقع أن نعطي الموقع رقماً عربياً يعقب الإشارة لمتنزه الثمامة، الذي أشرنا إليه بالأحرف العربية (ثم) واللاتينية (TH)، ثم وضع رمز أحد مناطق الدراسة الثلاث، التي أشرنا إليها بالأحرف العربية (أ، ب،ج) واللاتينية (A, B, C)، ومن ثم يشار إلى الموقع رقم ٢٠، مثلاً، على النحو الآتي: (ثم-أ-٢٠)، وباللغة الانجليزية (Th-A-20). أما الظاهرة الموجودة داخل الموقع فيرمز لها بحرف أبجدي عربي، أو لاتيني مماثل له في حال نشرت هذه الدراسة بغير اللغة العربية؛ فيشار إلى الظاهرة الرابعة في الموقع ٢٠ مثلاً بـ (ثم-أ-٢٠-د)، وبالحرف اللاتيني (Th-A-20d).

وقد درجنا عند توثيق المواقع الأثرية على تعبئة استمارة مسح لكل موقع، تحوي رقم الموقع وما يحويه من ظواهر، مع وصف مختصر لها ووصف عام للموقع والمنطقة المحيطة به وأبعاده، ونحو ذلك. ثم تؤخذ الصور الفوتوغرافية اللازمة للمواقع، بوجه عام، وتفاصيل الظواهر من اتجاهات مختلفة، حسب الوقت من النهار الذي فيه التصوير. كذلك، جُمعت ملتقطات سطحية من مواقع الأدوات الحجرية لتكون ممثلة للموقع لاختبارها قبل البدء في التنقيب .

اختيار المواقع واختبارها :

بعد رصد المواقع والظواهر الأثرية وتوثيقها، كان لابد من انتقاء منهج يسمح باختيار عينة مُمثلة للمواقع بكل أنواعها، آخذين في الاعتبار كذلك مواضعها حسب التوزيع الطبوغرافي، وأنماط ذلك التوزيع (الخرائط ٢-٤). واستناداً على ذلك، اختيرت مواقع من المناطق الثلاث شملت الأنواع المتوافرة في المنطقة؛ فوقع الاختيار مبدئياً على المواقع الآتية من المناطق الثلاث :

١- **منطقة أ (السلسلة الجبلية):**

مواقع المنشآت الحجرية: (ثم-أ-١١) و (ثم-أ-١٢).

مواقع الأدوات الحجرية: (ثم-أ-٨)، (ثم-أ-٩)، (ثم-أ- ١٠).

٢- **منطقة ب (الهضبة السفلية):**

مواقع المنشآت الحجرية: (ثم-ب-١).

٣- **منطقة ج (المنطقة السهلية):**

مواقع الأدوات الحجرية المتضمنة لمواقد النار: (ثم- ج - ١).

وعند اختيار هذه المواقع تطلّب كل منها منهجاً يتناسب وطبيعة الموقع ، كتحديد منطقة تجميع أدوات حجرية واحدة

أو أكثر (collection area)، بأبعاد تتراوح بين (٤ × ٤)م أو (٤ × ٨) م مثلاً، حسب امتداد الموقع بالنسبة لمواقع الأدوات الحجرية . وجمع كل ما تحويه المساحة المختارة من أدوات حجرية، ثم اختبار ما تحت السطح على أمل أن يكون للموقع امتداد رأسي وتراكم للمعثورات الأثرية. وحين نلاحظ اختلافاً في نوع المعثورات على السطح، ما يوحي بنشاط مختلف بين مكان وآخر، تُقسّم المساحة المختارة إلى مربعات أصغر، وتجمع معثورات كل مربع على حدة.

أما المنشآت الحجرية، على اختلافها، فقد حُفرت مجسات عند جدرانها لكشف أساساتها وأبعادها، إلى حين إجراء التنقيب.

التنقيبات الآثارية

مواقع المنشآت الحجرية:

أسهم الجهد المكثف، الذي بُذل في مسح الأجزاء المختلفة من منطقة الدراسة، والتوثيق المساحي الدقيق لكافة الظواهر الأثرية، في التعرف على التنوع الكبير لأنماط المنشآت الحجرية، الذي تتمتع به الثمامة. وكجزء من خطة العمل لهذا المشروع، حرص فريق العمل على تنقيب عدد مختار من هذه المنشآت الحجرية، بحيث تعكس التنوع المعماري، الذي تزخر به منطقة الدراسة.

وقد بُدء باختيار عدد من المنشآت الحجرية من منطقة (أ)، كونها الأكثر غزارة في هذا النوع من الظواهر الأثرية، من جهة، ولتعدد أنماطها، من جهة أخرى.

ولما كانت المنشآت الحجرية بمنطقة (أ) تتوزع جغرافياً، إما على شكل مجموعة وحدات أثرية مرتبطة مكانياً ببعضها، أو على شكل وحدات منفردة ليس لها ارتباط مكاني بأية ظواهر أثرية أخرى، حرص الفريق البحثي على اختيار نماذج تعكس هذا التنوع الحضاري، الذي يشير إما إلى علاقة مكانية (Spatial) بين الظواهر الأثرية المختلفة، أو زمانية (Temporal) أو إليهما معاً (الخريطة ٢).

الخريطة ٢: المواقع الأثرية المنقبة وعينات الأدوات الحجرية بمنطقة (أ).





اللوحة ٣: منظر عام يبين الظواهر الأثرية بموقع (ثم-أ-١١).

ويشتمل التقرير الحالي على وصف لتنقيب كامل لثلاث ظواهر أثرية من موقعين في منطقة (أ)، وظاهرة واحدة من منطقة (ب)، كعينة للمنشآت الحجرية الموجودة بمنطقة الدراسة.

منطقة (أ):

أ- الموقع (ثم - أ- ١١/ Th-A-11)

وقع الاختيار على ظاهرتين أثريتين من الموقع (ثم-أ-١١)، الواقع على ربوة صغيرة، ويشتمل على سلسلة من المنشآت الحجرية المختلفة الشكل والحجم (اللوحة ٣).

أُعطيت كل واحدة من الظاهرتين رمزاً خاصاً بها، كما ذكرنا، أحدهما (ثم-أ-١١-أ)، والثانية (ثم-أ-١١-ب). وبُدء بوضع مخطط شبكي أبعاده ١٠ × ١٠ م، ليشمل كلا الظاهرتين.

الظاهرة (أ): بعد التصوير أُزيلت الأحجار المتناثرة على الظاهرة (أ) وحولها، إضافة إلى الرمال وكتل الأحجار غير المنتظمة التي تغطي الظاهرة، حتى ظهر الشكل الخارجي لها. وبعد إزالة العديد من الأحجار الساقطة حول الظاهرة، اتضح أنها تأخذ شكلاً مستطيلاً، حيث تبلغ أبعادها (٢٦٠ سم × ٢٣٥ سم). وقد أظهر التنقيب الرأسي للظاهرة أن عمقها يبلغ ٤٠ سم. وبعد ذلك أُزيلت الرمال الموجودة داخل الظاهرة، التي تخللتها ألواح حجرية (Slabs) بأحجام مختلفة. ولم يُظهر المقطع الذي حُفر في جزء من الظاهرة أي دلائل حضارية بعد ذلك العمق. وأما مجموعة الأحجار الطولية الصغيرة المصفوفة شرقي الظاهرة (أ)، فقد بلغ طولها من الشمال إلى الجنوب ٩٠ سم، وارتفاعها نحو ٣٥ سم؛ ولم تكن هناك دلالة تفيد بوجود بقايا أثرية تحتها. وبعد انتهاء التنقيب، ظهر الشكل الكامل لهذه المنشأة الحجرية، وهي عبارة عن بناء من الحجر المرصوف، بألواح حجرية غير متساوية الحجم والأبعاد فوق بعضها بشكل أفقي، من الجهتين الشمالية والجنوبية بعمق ٣٢ سم.

وأما الجهة الغربية من الظاهرة (أ)، فلا توجد فيها سوى أحجار صغيرة موضوعة بشكل أفقي، ولا تشكل جداراً متماسكاً، كما هو الحال في بقية الأضلاع. وقد خلت الظاهرة من أية بقايا مادية، عضوية كانت أو غير ذلك.

الظاهرة (ب): تقع إلى الشمال من ظاهرة (أ)، وتفصل بينهما مسافة تقدر بمترين. تشتمل هذه الظاهرة على قسمين رئيسين: الأول خمسة صفوف من الأحجار المرصوفة

اللوحة ٤: لقطة للموقع (ثم-أ-١١) باتجاه ج/ش بعد التنقيب، وتظهر الظاهرتان (أ)، في منتصف الصورة، و(ب)، في مقدمتها، وإلى الشرق منها صفوف من الأحجار الرأسية.

بشكل رأسي، لا يتجاوز ارتفاعها أكثر من ثلاثين سنتميتر عن سطح الأرض. وأما القسم الثاني، فيتمثل في كميات من الأحجار الطولية المتساقطة والمتناثرة بكميات كبيرة غربي الأحجار الطولية الواقفة.

عقب تصوير الظاهرة، نُظِّف سطحها الخارجي بإزالة الأحجار الساقطة، وأُزيلت الأتربة التي تغطي الجزء العلوي منها، فظهرت مجموعة من الأحجار المتكتلة بشكل أفقي، على بعض أجزاء الظاهرة. ومن ثم تتبعت الجدران الخارجية بحفر مجسات على امتداد الجدران، أوضحت أن الظاهرة تنقسم إلى أربعة أقسام. كما يوجد جدار مكون من صفوف من الأحجار الموضوعة بشكل أفقي، فيما عدا الجهة الغربية. ويوجد في وسط الظاهرة ما يشبه الجدار الحجري المكّون من ألواح حجرية، باتجاه شمال-جنوب، بينما يوجد حجران موضوعان بطريقة رأسية، باتجاه شرق-غرب. وقد غطي القسمان الواقعان باتجاه الشرق بمجموعة من الحجارة ذات الشكل المصفح، بينما لا يوجد في القسمين الواقعين إلى الشرق سوى الأتربة والأحجار المتساقطة. وبعد ذلك، أُزيلت الأحجار، التي تغطي القسمين الواقعين شرقي الظاهرة، وحفرت الظاهرة إلى عمق ٣٠ سم، لتصل إلى الطبقة الصخرية الطبيعية. وعند إزالة الرديم بين صفوف الأحجار الواقعة شرقي الظاهرة (ب)، لم تكن أجزاؤها السفلية عميقة بدرجة كبيرة.

ولم تسفر أعمال التنقيب في الظاهرة (ثم-أ-١١-ب) عن كشف أي بقايا أثرية (اللوحة ٤)، ما يثير العديد من التساؤلات حول الدور الوظيفي للظاهرتين (أ) و (ب) بالموقع (ثم-أ-١١).



ب- الموقع (ثم-أ-١٢/ Th-A-12)

يحتل الموقع موضعاً في مجرى ماء صغير منخفض نسبياً، وهو ركام بيضاوي الشكل تغطيه الأتربة والأحجار، كما يبدو ظاهرياً. وتقع هذه الظاهرة في منخفض ينتهي إلى أحد الشعاب، التي تنحدر باتجاه الجنوب لتلتقي بأحد الأودية الكبيرة، الذي يصب غرباً في المنطقة (ج). وقد رصف أعلى التل بمجموعة من الحجارة، وضعت بشكل عشوائي فوق بعضها، وتغطيها كميات من الأتربة. وفي الجهة الغربية، يظهر مدخل لهذه الظاهرة، تُشاهد على جانبيه حجارة مصفوفة بشكل منظّم على أرضية صخرية، وينتهي بحجر طولي يأخذ وضعاً رأسياً. ويبلغ طول الظاهرة نحو ٤م أقصى عرض لها نحو ٢,٥ م (اللوحة ٥).

بعد إزالة الحجارة الخارجية التي تغطي سطح الظاهرة، ظهر بناء مستطيل الشكل مغطى بحجارة وتربة طينية/ رملية متماسكة. وقد اتضح وجود مجموعة من الألواح الحجرية، التي ترتكز على حائطين حجريين على الجانبين، ما يوحي بوجود لحد قبر. وبعد إزالة الألواح الحجرية ظهرت تربة تغطي الجزء العلوي من المدفن، يبدو أنها تسربت عبر فجوات الألواح الحجرية. وبعد إزالة هذه الأتربة بشكل تدريجي، وعلى عمق نحو ٧-١٠ سم، ظهرت كسر عظمية صغيرة لجزءٍ من هيكل عظمي بشري، تمثلت في أجزاء من عظام الأطراف، كما يبدو، من تجويفة النخاع. وهناك كسر عظام أخرى صغيرة من الجمجمة، كما يبدو من سمكها والثقوب التي بها. فغربل فريق العمل التربة، وجمع منها نحو ٠,٧٥ كيلوجرام من العظام الصغيرة المتفتتة. وبالقرب من الأرضية الصخرية التي تقف عليها الظاهرة، وجد حجر مستطيل الشكل موضوع بصورة أفقية لا تتجاوز سماكته ٥ سم، يُمثل مسنداً خاصاً لوضع رأس الميت عليه؛ وبالقرب من



اللوحة ٥: الظاهرة (ثم-أ-١٢) بعد إزالة بعض الأحجار الخارجية التي تغطي سطحها.

هذه الوسادة الحجرية عثر على جزء من عظم العضد، ما يشير إلى أن الجثمان قد وضع على جانبه الأيمن متجهاً إلى الشمال، والرأس في اتجاه الشرق. وفي موضع الجزء الأسفل من الهيكل، عُثر على جزء من عظم القصبة، (أحد عظمي الساق)، بينما لم يُعثر على بقية أجزاء الهيكل (اللوحة ٦).

لم يُعثر على أية بقايا أثرية أخرى داخل هذه الظاهرة.

وتبلغ أبعاد اللحد، الذي وجدت فيه بقايا الهيكل ٢,٣٥ م طولاً و٠,٣ م عرضاً، ويبلغ عمقه ٠,٤ م. وعلى مسافة ٢,٢م من نهاية اللحد إلى جهة الغرب رصت ألواح حجرية بطول ٠,٧ م.

منطقة (ب)

أ- الموقع (ثم-ب-١/ Th-B-1)

يحتل هذا الموقع ربوة مرتفعة نسبياً في المنطقة (ب)، تلي منحدرات السلسلة الجبلية من جهة الغرب، وتطل على المنطقة السهلية (الخريطة ٣). يمتد الموقع لمسافة ٣٠٠م شرق-غرب، ونحو ٢٠٠م شمال-جنوب، ويحوي عدداً من المنشآت الحجرية.

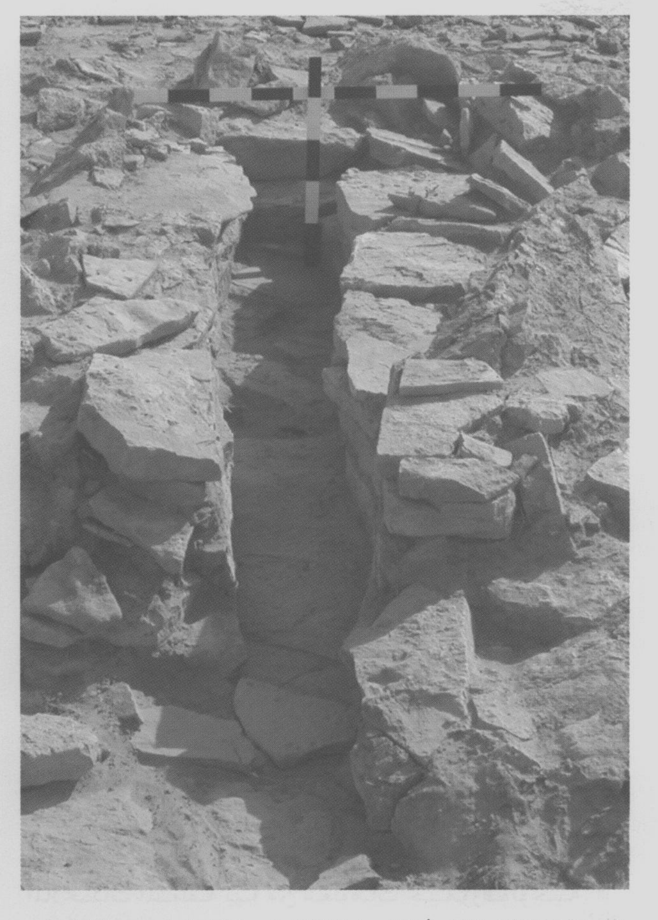
ومن بين هذه المنشآت الحجرية مبان حجرية، وأكوام ركامية يصل عددها إلى ثماني ظواهر أثرية (اللوحة ٧).

يرتكز الموقع على طبقة متفتتة من الحجارة الرملية التي تعلو الطبقة الصخرية، تشكل امتداداً للسلسلة الجبلية في المنطقة (أ). ويشق الموقع من الشرق إلى الغرب طريق حديث بعرض ٣م. وقد اختير مبنى حجري للتقيب بحكم أنه يشكل ظاهرة تختلف عما حولها، ومن ثم يمكن اتخاذه عيّنة للمباني الحجرية في منطقة (ب)، وقد أُعطي المبنى رقماً خاصاً به.

الظاهرة: (ثم-ب-١-أ).

تحتل هذه الظاهرة الحجرية الجانب الغربي من الموقع، وهي بناء مستطيل الشكل يرتفع تقريباً إلى نحو ١,٣٠م، ما

الخريطة ٣: ظاهرة أثرية منقبة في منطقة (ب).



اللوحة ٦: الظاهرة (ثم-أ-١٢) بعد إزالة الرديم وكشف اسلوب عمارة المدفن.

عدا الجانب الغربي، الذي يقل ارتفاعه قليلاً. وتشير الأحجار الموجودة داخل وخارج المبنى، إلى تساقط كميات كبيرة من الأحجار من الجزء العلوي من المبنى، يبدو أنها سقطت بفعل عوامل طبيعية. ويصل طول المبنى إلى نحو ٧,٤م وعرضه إلى ٢م، وهناك بناء شبه مربع شمالي البناء المستطيل، والذي ربما أضيف في فترة لاحقة، ومكون من مجموعة من الألواح الحجرية.

بدأ العمل بحفر مجسات على امتداد جدران المبنى الحجري من الخارج، وكذلك إزالة الرمال والأحجار المتراكمة داخل المبنى، وذلك بتتبع أساسات جدران المبنى الحجري حتى الوصول إلى أرضية المبنى. وأظهرت أعمال التنقيب بالموقع أن جدران المبنى تتكون من ألواح حجرية كبيرة إلى متوسطة الحجم، ورصت فوق بعضها بطريقة منتظمة، ودون وضع أي مادة مُثبتة.

ويتوسط الجدار الجنوبي للمبنى الحجري لوح حجري كبير الحجم، يصل عرضه إلى نحو ١,٤م، يشكل الجزء



اللوحة ٧: الظاهرة (أ) في موقع (ثم-ب-١) قبل البدء بتنقيبها.

الأعظم من الجدار، وبطول يبلغ نحو ١,٣٠م. وبعد إزالة ٠,٥م من الرمال والكتل الحجرية الكبيرة والمتوسطة الحجم المطمورة داخل المبنى، كُشف عن حائط حجري يمتد باتجاه شرق-غرب، ويبعد نحو ٣,٥م من الجدار الشمالي للمبنى الحجري؛ ويقسم المبنى إلى قسمين متساويين تقريباً. كما وجدت رصة من الحجارة متوسطة وصغيرة الحجم تغطي جزءاً من أرضية المبنى (اللوحة ٨). ولم يُعثر على أية بقايا مادية في هذه الظاهرة تكشف عن وظيفتها وطبيعة استخدامها.

مواقع الأدوات الحجرية :

كان أحد نتائج المسح الأثري الذي أجري في منطقة الثمامة، اكتشاف عدد من مواقع الأدوات الحجرية، التي يبلغ عددها نحو ١٥ موقعاً، في مناطق المسح "أ" و"ب" و"ج". وقد اختيرت ثلاثة من هذه المواقع المكتشفة لجمع عينات من الأدوات الحجرية المنتشرة فيها ودراستها. كما سُجّلت كل الملاحظات المتعلقة بها من معلومات جيمورفولوجية، أو ظواهر طبيعية، لها علاقة مباشرة بتوزيع المواد الأثرية في مساحة الموقع، التي حددت بالطريقة الموصوفة سابقاً. وقد جمعت الأدوات من أكثر من قطاع من المساحة الكلية للموقع لمعرفة مدى التنوع في أشكال أو أعداد أنواع معينة من هذه الأدوات. وما يجدر ذكره أن هذه المواقع لم تمدنا بمواد عضوية من أي نوع كان، وذلك بسبب وجود المعثورات الحجرية على السطح فقط. كذلك، وجدت بعض هذه المواقع بالقرب من منشآت حجرية متنوعة، أو في المكان نفسه. وفي حالات أخرى، وجدت معزولة عن أي ظاهرة أثرية أخرى. وفيما يلي وصف لهذه المواقع، وما وجد فيها من أدوات حجرية .

موقع (ثم-ج-١/ (Th - C- 1)

يعد هذا الموقع أكبر مواقع الأدوات الحجرية بالمنطقة (ج)، إذ تنتشر فيه البقايا الأثرية على مساحة واسعة وبكثافة متباينة، تبلغ نحو كيلو متراً مربعاً (الخريطة ٤). وعلى الرغم من أن هناك مساحات فاصلة بين تجمعات الأدوات الحجرية، إلا أنها تمثل موقعاً واحداً هو أحد المعسكرات المؤقتة للصيادين، الذين عاشوا بالقرب من أماكن تجمع مياه الأمطار في برك صغيرة في المنطقة (ج) (اللوحة ٩).



اللوحة ٨: الظاهرة (أ) في موقع (ثم-ب-١) بعد إزالة كميات كبيرة من الرديم.



اللوحة ٩: منظر عام لموقع (ثم-ج-١)، وفيه أحد مناطق تجميع الأدوات الحجرية.

ومن الظواهر الأثرية الملفتة للنظر في هذا الموقع، وجود العديد من مواقد النار التي تتمثل في أكوام من الحصى في مساحة دائرية محدودة، يبلغ متوسط قطر كل من تلك المواقد نحو نصف المتر. وتشير المعطيات الميدانية إلى أن هذه المواقد ربما كانت جزءاً من مخلفات الصيادين، الذين تركوا لنا تلك الأدوات الحجرية، كما سيتضح من الوصف التالي. وقداختيرت ثلاثة قطاعات لجمع الأدوات الحجرية، كعينة مُمثلة للموقع، هي :

أ- منطقة التجميع الأولى: (ثم-ج-١-أ):

تبلغ مساحتها ٥ × ٥م، وجمعت منها أدوات حجرية وما نتج عن تصنيعها من كسر وبقايا نوى (cores)، وهي محدودة العدد ولا تزيد كثافتها عن أربع قطع في المتر المربع الواحد (اللوحة ٩). ويبلغ عدد الأدوات المشحوذة نحو (١٨) أداة، تشمل مخارز ومثاقب وشظايا مشحوذة جزئياً. وهي أدوات محدودة التنوع ومشحوذة بطريقة سطحية ولم يبذل فيها جهد واضح. وهناك قرصان (discs) من الحجر الرملي، أحدهما مكسور والآخر دائري يبلغ قطره نحو ٨ سم ، وهو أملس في وجه ومتآكل في الآخر .

وتبدو هذه المجموعة من الأدوات محدودة، ولا يوجد فيها أثر لتقنية النصال، كما أن مستوى الشحذ ضعيف ولا يشبه ما وجد في مناطق أخرى، من الموقع نفسه. كذلك، تغيب عن هذه المجموعة الأدوات المشحوذة من كلا الوجهين، ورؤوس السهام. وليس واضحاً حتى الآن ما إذا كان هذا الأمر يعكس تنوعاً أو اختلافاً بين المساحات، التي جمعت منهما هذه الأدوات، وما إذا كانت تعكس تنوعاً وظيفياً في الموقع، أم أنها مسألة تتعلق بالفارق الزمني بين هذه المجموعات؟

ب- منطقة التجميع الثانية (ثم-ج-١- ب) :

تبلغ مساحة هذه المنطقة من الموقع (٤ × ٤م)، جمع منها مجموعة من القطع الحجرية، كثافتها محدودة أيضاً. وكالعادة، فإن معظم القطع، وعددها (٩٧) قطعة، هي كسر وشظايا أولية وأخرى ناتجة عن عمليات تصنيع الأدوات. أما الأدوات المشحوذة (Retouched Pieces) فعددها ٢٦ قطعة، أكثرها تميزاً رؤوس السهام، وعددها (٢)، وهي مشحوذة بطريقة رفيعة في أحد وجهي الأداة (اللوحة ١٠)، وهي جيدة الصنع مدببة الرأس تماماً، وأحدها مسنن الأطراف ويبلغ طوله نحو ٣ سم.

ويضاف إلى ذلك جزء من حربة، وهي نصل مستطيل الشكل مشحوذ بطريقة الضغط من الجهتين (اللوحة ١٠). أما

بقية الأدوات المشحوذة، فقليلة العدد، وتحوي المكاشط شبه الدائرية والمثاقب والشظايا، التي عليها تشذيب سطحي ومحدود. ويلاحظ أن هذه المجموعة تشمل القليل من النصال، وهي أكثر تشابهاً من تلك الموجودة في منطقة التجميع الثانية.

وقد وجد في هذه المنطقة من الموقع موقد نار (hearth)، ويتكون من مجموعة من حصى الكوارتز والشيرت، الذي جمع في شكل شبه دائري. وقد رصفت الحجارة بعناية واضحة، بعد أن حفر سطح الأرض قليلاً بنحو ١٥ سم. وخلال عملية إزالة الحصى، بدت كتل التربة المحروقة والرماد وقليل من بقايا الفحم، الذي جمعت منه عينة للتأريخ الكربوني (C14).ومن الناحية المبدئية، فإن كل المؤشرات الميدانية تشير إلى ارتباط الأدوات الحجرية بموقد النار (اللوحة ١١).

ورد فيما سبق أن مثل هذا النوع من المواقد، ينتشر في أكثر من مكان بالموقع. كما توجد أنواع أخرى أكثر اتساعاً، يبدو الحصى في بعضها مفتتاً بسبب الحرارة التي تعرض لها. ومن القطع التي وجدت قريبة من موقد النار في هذا الموقع، جزء من حجر رحى صغير ربما استعمل في طحن الحبوب، أو مواد أخرى.

ج- منطقة التجميع الثالثة: (ثم-ج-١-ج/TH-C-1-c)

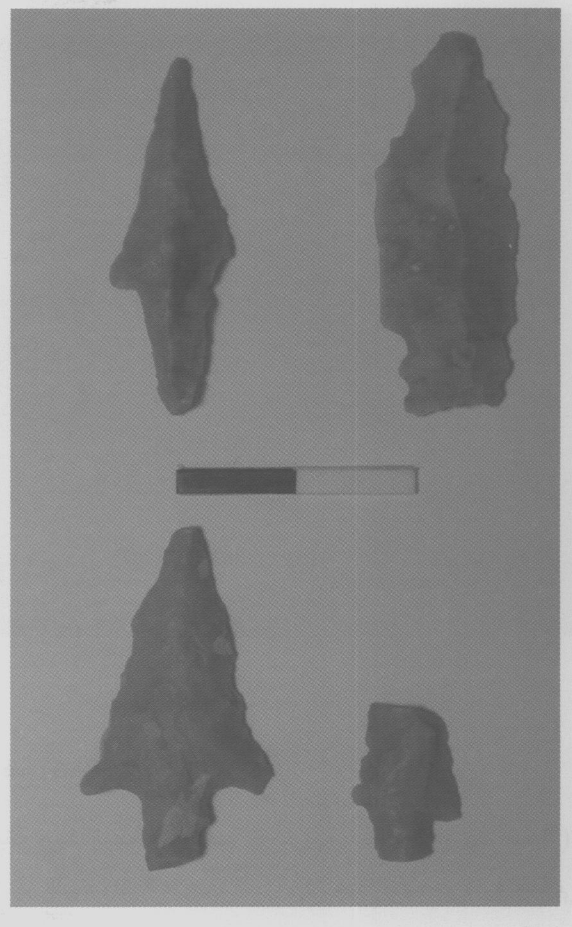
تمثل منطقة تجميع للأدوات الحجرية، تبلغ أبعادها (٤ × ٨م).

وقد جمع نحو ١٨٠ قطعة حجرية، شملت النوى والأدوات المشحوذة والكسر والرقائق (الشظايا) العادية، ما يعني أن كثافة الأدوات في هذه المنطقة محدودة نسبياً.

حوت المعثورات خمس نوى كاملة ومثلها مكسورة، وأهم صفاتها التجهيز الجيد لإنتاج النصال الرقيقة (blades). وهذه النوى النصلية (blade cores) صغيرة الحجم نسبياً، نحو٤ × ٢سم. أما الأدوات المشحوذة، التي يبلغ عددها (٤٥)

الخريطة ٤: انتشار الظواهر الأثرية وعينات الأدوات الحجرية بمنطقة (ج).





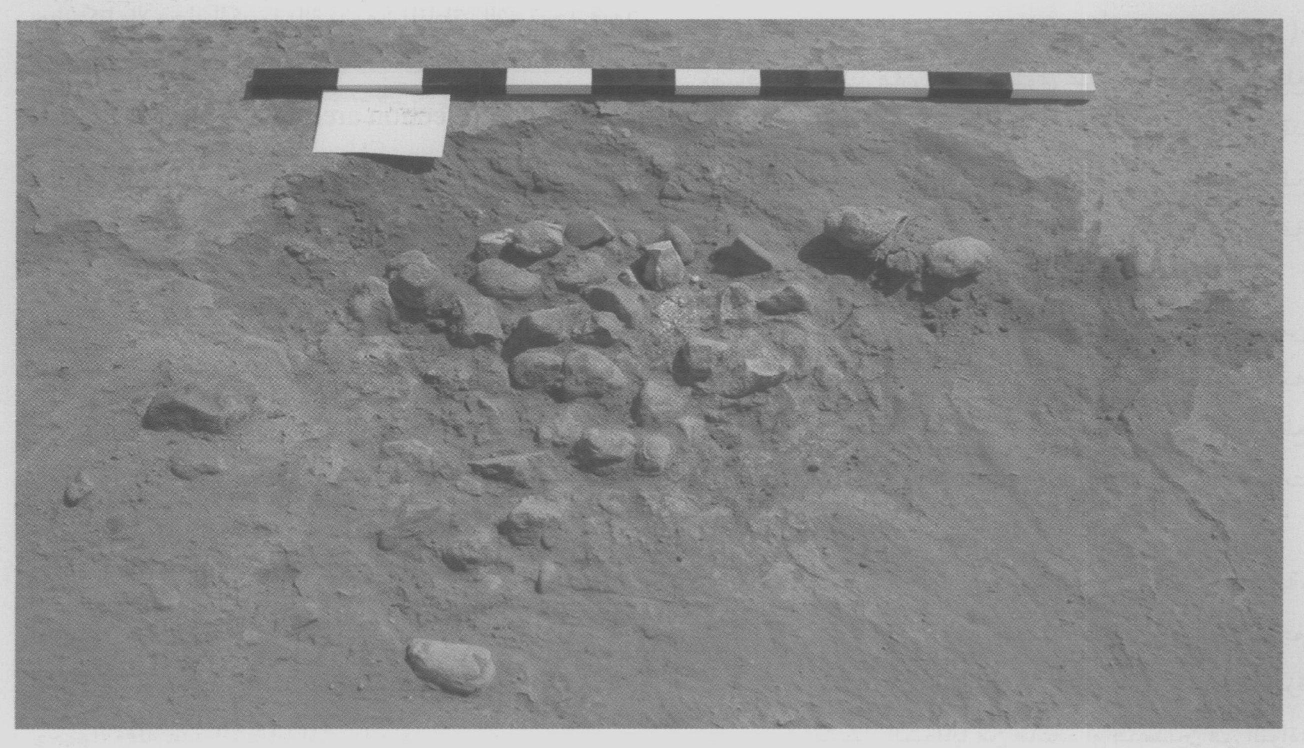
(لوحة ١٠) رؤوس سهام وحربة (أعلى اليمين) من منطقتي التجميع (ب) و (ج) بموقع (ثم-ج-١).

قطعة، فيمكن تصنيفها إلى خمسة أنواع من الأدوات، الرؤوس على الشظايا ثلاثية الشكل، ويبلغ عددها (١٣)، اثنان منها رؤوس شبه مجنحة تشبه رؤوس السهام. وهذه الفئة من الأدوات مشذبة في أحد أو كلا الطرفين، والنوع الثاني، رقائق مشحوذة الجانبين بعناية فائقة، ما يوحي بتحكم تقني لدى صانعيها. أما النوع الثالث فهو المثاقب (borers)، وعددها (٧) مثاقب مجهزة، إما بالشحذ أو الكسر المباشر للحصول على رأس مثقب رفيع. وتشير كثرة المثاقب والرؤوس (points) إلى التركيز على صناعة أدوات الثقب، أو ربما التحزيز (اللوحة ١٢).

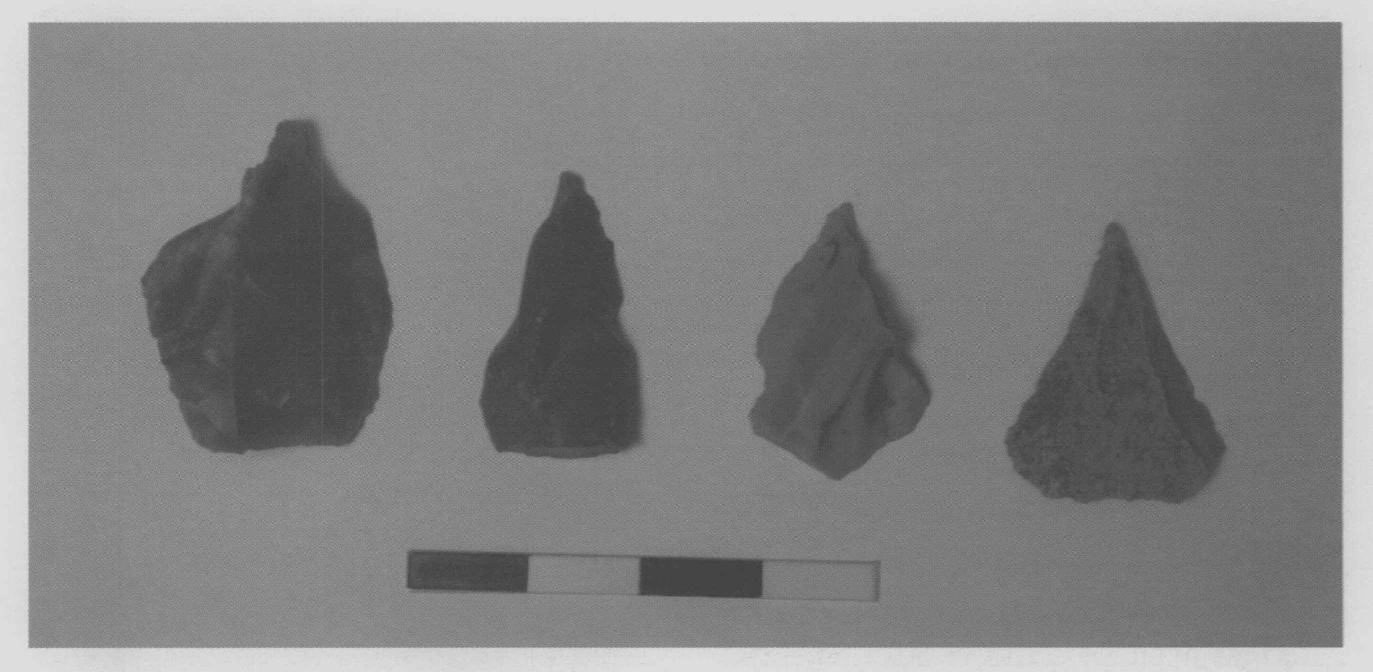
والفئة الرابعة هي النصال مشحوذة الظهر (backed blades)، وعددها أربعة، وقد يكون الشحذ فيها كاملاً أو جزئياً. وأخيراً هناك ١٦ قطعة من الشظايا (الرقائق) صغيرة الحجم، التي شذبت بطريقة عشوائية. وهكذا، فان قائمة الأدوات تعد متوسطة من حيث تنوع أدواتها، كما تشمل التقنية مستويين من صناعة النصال والشظايا في الوقت نفسه.

موقع (ثم-أ-٨):

يرتفع هذا الموقع على ربوة صغيرة بمحاذاة السلسلة الجبلية



اللوحة ١١: أحد المواقد الحجرية التي تم تنقيبها بمنطقة تجميع (ثم-ج-١-ب).



اللوحة ١٢: مثاقب حجرية من منطقة تجميع (ثم-ج-١-ج).

المشرفة على منطقة (أ) من جهة الشرق، وتحيط به مجاري الأودية الصغيرة (الخريطة ٢). وتبلغ مساحة الموقع نحو (٣٠×٤٠م)، ويتميز بعدم انتظام سطحه. وعلى الرغم من صغر حجم هذا الموقع، فإنه يحتوي على عدد من تجمعات الأدوات الحجرية المصنوعة من حجر الكوارتزايت. ومن الملاحظ وجود بعض كتل الأحجار الكبيرة بالقرب من المناطق، التي توجد فيها الأدوات الحجرية، ما يشير إلى دلالات إقامة مؤقتة.

اختيرت منطقة تجميع (collection area) مساحتها (٥ × ٥م)، في منطقة مرتفعة من الموقع، لضمان عدم تأثر الأدوات الحجرية بعوامل الطبيعة (اللوحة ١٣). ومما تميزت به هذه المجموعة الحجرية، كثافة عدد الكتل الحجرية الكبيرة نسبياً في منطقة التجميع، التي تحوي آثار تكسير شظايا حجرية؛ ما يحمل دلالات على استخدام هذا المكان كمنطقة لتصنيع الأدوات الحجرية (workshop).

تظهر الدراسة الأولية لمجموعات الأدوات الحجرية بالموقع، استخدام تقنية التصنيع بالمطرقة الصلبة (hard hammer percussion) لصناعة الأدوات الحجرية، وكذلك ارتفاع نسبة الشظايا الحجرية نسبة إلى عدد الأنصال الحجرية. وتتميز الشظايا الحجرية الموجودة بالموقع بكبر حجمها، وقلة عدد الشظايا المشذبة منها.

موقع (ثم-أ-٩):

يقع هذا الموقع في الجهة الجنوبية الشرقية من منطقة (أ)، وتتميز طبوغرافية الموقع، الذي تبلغ مساحته نحو (٥٠ ×٧٠م) بالانحدار باتجاه الشمال (الخريطة ٢). وتنتشر في الموقع الكتل الصخرية المتساقطة، التي تتخللها مجموعات من الأدوات الحجرية المتناثرة، بصورة غير منتظمة (اللوحة ١٤). إضافة إلى ذلك، فإن الموقع يحتوي على منشأة حجرية يبلغ طولها نحو (٨م) ويتراوح عرضها ما بين (٦, ٠-٦, ١ م). وقد اختيرت منطقة تجميع لعينة من الأدوات الحجرية تبلغ مساحتها (٥ × ٥م). ويدل العدد الكلي للقطع على كثافة متوسطة في المتر المربع.

هناك إشارات إلى أن الأدوات المشحوذة مع غيرها من شظايا وكسر، ما زالت في أماكن تصنيعها، وهو ما دل عليه وجود الكسر الصغيرة؛ وكذلك تناسب أعداد فئات القطع الحجرية: النوى، والشظايا الأولية والثانوية، والأدوات المشحوذة .

وقد بلغ مجموع النوى الحجرية (٢٢) نواة حجرية، مصنوعة من حجر الشيرت. وتعد هذه النوى صغيرة الحجم نسبياً، ولا يغلب عليها نوع أو شكل محدد، وإنما هي مجهزة لطرق - أو تشكيل الشظايا من قاعدة أو قاعدتين في النواة؛





اللوحة ١٣: منطقة تجميع أدوات حجرية من موقع (ثم-أ-٨).

وكثير منها ذات أشكال غير منتظمة.

ويبدو من إنتاج الشظايا أن النوى لم تعد إعداداً جيداً، كما لا يوجد أثر لإنتاج النصال في هذه المجموعة. أما الأدوات المشحوذة، فيبلغ عددها (٨٠) قطعة يغلب عليها التشذيب الرفيع أو السطحي، وقليل منها شُكّل بطريقة جيدة، أو بعناية ملحوظة. ومن هذه الأدوات المكاشط (Scrapers)،



اللوحة ١٤: منظر عام لموقع (ثم-أ-٩).



اللوحة ١٥: مدقان حجريان من الحجر الرملي من موقع (ثم-أ-٩).

التي وجد منها أنواع مختلفة، مثل: المكاشط الجانبية، أو الطرفية، أو شبه الدائرية، وهي الأكثر بروزاً من المخارز والأدوات ذات الشكل الهلالي . كذلك، وجدت قطعتان عبارة عن مدقين من الحجر الرملي، وتظهر على أطرافهما آثار الاستخدام (اللوحة ١٥).

موقع (ثم-أ-١٠):

هو أحد المواقع في المنطقة (أ) في أعلى الهضبة، ومنه جمعت معثورات حجرية من مساحة تبلغ أبعادها ٥ م × ٥ م (اللوحة ١٦). وتختلف هذه المجموعة الحجرية كثيراً عن مجموعات الأدوات الحجرية في المنطقتين (أ) و (ج)؛ فهي تتكون من مئات الكسر والشظايا الأولية، وأجزاء النوى غير المكتملة، إضافة إلى عدد قليل من القطع المشحوذة. وتنحصر أنواع الأدوات في المكاشط الجانبية أو الشظايا المشذبة، على جانب واحد أو جانبين. فالعدد المحدود من الأدوات المشحوذة، وندرة النوى الكاملة، مع العدد الغالب لفئة الشظايا الأولية والكتل الأخرى من الأحجار، يوحي بأن هذه المنطقة كانت ورشة تصنيع تؤخذ منها النوى والأدوات المصنعة، إلى مكان آخر يقيم فيه الصيادون.

إن التأكد من هذا التصور الأولي لطبيعة استخدام الموقع رهين بتحليل المجموعات الحجرية، التي جمعت من منطقتين إضافيتين من الموقع نفسه.

الخلاصة والاستنتاجات:

أظهرت النتائج الأولية، التي جرى استعراضها في هذا البحث، أهمية منطقة الثمامة، وعمق الاستيطان البشري فيها؛ كما تشير الكثافة العددية للمنشآت الحجرية، من جهة، ومواقع الأدوات الحجرية، من جهة أخرى.

وعلى الرغم من عدم وصول نتائج العينات العضوية، التي أرسلت إلى بعض معامل التأريخ خارج المملكة، إلا أن هناك عدداً من النتائج الأولية التي أمكن التوصل إليها، فيما يتعلق بالأنواع المختلفة من البقايا الأثرية الموجودة بموقع الثمامة





اللوحة ١٦: منظر عام لموقع (ثم-أ-١٠).

الأثري، وهي على النحو الآتي:

المنشآت الحجرية:

- تدل كثافة المنشآت الحجرية بمنطقة الدراسة، على استغلال الجماعات البشرية للظروف البيئية والموارد الطبيعية الموجودة فيها.

- يشير التنوع الكبير في أنماط المنشآت الحجرية بمنطقة الدراسة إلى التنوع الوظيفي في استخداماتها. كما تظهر مجموعة الظواهر الأثرية، التي جرى تنقيبها إلى ثبوت استخدام أحدها كمكان للدفن (ثم-أ-١٢)، بينما لم يساعد غياب البقايا الأثرية على معرفة الاستخدام الفعلي للظاهرتين (أ، ب) الموجودتين في موقع (ثم-أ-١١)؛ وأما الظاهرة (أ) في موقع (ثم-ب-١)، فعلى الرغم من حفر غالبية أجزائها، لم تظهر مؤشرات كافية على وظيفتها، وإن كان يغلب الاحتمال أنها ذات وظيفة دينية.

- تظهر المسوحات الميدانية لمنطقة الدراسة وجود أنواع رئيسة من المنشآت الحجرية، تدخل في إطارها كافة المنشآت الحجرية الموجودة بمنطقة الدراسة. ومن هذه الأنواع ما يلي: ١- الدوائر، ٢- الأكوام، ٣- المباني الحجرية، التي يتبعها عدد من التقسيمات الفرعية.

- يعكس التوزيع الطبوغرافي لغالبية المنشآت الحجرية على الأجزاء المرتفعة من منطقة الدراسة، إلى حد كبير، مدى تفضيل الجماعات البشرية للأماكن المرتفعة، من ناحية، وربما يعكس بشكل غير مباشر الظروف البيئية الجيدة، المتمثلة في كثرة هطول الأمطار وجريان مياه الأودية، طوال أكثر شهور السنة. ما يعني أن المنشآت التي تُبنى في مجرى مياه الأمطار يسهل جرفها وتدميرها.

- يعتمد الكثير من النتائج العلمية لهذه الدراسة الميدانية، بشكل رئيس، على نتائج العينات العضوية، التي أُرسلت لأحد معامل الكربون ١٤ . فهي ستسهم في فهم أفضل لطبيعة ومراحل استيطان المنشآت الحجرية، وكذلك مواقع الأدوات الحجرية بمنطقة (ج).

- زاد الغياب الواضح للبقايا الأثرية عامة، والفخار، بوجه خاص، من غموض طبيعة المنشآت الحجرية بمنطقة الدراسة. وفيما عدا بعض القطع الفخارية الحديثة الموجودة على السطح، فإن موقع الثمامة يُعد خالياً من دلائل وجود صناعة أو مواد فخارية قديمة، وهذا ما أثبتته هذه الدراسة والدراسات السابقة، التي تمت في موقع الثمامة.

الأدوات الحجرية:

١- يشير التحليل المبدئي للأدوات الحجرية، التي جمعت من عدد محدود من المواقع المكتشفة في المنطقة، على تنوع تقني (Technological) ونوعي (Typological) في

صناعة الأدوات، يمثله نوعان من تصنيع الأدوات. الأول، هو الأسلوب الذي يعتمد إنتاج النصال من نوى نصلية تُجهّز بطريقة خاصة، للحصول على نصال رفيعة طويلة الشكل يشذب بعضها في أدوات معينة، أو تستعمل كما هي دون تشذيب. وقد وجدت هذه التقنية في المكان نفسه، مع تقنية إنتاج الشظايا أو الرقائق، وذلك في الموقع (ثم-ج-١). فكلا الأسلوبين في صناعة الأدوات، نجده في مكان واحد وربما وقت واحد. وينطبق الأمر نفسه على المنطقة (أ) في أعلى الهضبة، حيث تشير المجموعة التي وصفناها، إلى تقنية الشظايا. أما الصناعة النصلية فقد وصفها فريق وكالة الآثار من قبل. وهكذا يظهر أن كلا التقنيتين قد جرى استخدامهما معاً.

٢- تعكس العينة المجموعة من الموقع (ثم-أ-١٠-أ) ظاهرة ورش التصنيع، كما ذكرنا آنفاً، وهي بذلك تضيف إلى التنوع في مستويات النشاط الذي مارسه الصيادون في تلك المنطقة .

٣- لا يوجد دليل على صناعة الفخار في المواقع التي درسناها حتى الآن ، ومن ثم فمن المرجح أن تنسب هذه المواقع إلى فترة العصر الحجري القديم المتأخر - أو نهايته، ولن نتمكن من تحديد الزمن بصورة قاطعة إلا بعد حصولنا على التواريخ العلمية المتوقعة من المختبرات، التي أرسلت إليها عينات الفحم من الموقع (ثم-ج-١-ب). ومن جهة أخرى، لا يُستبعد أن تكون هذه المجموعات الحجرية عائدة إلى فترة العصر الحجري الحديث المبكر السابق للفخار.

٤- لم يُعثر على أي مواد تدل على أن الجماعات البشرية، التي عاشت في تلك المواقع، عرفت الزراعة أو استئناس الحيوان؛ خاصة أن هذه المواقع سطحية يندر أن يعثر فيها على مواد عضوية.

وفي الختام، فمن المؤمل أن يكون هذا البحث قد ساعد بقدر من المعرفة، في إلقاء الضوء على طبيعة وكثافة الوجود البشري في موقع الثمامة الأثري، من ناحية، وأن الأعمال الميدانية المتبقية بمنطقة الدراسة سوف تسهم في الإجابة على العديد من التساؤلات حول تاريخ الاستيطان البشري بالمنطقة وتسلسل الأدوار الحضارية، وعلاقة البقايا الأثرية المختلفة ببعضها بعضاً.

د. عبدالله بن محمد الشارخ: قسم الآثار والمتاحف - كلية الآداب - جامعة الملك سعود - ص.ب ٢٤٥٧ الرياض ١١٤٥١ - المملكة العربية السعودية. asharekh@ksu.edu.sa



الهوامش:

١- يتقدم الباحث بجزيل الشكر والتقدير لمدينة الملك عبدالعزيز للعلوم والتقنية، على تقديم الدعم المادي والمعنوي لهذا المشروع البحثي الميداني، رقم أت-٢٠-٥١، خاصة الإدارة العامة لبرامج المنح البحثية، التي حرصت على مساندة هذه الدراسة العلمية خلال المراحل المختلفة للمشروع. إن كافة الأفكار والطروحات العلمية الواردة في البحث هي مسؤولية الباحث وحده.

المراجع

أولاً: المراجع العربية:

أبو درك، حامد ومحمد مراد ومحمد إبراهيم ١٤٠٤ هـ، "الاستكشافات والتنقيبات الأثرية في موقع الثمامة الذي يرجع تأريخه إلى العصر الحجري الحديث". **أطلال** ٨ :٩٧-١٠٣، وكالة الآثار والمتاحف، الرياض.

آدامز، روبرت ومحمد البراهيم وبيتر بار وعلي المغنم. ١٩٧٧م، "الاستكشاف الأثري للمملكة العربية السعودية ١٩٧٦م- تقرير مبدئي عن المرحلة الأولى من برنامج المسح الشامل". **أطلال** ١: ٣٦-٤٥، وكالة الآثار والمتاحف.

انجراهام، مايكل وت. جونسون و ب. الريحاني و أ. شتلة ١٩٨١م، "تقرير مبدئي عن مسح المنطقة الشمالية الغربية". **أطلال** ٥: ٥٣-٧٦ وكالة الآثار والمتاحف.

ايدينز، كريستوفر. ١٤٠٢ هـ، "العصر الحجري الحديث في الربع الخالي". **أطلال** ٦: ١٠٧-١٢٣، وكالة الآثار والمتاحف.

بار، بيتر وم. البراهيم وج. ويشتر وأ. جاراد وس. كلارك وم. بيدميد وح. البدر ١٩٧٨م، "التقرير المبدئي عن المرحلة الثانية لمسح المنطقة الشمالية". **أطلال**: ٢: ٣١-٥٨ ، وكالة الآثار والمتاحف. .

زارينس، جوريس وم. البراهيم ود. بوتس وس. إيدينز ١٩٧٩م، "التقرير المبدئي عن المسح في المنطقة الوسطى". **أطلال** ٣: ٩-٤٨، وكالة الآثار والمتاحف.

زارينس، يوريس ون. ويلن وم. البراهيم وأ. مراد وم. خان ١٩٨٠م، "التقرير المبدئي عن مسح المنطقة الوسطى والجنوبية الغربية". **أطلال** ٤: ٩-٣٤، وكالة الآثار والمتاحف.

زارينس، يوريس وأ. مراد وخ. اليعيش. ١٩٨١م، "التقرير المبدئي الثاني عن مسح المنطقة الجنوبية الغربية". **أطلال** ٥: ٩-٣٦، وكالة الآثار والمتاحف.

زارينس، يوريس وأ. الرحبيني وم. كمال ١٤٠١هـ، "مسح منطقة الرياض (العارض)". **أطلال** ٦: ٢٣-٣٤، وكالة الآثار والمتاحف.

محمد علي، عباس سيد أحمد. ١٤٢١ هـ، "ما قبل التاريخ في الجزيرة العربية". **الدارة** ٣: ٨٩-١٣١ ، الرياض.

ثانياً: المراجع غير العربية

Alsharekh, A. 2002. "An Archaeological Study of Stone Structures in Northeast Riyadh, Saudi Arabia", **Adumatu**. 5: 35-68.

Banning, E. and B. Byrd. 1989. "Alternative Approaches for Exploring Levantine Neolithic Architecture", **Paleorient**, Vol. 15 (1): 159-160.

Binford, L. 1974. "Post-Pleistocene Adaptations". In: **An Archaeological Perspective**, Pp. 421-444. Seminar Press.

Gabriel, B. 1976. "Neolithische Steinplatze und Palaeockologie in den Ebenen der Osttichen Zentral-Sahara". In: **Palaeolecology of Africa,** IX: 25-40.

--------- 1986. "Paleoecological Evidence from Neolithic Fireplaces in the Sahara". A Paper read in a **Conference in Honour of J. Desmond Clark**, Berkely, 12-16 April.

--------- 1987. "Paleoecological Evidence from Neolithic Fireplaces in the Sahara", **The African Archaeological Review** 5: 93-103.

Masry, A. 1974. **Prehistory of Northeastern Arabia: The Problem of Inter-regional Interaction**, Miami, Florida.

Mc Clure, H. 1971. **The Arabian Peninsula and Prehistoric Populations**, Miami, Florida.

McIntoch, J. 1999. **The Practical Archaeologist,** Checkmark Books, New York.

Oates, J. 1978. " 'Ubaid Mesopotamia and its Relation to Gulf Countries". In: B. De Cardi (ed.) **Qatar Archaeological Report,** 39-52, Oxford.

Redman, C. 1978. **The Rise of Civilization: From Farmers to Urban Societies in the Ancient Near East,** W. H. Freeman & Co.

Renfrew, C. and P. Bahn 1991. **Archaeology: Theories, Methods and Practice,** Thames and Hudson, London.

Rice, M. 1994. "Climate, Sea-Level, Man and his Companions", **The Archaeology of the Arabian Gulf,** Routledge, Pp. 63-77. London.

Smith, P. and E. Maranjian. 1962. "Two Neolithic Collections from Saudi Arabia", **Man** 14: 21-25.

Taha, S. 1982. Analysis and Interpretation of a Lower Palaealithic Site in Saudi Arabia. M. Phil Dissertation, Cambridge University, Cambridge.

Whalen, N. , H. Sindi, J. Siraj-ali and D. Pease 1986. "A Lower Pleistocene Site near Shuwayhittiyah in Northern Saudi Arabia", **Atlal** 10: 6-27.

Whalen, N., W. Davis and D. Pease 1989. "Early Pleistocene Migrations into Saudi Arabia", **Atlal** 12: 59-75.

البحوث والدراسات الآثارية عن حضارة نبتة الكوشية وارتباطها بتطور علم الآثار: دراسة تقويمية

جمال جعفر عباس

ملخص: تميز التاريخ السوداني بتراث حضاري ومجموعات ثقافية متفردة. وقد كان لعلم الآثار أكبر الأثر في الكشف عن هذا التراث، ومن بين ذلك التعرف على ملامح وسمات واحدة من أهم حضارات السودان القديم، هي حضارة نبتة الكوشية (٨٥٠ ق. م -٣٠٠ ق. م). فقد شهدت السنوات الأولى من القرن العشرين أولى محاولات تنقيب وتحليل وتفسير مخلفات هذه الحضارة، إلا أنها كانت مسيرة لوجهة النظر السائدة آنذاك، المرتبطة أساساً بنظريات الانتشار والهجرة والتفسيرات العرقية المختلفة. وهو أمر وقع فيه العديد من الباحثين الأوائل، الذين درسوا هذه الحضارة. بدأ هذا الوضع في التغيّر شيئاً فشيئاً، مع تطور نظريات علم الآثار ومناهجه وتقنياته. وشهد العقدان الأخيران من القرن العشرين طفرة مهمة، في الدراسات والبحوث المتعلقة بهذه الحضارة. ويقدم هذا البحث تقويماً لهذا التطور، ومحاولة لربطه بالتطور العام لعلم الآثار.

Abstract. *The Sudan's history is characterized by its unique cultural heritage. Through the discipline of archaeology most of this heritage has been uncovered and allowed us to recognize the aspects of one of the most important civilizations of ancient Sudan, the Kushite kingdom of Napata (850-300 BC). The early years of the 20th century witnessed handful of excavations, analyses and explanations of the remains of that civilization. Unfortunately, most of these interpretations were affected by the general theoretical trend at that time which attributes cultural changes to the diffusion, migration, or racial interpretation. The situation has started to change with the developments achieved in theories, methods and techniques of archaeology whereby the last decades of the 20th century have witnessed new steps towards the understanding of Sudanese civilizations. This paper attempts to evaluate these developments in Sudanese archaeology and to link it to the general development of the discipline of archaeology.*

تتناول هذه الورقة تقويماً عاماً للنظريات، التي تناولت حضارة نبتة الكوشية، وهي نظريات جاءت نتاجاً للبحوث والدراسات الآثارية، التي أجريت حول مواقع هذه الحضارة في منطقة ازدهارها في شمالي السودان (الخريطة ١). ولعل تقويم هذه النظريات يعتمد على منهجية البحث الآثاري في المقام الأول. وحتى يؤتي هذا التقييم ثماره، فلا بد من ربط هذه النظريات بتطور علم الآثار، في القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين.

تاريخ علم الآثار وتطوره

مما لا شك فيه أن الحديث عن علم الآثار، فضلاً عن تاريخه وتطوره، ينبغي ألا يكون موجزاً؛ لأن مدارك هذا العلم تتسع إلى حد بعيد. إلا أن ما تمليه طبيعة هذه الورقة تحتم الإيجاز.

بدأ علم الآثار في مرحلته الأولى على يد صائدي الكنوز، إلى جانب لمحات من الإعجاب والانبهار من قبل الرحّالة والهواة، أدت إلى نوع من وصف المواقع والتعليق عليها في كثير من بلدان العالم القديم. ثم أعقب ذلك، في مرحلته الثانية، جهود بعض الباحثين والمستكشفين، الذين ثابروا على وصف المواقع وجمع النصوص الكتابية للحضارات القديمة وعكفوا على حل رموز هذه النصوص وتفسير مضامينها. وقد اقترنت هذه الجهود بكثير من المحاولات لاستخراج الآثار من مواقعها، بأيدي بعض العلماء أحياناً وبعض المغامرين أحياناً أخرى. ثم انتهى ذلك في مرحلته الثالثة إلى عمليات التحليل وإعادة التركيب لهذه الآثار ونصوصها، في إطار من الالتزام

العدد التاسع ذو الحجة ١٤٢٤هـ - يناير (كانون الثاني) ٢٠٠٤م
(ص ص ٣٣ - ٤٢) ردمد ١٣١٩-٨٩٤٧

العلمي ومسؤولية التاريخ (Daniel 1975).

بعد ذلك تغلغل علم الآثار بين معالم الحضارات القديمة، لا سيما المصرية والبابلية والآشورية والإغريقية والرومانية والبيزنطية وغيرها، وإن جُذب في كثير من الأحيان إلى السعي - بالقصد حيناً وبالمصادفة حيناً آخر- إلى القول بوحدة النفس البشرية وأخوة البشر والحضارات، على الرغم من اختلاف الأجناس واللغات والمواقع. وكانت هذه واحدة من الأطروحات النظرية في علم الآثار، أعقبتها أطروحات أخرى (Ibid).

وتواصلت مسيرة هذا العلم بعد ذلك وتنظّم تدريجياً، ولم يعد اهتماماً فردياً يختص به الأفراد، بل أصبحت له هيئات منظمة من الأكاديميات والمعاهد والجامعات، ما أحدث منافسة مستمرة بين هذه المنظمات، أدت بالضرورة إلى ارتفاع مستوى العلم وتعدد مجالاته، وزيادة أعداد المتخصصين فيه.

نتج عن ذلك أن أسهم علم الآثار، بشكل فاعل، في كتابة تاريخ حضارات غابرة، وكشف اللثام عن أمم مجهولة، وتجارب إنسانية مختلفة، ليس في الشرق الأدنى فحسب، وإنما في الهند والصين وإفريقيا وأمريكا اللاتينية وغيرها. وعلى الرغم من أهمية هذا العلم، لاسيما لبلدان الشرق القديم، إلا أن بداياته كانت مجالاً خصباً وواسعاً لنهب تراث هذه البلدان وكنوزها، ما جعلها هدفاً دائماً ومستمراً لكل من سوّلت له نفسه جمع الآثار.

الموقع الجغرافي لحضارة نبتة الكوشية

اعتمدت الدراسات والبحوث الآثارية، التي أجريت في مواقع حضارة نبتة الكوشية، في المقام الأول على الأوصاف، التي كتبها الرحّالة الكلاسيكيون من الإغريق والرومان. ولكن قبل الخوض في موضوع هذه البحوث والدراسات، نتساءل: ما هي نبتة؟ فعند طرح هذا التساؤل نقف عند إحدى المشكلات الرئيسة في الحضارة النبتية، باعتبار أن موقع نبتة لم يحدد حتى الآن بشكل قاطع، لدى كثير من الباحثين والمهتمين بالآثار السودانية.

لقد اختلفت الآراء حول نبتة، ماهيتها وموقعها الجغرافي، هل هي مدينة أم إقليم؟ وإن كانت مدينة، فما هو موقعها تحديداً؟ وكان أول الباحثين الأكاديميين في مواقع هذه الحضارة هو الآثاري الأمريكي جورج اندرو رايزنر، أستاذ علم المصريات بجامعة هارفارد، الذي حدّد موقع مدينة نبتة على ضفتي النيل، في المنطقة بين نوري والكرو؛ ولكن الضفة الغربية للنيل ربما تكون هي المكان المفضل لإطلاق اسم نبتة عليه، وهو موقع جبل البركل (Reisner 1917: 23)، (الخريطة ١). أما دوس دانم، المساعد الأول لرايزنر، فيعتقد أن نبتة ارتبطت بالمركز الديني، الذي يختص بعبادة الإله آمون في جبل البركل بالقرب من مدينة كريمة (Dunham 1950: 5).

وقد أطلق كل من رايزنر ودانم على الفترة التاريخية من الأسرة ٢٥ وحتى وفاة الملك نستاسين اسم: مملكة نبتة (٨٠٠-٣٠٠ ق. م)، اعتماداً على أن ملوك هذه الفترة دفنوا في منطقة نبتة (الكرو ونوري) (Dunham 1947: 7). وعلى هذا الأساس ساد اعتقاد أن نبتة منطقة، وليست مدينة تشمل الكرو ونوري وجبل البركل (الخريطة ١).

كذلك يرى أنطوني جون اركل أن نبتة منطقة تقع في نهاية حوض دنقلا وأسفل الشلال الرابع، وقد عرفت منذ الأسرة المصرية ١٨ باسم (كاري - Karei)، على أنها منطقة أكثر من كونها مدينة (Arkell 1961: 110). ويضيف اركل أن جريفث (Griffith) أجرى حفريات في الأعوام من ١٩٢٢-١٩٢٣ إلى الشرق من معبد آمون، الذي بناه الملك "تهارقا" في موقع صنم أبو دوم، حيث كشف عن مبنى دارت الشكوك حوله، فيما إذا كان هو قصر ملوك نبتة. ومن ثم ظهر اتجاه يقول إن نبتة هي المدينة، حيث موقع صنم أبو دوم (مروى الحالية) (Ibid:112)، (الخريطة ١).

أما الآثاري الأمريكي تيموثي كندال (T. Kendall)، فقد كان يعتقد حتى عام ١٩٩٠م أن نبتة هي مدينة عند جبل البركل، وهي مدينة أسسها فراعنة المملكة المصرية الحديثة في حوالي ١٤٥٠ ق. م، كحامية عسكرية تتحكم في طرق التجارة وتسيطر على مجرى النيل، لتصبح بعد ذلك مركزاً سياسياً ودينياً مهماً عند قيام مملكة نبتة (Kendall 1990: 103). إلا أن كندال عدل عن رأيه هذا، بعد فحصٍ وتمحيص في يوميات رايزنر، التي عثر عليها في مخازن متحف بوسطن للفنون الجميلة، إذ كشف عن معلومات جعلته يعتقد أن نبتة هي مدينة، وهي بلدة الكرو الحالية، التي تقع إلى الجنوب من جبل البركل، بحوالي ١٥ كلم، وتحوي مقابر الأسرة الخامسة

N
نوري
اهرامات
جبل البركل
معابد
اهرامات
صنم
موقع مدينة
مقبرة
معبد
الكرو
اهرامات ومقابر
0 1 2 3 4 5
ميل

الخريطة ١: المواقع النبتية الكوشية بمنطقة نبتة بالسودان.

والعشرين وأسلافهم (الخريطة ١).

من ذلك نرى أن الباحثين اختلفوا حول تحديد نبتة: هل هي مدينة أم إقليم؟ وفي هذه الورقة نرى أن نتمسك بأن نبتة هي حضارة وليست مدينة أو إقليماً، لأن هنالك مواقع أثرية تؤرّخ إلى الفترة النبتية، مثل موقعي الكوة، وصادنقا، تقعان خارج حدود الإقليم المشار إليه.

كتابات الرحّالة حول نبتة

إن معرفتنا بالحضارة السودانية تعتمد على كتابات الإغريق والرومان بشكل رئيس. فقد سجلت هذه الكتابات الكثير من المعلومات عن الحضارة الكوشية. وبتطور البحوث الآثارية، تدعّمت هذه المعرفة وأضيف إليها أبعاد جديدة. فقد كان السودان معروفاً لدى الإغريق منذ القدم باسم (أثيوبيا)، للدلالة على الأراضي الواقعة جوار مصر. وكلمة "أثيوبيا" تعني لون البشرة الداكنة، واتضح أخيراً أن الإغريق قصدوا بذلك الكوشيين، وحسب مفهوم الإغريق فقد عاملوا الكوشيين على أساس أنهم جزء من أثيوبيا.

وقد كتب هيرودوت بشيء من الإسهاب عن مملكة مروي (المرحلة الثانية من كوش، التي أعقبت نبتة، ٣٠٠ ق. م-٣٥٠ م)، واصفاً امتدادها الجغرافي، وعلاقتها مع الفرس والبطالمة. وقد كتب آخرون من الرحّالة والمؤرخين عن عادات وتقاليد الكوشيين، أمثال ديوردورس الصقلي واسترابو؛ ثم انتقل هذا التراث إلى الكتّاب اللاتينيين، الذين أضافوا بدورهم بعض المعلومات المهمة، ومن بين هؤلاء بليني واسبلينكا وغيرهما، حتى فترة القرن الثالث الميلادي.

وفي عام ١٨٢١م أرسل محمد علي باشا، حاكم مصر، جيوشه إلى السودان للقضاء على المماليك، وللاستفادة من موارد السودان البشرية والطبيعية. وقد رافق هذا الجيش عدد مقدر من الرحّالة والمغامرين. وكان قد سبقهم الرحّالة براون، الذي ذكر قدراً من المعلومات القيّمة عن آثار السودان. كما زار السودان خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر الرحّالة كايو الفرنسي، الذي فحص بعض الآثار على ضفتي النيل. ويعد كايو من أوائل من كتبوا عن الآثار الكوشية، وذلك لنقله كتابات ومشاهد وجدها على جدران المعابد.

البحوث والدراسات المنظمة

تُعد الفترة من ١٨٩٨م والأعوام التالية، نقطة تحوّل كبيرة في تاريخ البحث الآثاري في السودان. فقد بدأ العاملون في المتحف البريطاني، وغيرهم، زيارة السودان. وأبرز هؤلاء السير واليز بدج، الذي زار السودان في الفترة من ١٨٩٦-١٩٠٣م، وأجرى حفريات في المدن والجبانات الملكية في البركل ومروي، بهدف الحصول على مواد للمتحف البريطاني. كما نشر ترجمات إنجليزية لبعض نقوش الملوك البارزين من نبتة، أمثال: بيي (Piye)، تانوتامني، اسبلتا، حاريستيوف ونستاسين. كما أجرى جون وارد في عام ١٩٠٢م مسحاً للأهرامات السودانية، ضمّنه مؤلفه (السودان أهراماته وتطورها).

وفي عام ١٩٠٧م بدأت حملة إنقاذ آثار النوبة الأولى، نتيجة للتعلية الأولى لخزان أسوان (Adams 1977: 71)، وأسندت رئاسة هذه الحملة لجورج أندرو رايزنر، وانتهت أعمال هذه الحملة عام ١٩١١م. إلا أن رايزنر عاد للسودان عام ١٩١٣م، على رأس بعثة مشتركة بين جامعة هارفاد ومتحف بوسطن للفنون الجميلة. وأجرى خلال الأعوام ١٩١٣-١٩١٦م تنقيبات أثرية في مواقع حضارة كرمة. ومن ثم قام رايزنر برحلات إلى مناطق الشلال الرابع ووادي حلفا مسجلاً عدداً كبيراً من المواقع الآثارية، التي لم يجر حفرها، ومن بين هذه المواقع جبل البركل والكرو ونوري. كما بدأ في دراسة النقوش والنصوص والسجلات، التي عثر عليها في هذا الإقليم. وفي عام ١٩١٦م قام رايزنر بسلسلة من الأعمال الآثارية، التي استمرت دون توقف حتى عام ١٩٢٣م، شملت منطقتي نبتة ومروي. وظل رايزنر يكتب عن كل ما قام به حتى وافته المنية عام ١٩٤٢م. وأوصى مساعده دانم بمواصلة نشر تقارير الحفريات، التي لم يتمكن من نشرها بنفسه (Dunham 1946: 378). وعلى وجه العموم، تعد أعمال رايزنر فصلاً قائماً بذاته في تاريخ البحث الآثاري في السودان، إذ شملت أبحاثه الفترة من القرن الحادي عشر قبل الميلاد حتى القرن الرابع الميلادي. كما تعد أعمالاً حقيقية ورائدة في مجال دراسة الحضارة الكوشية، فقد استطاع أن يضع اللبنات الأولى لعملية دراسية طويلة، اكتملت بواسطة باحثين آخرين جاءوا من بعده واعتمدوا على دراساته وأبحاثه (Hakem 1983: 41).

إلا أن دانم رأى أن هنالك حاجة لإعادة دراسة المواد، التي



استخرجت من حفرياتهما في مواقع حضارة كوش. ويرى دانم أن رايزنر تعجّل في نشر بعض تقاريره، باعتبار أن هذه الحفريات كشفت عن فترة تاريخية مجهولة وملوك مجهولين. واستطاع دانم أن يصنف بعض الحقائق عن الفترة الكوشية، لا سيما أن هنالك بعض الخطوط العريضة والتفاصيل الدقيقة، في تاريخ كوش تحتاج إلى تعديل. فعلى الرغم من أن رايزنر نقّب كل الجبانات الملكية لنبتة ومروي، إلا أنه لم يكمل دراسة المواد، التي حصل عليها من هذه الجبانات. وعلى ضوء ذلك، بدأ دانم في إصدار سلسلة من المؤلفات عن حضارة كوش (نبتة ومروي)، عالج فيها آراء رايزنر، ما مثل مرحلة ثانية مهمة في تاريخ البحث الآثاري للفترة الكوشية (Dunham 1946: 380).

قامت بعثة جامعة أكسفورد بأبحاث آثارية في السودان في عدد من المواقع، التي تؤرخ للفترة الكوشية. ففي عام ١٩١٣م أجرى الآثاري غارستتاج حفريات في موقع الكوة، ثم خلفه ماكدام في الأربعينيات. وفي عام ١٩٢٢م، أجرت البعثة نفسها حفريات في صنم أبو دوم، بحفر جبانة ترجع للفترة النبتية، ومعبد أمون الذي بناه الملك تهارقا. وقد توصلت البعثة إلى نتائج مهمة عن هذا الموقع (Griffith 1922-1923). كذلك، قامت الوحدة الفرنسية بالسودان تحت قيادة الآثاري جون لكلانت بحفريات في موقع صادنقا، الذي احتوى على آثار تؤرخ للفترة النبتية، وقد نُشرت مؤلفات عن أعمال لكلانت هذه (Leclant 1961; 1963; 1965).

وقد شجّعت هذه الدراسات والأبحاث حركة البحث الآثاري في الحضارة الكوشية. وتمثّل ذلك في ظهور عدة مؤلفات ودراسات تناولت موضوعات عدة، مثل: مقال الآثاري هاري سميث عن: (إشكالية الانتقال من نبتة إلى مروى) في عام ١٩٥٥م، ومقال ديكسون عن: (أصل نبتة) في عام ١٩٦٤م، وكتاب أنطوني آركل عن: (تاريخ السودان) عام ١٩٥٥م، ومن ثم مؤلف وليم آدمز الذي تناول فيه موضوعات متعددة عن الحضارة الكوشية (Adams 1977).

البحوث والدراسات الآثارية، وارتباطها بتطور علم الآثار:

عُرف معظم تاريخ إقليم النيل الأوسط القديم (السودان) من خلال المصادر، التي كُشف عنها خلال الأعمال الإنقاذية والحفريات الأثرية، التي أجريت خارج إطار حملات إنقاذ آثار النوبة، ولكنها جرت بمنهجية دراسة الأعمال الإنقاذية ذاتها. ولعل هذا يعكس محدودية المناهج والدلائل، التي اعتُمد عليها، في جانب، والسرعة التي تمت بها بعض هذه الأعمال، في الجانب الآخر، ما أدى في كثير من الأحيان إلى الحصول على نتائج غير مؤكدة (Torok 1992: 111).

إن الدراسات، التي قامت في وادي النيل، بشكل عام، وقدّمت في السودان بشكل خاص، في تلك الفترة، صورة معقدة عن هذا البلد، تمثلت في البحث عن امتداد الإمبراطورية المصرية، إضافة إلى سيادة النظرية العرقية الدونية لأصحاب الحضارة الكوشية. فقد كان الباحثون مشغولي البال باكتشاف الإمبراطورية البيضاء في إفريقيا، في القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين (Trigger 1982: 224). وقال بدج (Bidge, W) على سبيل المثال: "إن كل المعابد والقلاع والحصون والقصور والأديرة في النوبة هي من أعمال الأجناس الأخرى الأجانب غير النوبيين"، وذهب إلى أبعد من ذلك بأن نسبها إلى الإمبراطوريتين المصرية والفينيقية (Ibid: 224).

إن الأمر الأكثر أهمية هو تباين الإستراتيجيات والأهداف في علم الآثار. وهذا الأمر لم يعد موضع خلاف، والحقيقة أنه ليس هنالك اتفاق في الآراء حول الأولويات والمناهج للبحث الآثاري في السودان. والجدير بالذكر هنا، أن كل هذه المناهج، التي اتبعت والمتّبعة الآن، فشلت في لفت اهتمام المجتمع السوداني لأهمية الآثار. وحتى المسوحات الأثرية، التي تُجرى بين وقت وآخر، تحمل التناقض التام بين ما يظُن أنه منهج آثاري متجانس، من جهة، وبين منهج المؤرخين ومؤرخي الفن، من جهة أخرى. وهنا يحس الباحث توروك أن هذه التناقضات فعلية وليست اسمية. ويبدو أن الصراع يتسع بين الآثاريين كمؤرخين للحضارة، في جانب، وبين الوضع الحقيقي للأبحاث الفيلولوجية، التي تهتم بالمصادر الكتابية ، من جانب آخر (Torok 1992: 111).

وعلى ذلك، فيجب ألا نغفل ونهمل تاريخ بلاد السودان وثقافتها. وينبغي أن تقوّم المعالجات، التي تمت، والتي كتبت بواسطة آثاريين من خلال استخدامهم للدلائل الآثارية، مثال ذلك نظرية رايزنر عن سكان حضارة المجموعة (أ)، الذي رأى

أنهم مجموعة من المهاجرين المصريين، اعتماداً على تشابه فخارهم مع الفخار المصري، الذي يؤرخ لفترة ما قبل الأسرات (ibid: 111-112).

إن الأجيال الأولى من الآثاريين، الذين درسوا التاريخ النوبي القديم، خاصة مَنْ درسوا الحضارة الكوشية، انجذبوا نحو النقوش والكتابات الملكية، التي حُفظت منذ القرون الأولى لملكة كوش، التي بدأت بملوك الأسرة الخامسة والعشرين. ويعزى ذلك لخلفيات الآثاريين المصرية. وقبل دراسة أيٍ من النواحي الأخرى من التاريخ والثقافة النوبية، التي تمثل البعد الصحيح للدراسة، بدأت تظهر وتتضح صورة العقائد الملكية الكوشية، على أساس هذه المصادر النصية، ما أثر في التصنيفات التاريخية والثقافية لإقليم النيل الأوسط القديم (Torok 1995: 11). كما أن بعض الآثاريين الأوائل لم يكتشفوا موقع المستوطنات والجبانات الملوكية الكوشية، خلال مجريات حملتي إنقاذ آثار النوبة الأولى والثانية، وفي فترة لاحقة بدأ بعض الباحثين، من أمثال دون لكلانت وفرتز هنتزا وسيف سودربيج وآخرين، دراسة هذه المواقع.

وعلى الرغم من أن هؤلاء كانوا متخصصين في علم المصريات، إلا أنهم بدأوا في كشف الملامح المحلية للثقافة الكوشية (ibid: 11). غير أن رايزنر حين قدم إلى منطقة النوبة لإجراء المسح الآثاري الأول، كانت المفاهيم السابقة راسخة في ذهنه، وهي المفاهيم العرقية ونظرية الانتشار الثقافي والبحث عن الإمبراطورية البيضاء في إفريقيا، إضافة إلى نظرية الهجرة. ويُلتمس ذلك بوضوح في رؤيته عن أصل ملوك نبتة، وترجماته الخاطئة لبعض النصوص، وإغفاله لعادات الدفن الكوشية المستمرة من أقدم الحقب (حضارة كرمة). فقد فسّر رايزنر التاريخ الثقافي النوبي في سلسلة من التفسيرات العرقية، إضافة إلى موجات ثقافية وفدت إلى منطقة النوبة من الشمال. ومن ثم هاجر إليها الليبيون ليؤسسوا نبتة، إذ يعتقد رايزنر أن هناك هجرة لليبيين الجنوبيين نحو نبتة، وفيها دُفن أول زعيم ليبي في القبر رقم (١) بالكرو. واستند في ذلك إلى عدد من رؤوس السهام في الكرو، يعتقد أنها ذات أصل ليبي، وعلى لوح حجري به كتابة تشير إلى الملكة تابيري ابنة ألارا وزوجة بعانخي. ويرى رايزنر أنها لُقبت باسم "سيدة التمحو" أي الليبيين الجنوبيين (Reisner 1919: 227). وقد سار مع رايزنر في هذا الاتجاه أنطوني آركل، خاصة في مؤلفه (تاريخ السودان) (Arkell 1961). إلا أن هذه الأفكار كانت عنده بقدرٍ يسير، أقل من سيطرتها على رايزنر، لأنه كتب في مرحلة انهيار هذه المفاهيم (Trigger 1982: 224).

إن هذه المفاهيم السابقة كانت تتماشى مع الأوضاع السياسية وقتذاك، وهي فترة الاستعمار وفرض الوصاية. فقد كانت الدول المستعمرة وقتها ترفع شعار انتشال الشعوب المستعمرة الفقيرة في إفريقيا من واقعها المتخلف، في حين كانت حضارة تلك الشعوب عميقة الجذور تدل عليها آثارهم، التي تقف شاهداً مادياً حتى الآن. وكان رايزنر، وغيره من الآثاريين آنذاك، متأثرين أشد التأثير بتلك المفاهيم، ما انعكس على تفسيراته للآثار الإفريقية بشكل عام، والكوشية على وجه الخصوص.

وما يؤخذ على رايزنر في الجانب المنهجي تسرعه في حفر المواقع النبتية. فقد حدد هذه المواقع للحفر وكأن ذلك من أجل السبق العلمي لا غير. وقد ذكر رايزنر أن التنقيب في مقابر أربعة من ملوك الأسرة الخامسة والعشرين في جبانة الكرو الملكية، هم كاشتا وبيي وشبكا وشباتكو، اكتمل في خمسة عشر يوماً فقط! وقد خرج من ذلك بسلسلة من الاكتشافات المذهلة، لم يسبق لأي بعثة أن حصلت عليها في هذه الفترة الوجيزة (Reisner 1921: 23). ولا نريد أن نحكم على رايزنر من خلال مفهوم اليوم (القرن الحادي والعشرين)، لأن علم الآثار تطور تطوراً كبيراً عن تلك الفترة، التي نقّب فيها رايزنر ، ومن ثم يمكن أن يُلتمس العذر له في ذلك الوقت، باعتبار أن تقنيات علم الآثار تختلف بين الماضي والحاضر. ولكن لا نلتمس له العذر في السرعة الكبيرة، التي حفر بها جبانة الكرو الملكية.

كذلك، يؤخذ على رايزنر اهتمامه وانشغاله بالنصوص المكتوبة المتعلقة بالعقائد الملوكية، لأنه عالم مصريات في المقام الأول (أستاذ علم المصريات في جامعة هارفارد الأمريكية)؛ لذلك انصب اهتمامه على الجانب الديني والملكي من خلال حفرياته، التي تركّزت بشكل كامل على تنقيب الجبانات الملكية في المواقع النبتية في الكرو ونوري وجبل البركل، والمروية في البجراوية الشمالية والجنوبية والغربية.



ومن ثم أهمل رايزنر تماماً البحث في حياة عامة الشعب، التي تتمثل في مواقع المستوطنات السكنية. فقد خلت كتاباته عن المجتمع النبتي، وركّزت فقط على دراسة الأهرامات الملوكية والنقوش والكتابات الدينية، كما أنه لم يجر مسحاً، وإنما عَمِل في مواقع شاخصة.

وقد تابع دانم أعمال رايزنر ودرس المواد الأثرية، التي تحصّل عليها من حفرياتهما، وكتب التقارير، التي لم يتمكن رايزنر من كتابتها ونشرها قبل وفاته. وقد كرس دانم نفسه لدراسة هذه المواد بصورة مستفيضة، ونشرت له عدة مؤلفات (Dunham 1947, 1951, 1966, 1970)، صحح فيها بعض آراء رايزنر اعتماداً على ما تكشّف له من حقائق. وتُعد دراسات دانم هذه أكثر واقعية لأنها كانت متأنية. وبحكم محدودية البحث مع رايزنر سار دانم في خط رايزنر، ولكن في اتجاه تصحيحه فقط؛ فلم يتوسع في الجوانب، التي لم يتطرق إليها رايزنر، مثل المجتمع النبتي وإعادة كتابة التسلسل التاريخي وغيرها من الآراء، التي عدلت من بعد دانم عن طريق الباحثين المتأخرين. ولعل هذا ما دفع تريقر إلى أن يقول إن علماء آثار تلك الفترة لم تكن تسيطر عليهم جميعهم الأفكار العرقية، وغيرها من المفاهيم، التي ذكرت سابقاً (Trigger 1982: 224). والدليل على ذلك أن دانم أعطى جهداً مقدراً في البحث عن أصول مصطلح نبتة، ورأى أن هذا المصطلح يعطي مبرراً للفصل بين حضارتي نبتة ومروي، جاعلاً من مصطلح (مملكة كوش) حلاً لإبطال هذا الفصل، بحيث يُطلق ليدل على فترة واحدة ذات مسميين مختلفين. كما عدّل دانم في السنوات، التي حددها رايزنر للفصل بين كل جيل وآخر في جبانة الكرو، لتصبح عنده عشرين عاماً بدل ثلاثين.

وفي الفترة، التي أعقبت عام ١٩٥٠م (فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية)، بدأ علم الآثار يسير في اتجاهات جديدة وسّعت أفق هذا العلم، وبدأت مرحلة مهمة من مراحل تطوره. وكان العامل الأساس وراء هذا التغيّر هو توظيف بعض العلوم الأخرى، في خدمة علم الآثار وأهدافه. فقد غيّرت هذه العلوم والتخصصات مسيرة علم الآثار، من المنهج الوصفي إلى نظام دراسي تحليلي. وقد انعكس ذلك في ظهور نظريات ومناهج جديدة.

شهدت هذه الفترة في النوبة تغيّراً واضحاً في إستراتيجيات البحث الآثاري؛ فمثلاً كان لحملة (اليونسكو) لإنقاذ آثار النوبة الأثر الواضح في زيادة الاهتمام العالمي بالآثار السودانية. فَقَدِمَ الآثاريون إلى النوبة يحملون معهم مميزات هذه المرحلة المهمة من تطور علم الآثار، وفهم منهجي جديد متوسع عن الآثار والحضارة النوبية. فكان التغيير والتفسير من فهم ودراسة الانسان القديم والحضارة من وجهة نظر علم الآثار الأنثروبرولجي، إلى فهم السلوك البشري بصورة عامة (ibed: 225). وتحررت النظريات، التي ظهرت في هذه الفترة من هيمنة النظريات التقليدية السابقة، والإستراتيجيات القديمة لعلم الآثار، وشكّل هذا قاعدة علمية واسعة.

تتضح سمات هذه المرحلة بوضوح في دراسات الباحث ديكسون، عن أصل حضارة نبتة (Dixon 1964)، التي ناقش فيها هذا الموضوع بصورة جدية، مستعيناً بأدلة آثارية واضحة المعالم، منتقداً آراء رايزنر السابقة. وكانت أهم هذه الأدلة هي استمرار عادة الدفن تحت تلال ركامية، منذ الفترات النوبية المبكرة (المجموعتان أ و ج). كما أن العادات السودانية تبدو واضحة تماماً في مقابر الكرو، لأن معظم مقابر الأسلاف في ذلك الموقع كشفت عن عادة الدفن على "عنقريب"، وهي عادة جنائزية كانت تمارس منذ عهد المجموعة (ج). وعلاوة على ذلك ظهرت بوضوح على الصور والتماثيل، التي تركها الملوك، السمات الأفريقية الخالصة.

وقد اختص الكوشيون بملابس مميزة، خاصة الطاقية، التي تعد أحد رموز الملكية في مملكة نبتة. إضافة إلى دلائل أخرى قوية، أهمها الأسماء المحلية الخالصة لملوك وملكات نبتة، واختلاف وراثة العرش بين الكوشيين والمصريين (عند المصريين عن طريق الأب مباشرة، وعند الكوشيين من الأخ للأخ أو من الأخ إلى ابن أخته، أو من الملك إلى أكبر أفراد العائلة المالكة وأقواها). وتمثل دراسة ديكسون هذه بداية الالتفات للحقائق التفصيلية (Dixon 1964: 130-131).

أما وليم آدمز، فقد كانت آراؤه تحمل النزعة الأنثروبولوجية بحكم أنه أمريكي الجنسية. وفي أمريكا يدّرس علم الآثار على اعتبار أنه فرع من علم الأنثروبولوجيا. فقد فسّر التاريخ النوبي في ضوء هذه النزعة اعتماداً على الاستمرارية في الثقافة السودانية، ويتضح ذلك جلياً لمن يقرأ



مــؤلفــه (Nubia Corridor to Africa 1977)، الذي استخدم فيه منهجاً جديداً في دراسة الحضارة الكوشية، خاصة الفترة النبتية منها.

شكلت هذه المرحلة، أيضاً، الأساس المتين، الذي انطلقت منه الأبحاث والدراسات عن حضارة نبتة، التي أنجزها كل من كندال وتوروك وموركوت ويلين. فقد اعتمدت بحوثهم على مراجعة البحوث الآثارية والدراسات السابقة وتحليلها، والوقوف على الأدلة الآثارية. وقد كانت هذه الدراسات ذات فائدة عظيمة، خاصة في تصحيح المفاهيم القديمة، ومن ثم ارتادت آفاق جديدة في البحوث الآثارية للفترة النبتية.

فيما يخص الباحث تيموثي كاندل، وهو آثاري كان يعمل في قسم الفن المصري وفنون الشرق الأدنى بمتحف بوسطن للفنون الجميلة، وهو المتحف الذي يُختزن فيه كمٌ من الآثار النبتية، فقد ارتاد مجال الدراسات الكوشية في عام ١٩٨٢، بنشر مؤلفه (Kush: Lost Kingdom of the Nile). ثم انطلق بعد ذلك في البحث عن الفترة النبتية، مركزاً على جوانب لم يتطرق إليها أسلافه، أمثال رايزنر ودانم، في مجال العقائد الملكية، والتسلسل التاريخي لجبانة الكرو، والقصر الملكي النبتي (قصر الملك إسبلتا في موقع جبل البركل). وقد أعطى كندال لجبانة الكرو تسلسلاً تاريخياً أطول من الذي وضعه رايزنر، اعتماداً على تأريخ بعض الأواني، التي عثر عليها بالقبر (١)، وتعود إلى أواخر المملكة المصرية الحديثة. كما أظهر كندل اهتماماً خاصاً بالنقوش الملكية بجبل البركل، وخلص إلى نتيجة مفادها أن الملوك النبتيين كانو قد ربطوا أصلهم بالإله آمون، وبوصفهم يمثلون حلقة الوصل بين الإله والشعب (Kendall 1982). وتُعد دراسات كندل مواكبة للتطور الحالي لعلم الآثار، في استخدامه الحاسب في إعادة رسم المعابد بموقع جبل البركل والبنيات الفوقية للمدافن الملكية بموقع الكرو.

أما الباحثة الأمريكية جانيس يلين (Yellin)، فقد ركزت في دراستها على دور الديانة المصرية، في تكوين السلطة السياسية النبتية. وأوضحت أن العلاقة بين الملوك النبتيين والآلهة المصرية كانت تمتاز بالتعقيد، وكانت تمثل لهم وسيلة للاستيلاء على السلطة والاحتفاظ بها في أسر وصفت بالملكية، دون غيرها من عامة الشعب (Yellin 1994: 8). وتعد هذه الدراسة إضافة مهمة لمعلوماتنا عن كيفية تشكيل مملكة نبتة. وقد اعتمدت على المواد المتحفية المعروضة الآن في متحف بوسطن، وعلى تقارير رايزنر. يمكن القول -من ثم- إن هذه الدراسة تعد من الدراسات القيمة، التي اعتمدت على تحليل وتفسير الأدلة الآثارية بشكل منطقي.

اقتحم الباحث المجري توروك مجال الدراسات الكوشية، على الرغم من أنه لم يجر أي أعمال آثارية في السودان، بل قام بزيارة استكشافية لبعض المواقع الكوشية عام ١٩٨٨م. وجاءت آراء هذا الباحث بناءً على تقارير الحفريات، التي جرت في المواقع الكوشية، ومن ثم مراجعة كل الدراسات والكتابات السابقة ليضع العديد من الآراء الحديثة القيّمة، التي تتعلق بالأيدولوجيه الدينية ذات الجذور المصرية لملوك نبتة، وظهور الدولة النبتية والتسلسل الوراثي لملوكها. كما أنه انتقد بعض الآراء السابقة نقداً بناءً، مواكباً للتطور الذي صاحب علم الآثار، الذي ينادي بتقليل الاعتماد على الحفر في البحوث والدراسات.

أما الباحث البريطاني روبرت موركوت (Morkot)، فقد طرح أفكاراً جيدة عن حضارة نبتة، وعن فترة المملكة المصرية الحديثة في النوبة، وعن زعم بعض الباحثين أن هناك فترة مظلمة بين نهاية احتلال المملكة الحديثة وبداية بزوغ حضارة نبتة. فقد شق موركوت طرقاً جديدة في البحث عن آثار نبتة، وحاول أن يربط كل خيوط الأحداث في مصر والنوبة والشرق الأدنى. وقد ذهب أبعد من ذلك ليبحث عن نبتة في النصوص الآشورية، إلى أن خرج بنظرية ظهور السلطة السياسية النبتية، والظروف التي أدت إلى تكوينها، إضافة إلى تأريخ جبانة الكرو الملوكية، وبداية الدفن فيها، ووراثة العرش، والنسل الملكي. وقد جاءت نظريات موركوت بآراء لم يسبق أن تطرق لها أحد من الباحثين قبله خاصة فيما يتعلق بالاقتصاد النبتي (Morkot 1991, 1994a, 1994b).

وعلى ذلك يمكن القول إن معظم البحوث والدراسات الآثارية، التي أجريت في مواقع حضارة نبتة، خرجت بنظريات متعددة عن هذه الحضارة، إلا أن هناك بعض المواقع، التي أرخت إلى الفترة النبتية لم تكتمل فيها أعمال التنقيب. فموقعا الكوة وصنم أبو دوم لم ينالا ما يستحقانه من تنقيب، ولم تجر أي دراسات تفصيلية على هذين الموقعين. إن إكمال تنقيب هذين الموقعين قد يمد الباحثين بأدلة آثارية جديدة، وبمواد تساعد في حل العديد من المشكلات، التي وقف عندها الباحثون كثيراً، خاصة أن كلا



الموقعين لهما أهمية خاصة في خريطة الحضارة النبتية.

خلاصة:

إن البحوث والدراسات الآثارية، التي أجريت في مواقع حضارة نبتة تمخضت عنها نظريات وآراء متعددة، في مختلف أوجهها؛ فمنها ما تناول الأصل، ومنها ما تناول السياسة والدين. وقد حاولنا تقويم هذه النظريات وربطها بتطور علم الآثار في ذلك الوقت، خاصة أن هذه الدراسات ظهرت في بداية القرن الماضي، معتمدين في ذلك على الأدلة، التي استندت إليها، والظروف، التي نشأت فيها.

وكانت بداية هذه النظريات تلك الآراء، التي ظهرت على يد رايزنر في العقد الثاني من القرن الماضي، إذ يعد رايزنر أول من أجرى حفريات في مواقع الحضارة النبتية. ويمكن تقييم أعماله في النقاط الآتية:

١- جاء رايزنر للعمل في السودان وهو مؤمن بالنظرية العرقية البحتة، التي كان هدفها الأساس خدمة الجوانب السياسية ذات الأغراض الاستعمارية في إفريقيا، بصفة عامة، وفي السودان، بصفة خاصة، تمشياً مع طبيعة علم الآثار في ذلك الوقت.

٢- مع أن رايزنر يعد أول من أجرى حفريات في المواقع النبتية، وكشف عن الجزء الأعظم مما تبقى من الأطلال والمقابر والأهرامات في المواقع المختلفة، إلا إنه يؤخذ عليه التسرع في إجراء هذه الحفريات، وانعكاس النظريات السائدة وقتذاك على نتائجه وآرائه.

٣- لم تكن إستراتيجيات رايزنر واضحة المعالم في أبحاثه؛ فقد كرس بحثه على حفر أكبر عدد من مواقع حضارة نبتة، في أقل وقت ممكن. على الرغم من أن ذلك قد يعود في الأصل للنظرية السائدة، وليس لضعف المنهج الذي اتبعه.

٤- اهتم رايزنر، لكونه عالم مصريات، في دراساته بالطبقة العليا الحاكمة في حضارة نبتة، عندما نقّب فقط المواقع الآثارية البارزة، المتمثلة في الجبانات والأهرامات الملكية، ودراسة النقوش والكتابات الملكية، ولم يجر أي مسح آثاري للتعرف على المواقع الأخرى لهذه الحضارة. ولذلك أهمل رايزنر دراسة المواقع النبتية غير البارزة، ما تسبب في افتقار بحوثه إلى أي معلومات تخص عامة الشعب النبتي.

٥- جاء رايزنر للعمل في السودان بخلفية النظر للآثار السودانية على أنها امتداد طبيعي للآثار الفرعونية جنوباً، وكونها منطقة ظل حضاري.

وعلى الرغم من ذلك تعد أبحاث رايزنر ودراساته الأساس، الذي كشف النقاب عن الحضارات السودانية. وقد استطاع أن يضع اللبنات الأولى للتسلسل التاريخي الكوشي، من خلال دراسته للجبانات الملوكية، التي لم يسبقه أحد. وقد اعتمدت كل دراسات الآثاريين المتأخرين على أعماله، لذا يمكن أن نعدّه (أب الآثار السودانية).

أما الآثاري أنطوني آركل، فقد كتب عن الفترة النبتية من إستراتيجيات رايزنر نفسها؛ ولكن يبقى هناك فارق واضح بينهما، وهو أن آركل لم يكن يؤمن بالنظريات العرقية والنظريات الانتشارية بشكل مطلق، لأنه كتب في فترة اضمحلال هذه المفاهيم.

ثم توالت الأبحاث والكتابات عن الحضارة السودانية بعد عام ١٩٥٠م ، بواسطة علماء يحملون طرق ومناهج بحثية جديدة، مستفيدين مما طرأ على علم الآثار من تطور، ومن العلوم الأخرى المساعدة لعلم الآثار، محاولين معالجة التاريخ الثقافي لبلاد السودان.

ومنذ الثمانينيات من القرن الماضي وحتى الآن، ظهرت مجموعة من الدراسات في الحضارة الكوشية، اتسمت بالميزات الحديثة لعلم الآثار كمصدر للمعلومات. وقد اعتمد أغلبها على مراجع وتقارير الحفريات الماضية، ودراسة المواد المتحفية المستخرجة من هذه الحفريات، وعالجت عدداً من الموضوعات، التي كانت غائبة عن أذهان الكثيرين من الباحثين، ما انعكس في تطور الفهم وازدياده عن الحضارة النبتية، التي عالجتها النظريات السابقة، التي كانت تنسبها للعنصر الليبي تارة، وللعنصر المصري تارة أخرى؛ ولكن تبقى نبتة سودانية الأصل والمنشأ.

أ. جمال جعفر عباس: قسم الآثار - كلية الآداب والدراسات الإنسانية - كريمة - جامعة دنقلا - السودان.

المراجع

أولاً: المراجع غير العربية:

Adams, W. Y. 1977. **Nubia corridor to Africa**, Allen Lane University Press, Princeton.

Arkell, A. J. 1961. **A History of Sudan from Earliest Times to 1821**, 2nd ed., The Athlone Press, London.

Daniel, A. J. 1975. **A Hundred and Fifty Years of Archaeology**, Duckworth, Britain.

Dixon, D. M. 1964. "The Origins of the Kingdom of Kush: Napata-Meroe", **JEA**, vol. 50: 121-132 London.

Dunham, D. 1946. "Notes on the History of Kush: 850 BC.-350 AD.", **AJA**, vol. 3: 380-90.

-------------- 1947. "Outlines on the Ancient History of Sudan", **SNR**, vol. Xxviii, Khartoum.

-------------- 1950. El Kurru, **RCK**, 1, Boston.

-------------- 1963. "The West and the South Cemeteries of Meroe", **RCK**, II, Boston.

-------------- 1970. **The Barkal Temples**, Boston.

Groffith, F. L. 1922. "Oxford Excavations in Nubia", VIII-XVII, Napata, Sanam Temple, Treasuty and Town, **LAAA** 9: 67-171.

-------------- 1923. Oxford Excavations in Nubia, **LAAA** 10: 73-171.

Kendall, T. 1982. **Kush: the Lost Kingdom of the Nile**, Boston.

-------------- 1990. "Discoveries at Sudan's Sacred Mountain of Jebel Barkal Reveal Secrets of Kingdom of Kush", **National Geographic**, vol. 178 No. 5: 96-126 Washington.

Leclant, J. 1961. "Sur un Contropide de Menat au nom de Taharqa, Allaitement et Apprition Royale mel, Mariette", **BDE** 32.

-------------- 1963. "Kashta, Pharaon en Egypt", **ZAS**, vol. 90: 74-78.

-------------- 1965. Recherches sur les Mounuments Thebains de la xxv dynastic dite Ethiopienne", Caise Institut Francais d' Archeologie Orientate, Bibliotheque d' Etude, vol xxxvi: 160-61.

Morkot 1991. "Nubia in the New Kingdom: The Limits of Egyptian Control". In: W. V. Davies (ed), **Egypt and Africa: Nubia from Prehistory to Islam**, London, 294-301.

-------------- 1994a. "The Foundations of the Kushite State: a Response to the Paper of Laszio Torok". In: F. Geus (assembled): **Nubia Thirty Tears Later, Society for Nubian Studies Eighth International Conference 11-17 September 1994**, Pre-Publication of Main Papers, Lille.

-------------- 1994b. "The Nubian Dark Age". In: Ch. Bonnet (ed.), **Etudes Nubiennes Conference de Geneve, Actes du Vlle Congres International d'Euudes Nubiennes 3-8 Septenbre 1990**, vol. II: 45-47, Gebeve.

Reisner, G. A. 1917. "Excavation at Napata the Gapital of the Ethiopia", **MFAB** Vol xv, no 89: 25-34, Boston.

-------------- 1919. "Discovery of Tombs of the Egyptian XXV Dynasty at El Kurru in Dongola Province", **SNR** vol II:237-57.

-------------- 1921. "The Royal Family of Ethiopia", **MFAB** vol. Xix no. 112: 29-35, Boston.

Torok, L. 1992. "Ambulatory Kingship and Settlenent History, A Study on the Contribution of Archaeology to the Meroitec History". In: Bonnet, Ch, (ed.), **Etudes Nubiennes**, vol. I: 111-126, Geneva.

-------------- 1995. "The Birth of an Ancient African Kingdom: Kush and her myth of State in the first Millenium BC", **Cahers de recherches del instit de Papyrologie et d' Egypyolohie, de Lille, Supplement No. 4**, Universite Charles, de, Gaulle, Lille iii.

Trigger, B. 1982. From Reisner to Adams: Paradigms of Nubian Cultural History". In: Plumpey, J. M. (ed.), **Nubian Studies**, Cambridge, 223-26.

Yellin, J. 1994. "Egyptian Religion and the Formation of Napatan State", **Paper Presented at the 8th International Conference for Nubian Studies**, Lille.



خربة الذريح:
إضاءات جديدة على ديانة الأنباط ومعتقداتهم

زيدون المحيسن، فرنسوا فيلنوف، مولاي محمد جانيف

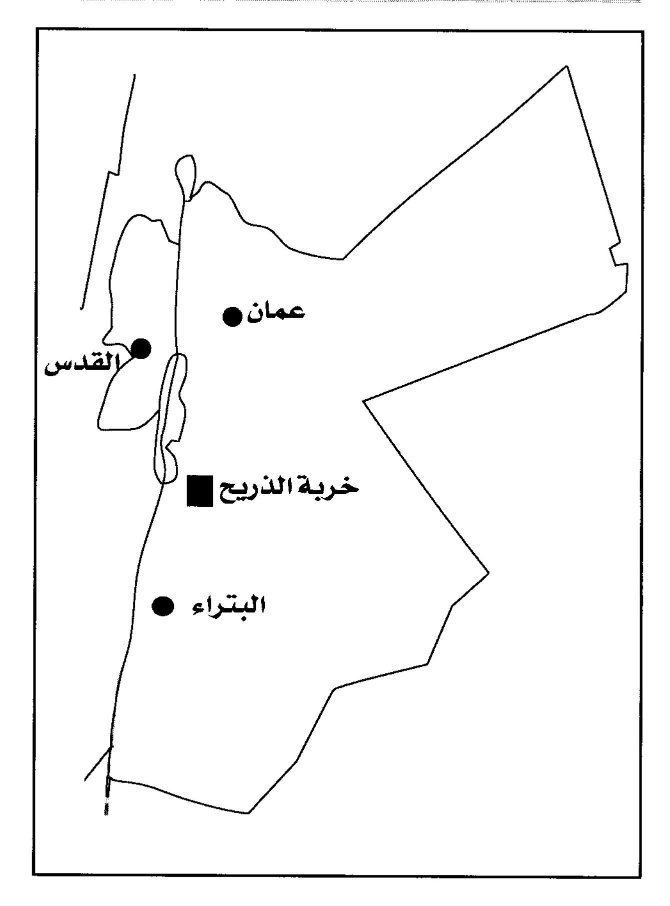
ملخص: أسفرت التنقيبات الجارية منذ سنة ١٩٨٤ في موقع خربة الذريح، الواقع على بعد حوالي ٧٠ كم إلى الشمال من البتراء، عن نتائج مهمة تخوّل دراستها إلقاء الضوء على الحياة الاجتماعية والدينية للأنباط، خارج عاصمتهم البتراء. وهذا البحث هو إسهام متواضع في دراسة ديانة الأنباط من خلال آثار خربة الذريح، خصوصا الهيكل. وتركز الدراسة بشكل أساسي على المعبد وآثاره الدالة على كيفية ممارسة الطقوس الدينية، تحديداً في قدس الأقداس. وتهدف المقابلة بين الجزء الداخلي من المعبد، المكرّس تماماً لعبادة الأنصاب وللطقوس الدينية كما مارسها عرب الجاهلية، وبين واجهة المعبد، التي "زينتها" تماثيل نصفية ومنحوتات بالغة الغنى دالة على فضاء ثقافي مختلف، إلى إبراز التنوع الذي ميّز ديانة الأنباط في فترة انتقالية خطيرة تلت سقوط البتراء وضم مملكة الأنباط لروما. ولا تدّعي هذه الدراسة الإجابةَ على كل الأسئلة المتعلقة بهذا الموضوع، إذ سعيُها هو فتح آفاق جديدة من خلال إثارة التساؤلات حول ديانة الأنباط، وتحولاتها بين الأصيل والدخيل.

Abstract. *The archaeological excavations carried out since 1984 at the Nabataean site of Khirbet edh-Dharih, some 70 km north of Petra, led to important results the study of which will shed light on different aspects of the social and religious life of the Nabataeans outside their capital Petra. The present research is a partial contribution to the study of the religion of the Nabataeans through the archaeological vestiges of Khirbet edh-Dharih, especially the sanctuary. Particular interest is devoted to the temple and its main features, which reflect the cult and rituals practiced in the holy of holies. In order to highlight the varied aspects of the Nabataean religion, especially during the transitional period that followed the annexation of Petra by the Romans, two main religious contexts have been studied: the square cultic platform and its elements which characterize the adytum and reflect the ancestral tradition, and the façade of the temple which seems to emanate from another tradition.*

عندما اختار يوليوس فلهاوزن (Wellhausen 1897)، لكتابه المنشور سنة ١٨٩٧ حول ديانة العرب قبل الإسلام، عنوانَ: "بقايا وثنية العرب" (Reste arabischen Heidentums)، فإنما كان يريد التعبيرَ عن مدى قلة ما وصلنا عن هذا الموضوع في المصادر العربية. ومع أن اكتشافَ "كتاب الأصنام"، لأبي المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي، ونشرِه كاملاً من قِبَل أحمد زكي سنة ١٩١٤، كان بمثابة نقطة تحوّل في تاريخ البحث في هذه المسألة، لما يحويه الكتابُ من معلومات مهمة عن معتقدات العرب في الجاهلية، بعد أن كان كل ما يتوافر من "كتاب الأصنام" لا يزيد عن شذرات مبثوثة في كتب التراث، إلا أن الصورة لم تتغير كثيراً إلا بعد أن استفادت الدراسةُ في هذا الميدان من معلومات مهمة قدمها علْمَا الآثار والنقوش، اللذان مكّنا الباحثين من الاتصال مباشرة ودون وساطة بالنص الأول: النصِّ الخالص من الشوائب، سواء أكان وثيقةً مكتوبة أم أثراً مادياً.

في هذا الإطار تأتي التنقيباتُ الجارية منذ ما يقارب العقدين في موقع خربة الذريح، لتلقيَ مزيداً من الضوء على ديانة الأنباط ومعتقداتهم. وهي بذلك تساعد على فهم السِّمات الوثنية في ديانة عرب الجاهلية، إذا افترضنا، من جهة، أن الأنباط عرب، على الرغم من غياب الإجماع التام





الخريطة ١: موقع خربة الذريح.

في هذا الشأن (Dussaud 1955: 2-5; Healey 1989; 2001: 25-32, 80 and passim; Restö 1999)، وأخذاً بالرواية الشهيرة الواردة في ابن الكلبي "... ثم إنه (عمرو بن لحيّ) مرض، فقيل له: إن بالبلقاء من الشام حمَّةً إن أتيتها برأت. فأتاها فاستحم بها، فبرأ. ووجد أهلَها يعبدون الأصنام، فقال: ما هذه؟ فقالوا نستسقي بها المطرَ ونستنصر بها على العدو. فسألهم أن يعطوه منها، ففعلوا. فقدم بها مكّة ونصبها حول الكعبة" (ابن الكلبي ١٩٢٤: ٨).

يتعلق الأمر، إذن، بإطارٍ جغرافي يمكن أن يُعدُّ موقعَ خربة الذريح جزءاً منه، في حين يمكن أن يُعد الموقع نفسه جزءاً من عالم الأنباط[1] (الخريطة ١). ذلك أن خربة الذريح تقع في وادي اللعبان، بين الكرك والطفيلة، على الطريق السلطاني القديم، على بعد ٧٠ كم تقريبا شمالي البتراء؛ وهي بذلك تجاور خربةَ التنور، الموقع الذي يمكن أن يُعد بحق توأمَ خربة الذريح وقرينَه. غير أن ما يميز موقع الخربة هو عدم اقتصار آثاره على الأوابد ذات الطابع الديني، مثلما هو الأمر في خربة التنور، حيث يقع هيكلٌ نبطيٌّ مبنيٌّ في منطقة معزولة، بل يتجاوز ذلك إلى أبنية سكنية وصناعية، ستساعد دراستُها على معرفة المزيد عن حياة الأنباط الاجتماعية والاقتصادية خارج عاصمتهم البتراء (انظر مخطط الموقع، الشكل ١).

وقد شهد الموقع فتراتِ استيطان مختلفةً، يرقى أقدمُها إلى العصر الحجري الحديث الفخاري أ (الألف السادسة ق.م.)، وأحدثُها إلى الفترة العثمانية، مروراً بالعصرين البرونزي والحديدي، والفترات النبطية-الرومانية، والبيزنطية، والأموية (Villeneuve and al-Muheisen 2000: 1527-1528).

غير أن أهم هذه الفترات على الإطلاق في الموقع، هي فترة الاستيطان النبطي-الروماني، التي عرفتها خربة الذريح بين القرنين الأول والرابع بعد الميلاد. وقد أسهمت التنقيباتُ، التي تُجريها في الموقع منذ سنة ١٩٨٤ بعثةٌ أردنية - فرنسية مشتركة، تحت إشراف زيدون المحيسن (جامعة اليرموك/ الأردن)، و فرنسوا فيلنوف (المعهد الوطني للبحث العلمي/ فرنسا)، بالتعاون مع دائرة الآثار العامة الأردنية والمعهد الفرنسي للآثار في الشرق الأدنى، أسهمت إلى حد بعيد في تحسين معرفتنا عن الحياة الدينية والاجتماعية والاقتصادية للأنباط، خارج عاصمتهم البتراء (انظر نتائج هذه التنقيبات في التقارير الأولية المفصلة، التي أصدرتها البعثة بشكل منتظم (al-Muheisen and Villeneuve 1988; 1994; Villeneuve and al-Muheisen 2000).

وسندع جانباً في هذه الدراسة المجالَين الاجتماعي والاقتصادي، مركزين على الجانب الديني في آثار خربة الذريح النبطية كما برز وتجلَّى على وجه التحديد في الهيكل (Sanctuary) ومعالمه.

يحتل هيكل خربة الذريح، الذي يمكن أن يُعد واحدا من أكثر الأبنية الدينية التي تركها الأنباط اكتمالاً، مساحةً تناهز ١٥٠ م طولا و ٥٠ م عرضاً. غير أن المبنى، الذي أكتُشف لا يمثل المرحلةَ الأولى الأصليةَ للهيكل، بل يعكس حالةَ توسعته التي تمت في وقت لاحق؛ ذلك أن بناءَ الهيكل قد مر

الشكل ١: مخطط عام للموقع بعد تنقيبات موسم ٢٠٠١؛ (رسم جان أمبير J. Humbert وآخرون).

بمرحلتين اثنتين:

المرحلة الأولى (الشكل ٢): وهي المرحلة التي يمكن إرجاع تأريخها إلى القرن الأول الميلادي، ولم نتعرَّف عليها إلا من خلال بعض الآثار القليلة، التي يمكن الاستنتاج من خلالها أن الهيكل النبطي الأول يكاد يكون بني على أرض عذراء تماماً. وكان هيكل القرن الميلادي الأول حِمَى أو ساحة مقدسة (temenos)، يحيط بها سورٌ سميكٌ نسبياً (سمكه متر واحد)، ويحتل جزءَها الشماليَّ معبدٌ صغيرٌ مربعُ الشكل لا يتجاوز ضلعه ١٥ م، كانت تتخلل واجهتَه أبوابٌ ثلاثةٌ على

خربة الذريح
هيكل القرن الأول بعد الميلاد

الشكل ٢: مخطط هيكل القرن الأول ب. م. (رسم جان أمبير وآخرون).

الأرجح، وتشغل مركزَه منصةٌ (platform) مرتفعةٌ على غرار تلك التي ستحتل مركزَ قدس أقداس المعبد العائد للمرحلة اللاحقة (معبد القرن الثاني بعد الميلاد). ولا نعرف، في الواقع، أهميةَ الدور الديني الذي لعبه المعبدُ الأولُ في محيطه القريب؛ لكن ما يبدو مؤكداً هو أن هيكل القرن الأول بعد الميلاد كان مبنىً دينياً نبطياً خالصاً، مورست فيه طقوسُ العبادة العربية التقليدية المرتبطة بتقديس الأنصاب.

المرحلة الثانية (الشكلان ٣ و ٤): تغطي هذه المرحلةُ الفترةَ الممتدة بين بداية القرن الأول ومنتصف القرن الرابع بعد الميلاد، وهو ما يوحي بأن إعادةَ بناء الهيكل قد استغرقت فترةً زمنية، تم خلالها توسعةُ المبنى، استجابةً -على الأرجح- لبرنامج مرتبط بالتحولات السياسية و/أو الدينية، التي عرفتها المنطقة، مع خضوع مملكة الأنباط بعد سنة ١٠٦ ميلادية لنفوذ روما، وكذلك خضوعاً لمتطلبات وظيفية مختلفة. ومع أن التوسعةَ قد أسفرت عن تعديلات كثيرة وأساسية مَسَّت مبنى المرحلة الأولى، إلا أنَّ مخطَّطَ الهيكل الجديد، وكذا اتجاهَه نحو الشمال، ينسجمان مع الإطارَ العامَّ، الذي كان ينتظم وفقه هيكلُ القرن الميلادي الأول. ولعلَّ في ذلك تفسيراً لاتجاه التوسعة نحو الجنوب دون الشمال، ولإدماج بعض عناصر المبنى الأول في المبنى الجديد، خصوصا تلك الواقعة شمالا، في المعبد، أي في الجزء الأكثر قداسة من الهيكل.

صُمِّم الهيكلُ وفق مخطط متَّسق لا يخلو من تماثل محوري. فقد انتظمت ساحتا الهيكل المتتاليتان في الجنوب والمعبدُ، في الشمال وفق المحور نفسه، بحيث جاءت مداخلُ هذه الوحدات المعمارية ممتدةً على الخط نفسه. ولأن المجالَ لا يتسع هنا لعرض مختلف العناصر المعمارية للهيكل، فإننا سنركّز على المعبد ومكوناته المختلفة، لأن هذا الجزء من الهيكل هو الأكثر دلالة على الممارسات الدينية، موضوع هذا البحث، مشيرين، باختصار، لمظاهر التطور، التي طرأت على الهيكل خلال الفترة المذكورة.

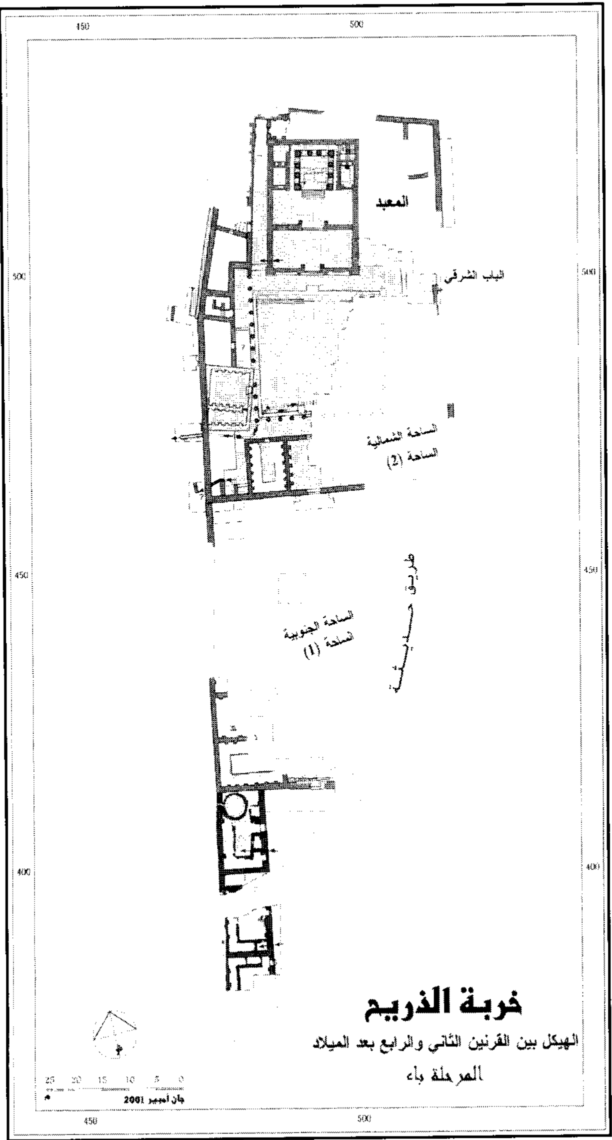
تتضح ملامحُ هذه المظاهر من خلال مرحلتين اثنتين: "أ" (الشكل ٣) و "ب" (الشكل ٤). فالمرحلة "أ" شهدت بناءَ المعبد وساحتي الهيكل الجنوبية (S1) والشمالية (S2)، خلال النصف الأول من القرن الثاني بعد الميلاد (١٠٠-١٥٠ ميلادية)،

الشكل ٣: مخطط هيكل القرن الثاني ب. م. - المرحلة أ (رسم جان أمبير وآخرون)

في حين تميّزت المرحلة "ب" بإضافة عدد من الغرف في المنطقة الجنوبية من الهيكل (المنطقة S7)، وكذلك بعض التغييرات، التي أُدخلت على المعبد (إغلاق الباب الشرقي للرواق الجنوبي، تعديل المداخل المُفضية إلى المنصة التي تحتل مركزَ قدس الأقداس)، وعلى الساحة الشمالية (S2).

معبد خربة الذريح: معطيات جديدة حول ديانة الأنباط

يبلغ طول معبد خربة الذريح، الذي كان يرتفع إلى ما

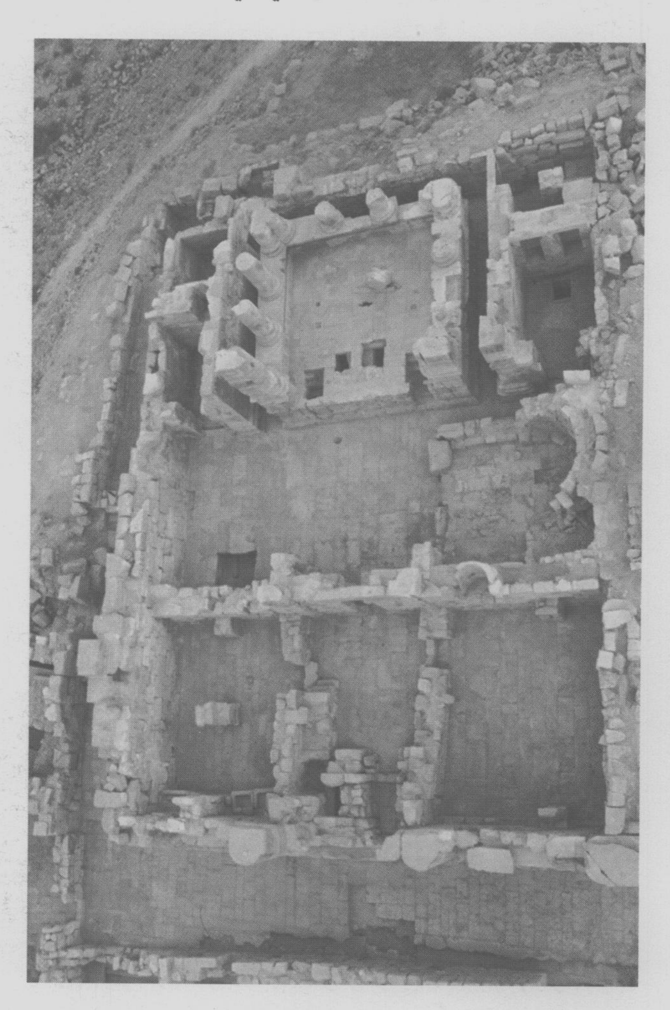


الشكل ٤: مخطط هيكل القرن الثاني ب. م. - المرحلة ب (رسم جان أمبير وآخرون)

يُقارب ١٥ مترا تقريباً، ٢٢ متراً وعرضه ١٥ متراً (اللوحة ١). ويحتل المعبد الجزءَ الشماليَّ لسلسلة متتالية من الساحات. وهو يتكون من مجاز، أو ما يمكن أن يُعد رواقاً أمامياً يتقدمه بابٌ ضيق (٤٠ر٢م). وعلى ما يبدو فقد كان هذا المجاز، الذي يشغل الجزءَ الجنوبيَّ من المعبد، خلواً من أي زينة، إلا من شريط زخرفي من الجص كان يزيّن الأجزاءَ العلوية من جدرانه. وكان هذا الرواق يُفضي عبر باب أكثر اتساعا يبلغ عرضه ٧٠ر٣م، شغل الجزءَ الأوسط من واجهة زيَّنتها مجموعةٌ من المشاكي (niches) المكسُوَّة بالجص، إلى

المَقْدِس (Cella)، الذي اتخذ شكلَ صالة مستطيلة تحتل عرض المعبد كلَّه. وقد تميز المَقْدِسُ بزخارفه الجصية الغنية والمتنوعة (اللوحة ٢). ومن المقدس كان يُعبر إلى الجزء الأكثر قداسة من المعبد، أي إلى قدس الأقداس (Holy of Ho-lies).

إن ما يثير الانتباهَ بشكل أساسي في قدس الأقداس هو



اللوحة ١: صورة شاملة للمعبد، مأخوذة من فوق باتجاه الشمال. وتبدو واضحةً أجزاءُ المعبد التي تتعاقب من الجنوب إلى الشمال على النحو التالي: جدار الواجهة ثم المجاز فالمَقْدِس (Cella) وأخيراً في أقصى الشمال قدس الأقداس، الذي تحتل مركزَه منصة مربعة (موتاب) كانت توضع عليها أنصابُ الآلهة، ويحيطُ بها رواقٌ ضيقٌ كان على الأرجح بمثابة ممر للطائفين حول المنصة. لاحظْ في المقدس، باتجاه الشرق، حنيةَ الكنيسة البيزنطية التي بُنيت خلال النصف الثاني من القرن السادس ب. م. في هذا الجزء من المعبد (تصوير فرنسوا فيلنوف F. Villeneuve).

المصطبة أو المنصة (Platform)، التي بُنِيَتْ فوق قبوين سفليين، ويعزلها عن الغرف الجانبية رواق ضيق، ربما كان ممراً للطائفين حولها. وإن هذا العنصرُ الدينيُّ المهم، ليقدم - إذن- مثالاً للعمائر الدينية، التي عُرفت في نقوش البتراء باسم الـ"موتاب"، وهي كلمة أثار تفسيرُها جدلاً بين الدارسين لأن سياقات ذكرها في نقوش البتراء غير واضحة بما فيه الكفاية، وإن غلب الاعتقاد حاليا بأن هذه اللفظةَ دالَّةٌ على المجالس أو العروش، التي كانت توضع عليها أنصابُ الآلهة (Healey 2001: 158-159)[٢]. فمن المؤكد، إذن، أن "موتاب" معبد خربة الذريح قد احتل مكاناً أساسياً في طقوس العبادة، التي كانت تجري في هذا المبنى الديني، الذي - لا شك - أنه اكتسب أهميةً كبيرةً تجاوزت بكثير محيطَه المتواضعَ. بيد أن السؤال، الذي يتبادر إلى الأذهان هو: ما طبيعة هذه الطقوس ؟ ممَّ تكوَّنت، وما الجامع بينها وبين التماثيل النصفية والمواضيع الميثولوجية، التي جُسّدت على واجهة المعبد ؟

تفرض الإجابةُ على هذه التساؤلات معالجةَ الموضوع وفق مستويين: مستوى يتعلق بالجزء الداخلي من المعبد، إذ يقدم قدسُ أقداس معبد خربة الذريح معلوماتٍ مهمَّةً عن عبادة الأنصاب وطقوس التضحية للآلهة، كما سادت عند عرب ما قبل الإسلام، ومستوىً يرتبط بواجهة المعبد، التي تُحيل بمنحوتاتها وتماثيلها الآدمية النصفية إلى فضاء ديني وثقافي مختلف.

قدس الأقداس وعبادة الأنصاب (الشكل ٥):

وكما سبقت الإشارة إلى ذلك، فقد احتلت قدسَ أقداس المعبد منصةٌ أو مصطبة مربعة الشكل، يبلغ طولُ ضلعها سبعةَ أمتار، وارتفاعُها ١٫٤ م، كان الارتقاء إليها بواسطة درجين جانبيين ضيقين، وتعلوها مظلة ذات أعمدة. وفي وقت لاحق، على الأرجح خلال القرنين الثاني أو الثالث بعد الميلاد، أُغلقت الدرجتان واستبدلتا سلماً ثابتاً يوصل إلى المنصة، التي تدل التجاويف الثلاثة المحفورة على سطحها على أنها كانت قاعدةً توضع عليها الأنصاب. ومع أننا لم نعثر على أي نصب في هذه المنطقة من المعبد؛ وهو أمر يسهل فهمه إذا

أخذنا بعين الاعتبار عواملَ إعادة استيطان المبنى خلال الفترتين البيزنطية والإسلامية المبكرة، التي أدت إلى طمس جزء من معالم المعبد النبطي، إلا أنه ما من شك أن هذه الأنصاب لم تختلف في شيء عن تلك، التي يحتويها بأعداد كبيرة موقعا البتراء والحِجْر (اللوحة ٣).

بيد أن معبد خربة الذريح يتفرَّد بغنى المعلومات، التي تقدمها عناصرُه المعمارية، وتحديداً ما يتعلق بالطريقة، التي كانت تقام وفقاً لها الطقوسُ الدينيةُ في الأجزاء الأكثر

اللوحة ٢: قطعة من الجص تمثل رأسَ أنثى (آلهة ؟). شكلت هذه القطعة الجميلة جزءاً من الزخرفة، التي زينت جدران مقدس المعبد (تصوير إيغ فونطين H . Fontaine).

قداسة من المعابد النبطية، ما يتيح تعميقَ فهمنا لبعض المباني الدينيـة النبطيـة المشـابهـة، مـثل مـعـبـد اللات في إرم (انظر Tholbecq 1998)، أو المعبد المعروف باسم "معبد الأسود المجنحة" في البتراء، أو حتى المعبد الصخري المعروف باسم "المذبح"، الواقع بين المسرح ووادي فَرَسَه، غير بعيد عن سيق البتـراء، دون أن ننسى أخيـراً المعبـد الأهم في البـتـراء، أي

الشكل ٥: رسم ثلاثي الأبعاد (axonometric) لمنصة المعبد. لاحظْ موضعَ النَّصَبَيْن والميزابَ، الذي يوصل دمَ الأضاحي لحوض يقع دون مستوى المنصة، ثم الدرجَ الخشبي المُوصلَ إلى المنصة (رسم جان أمبير).

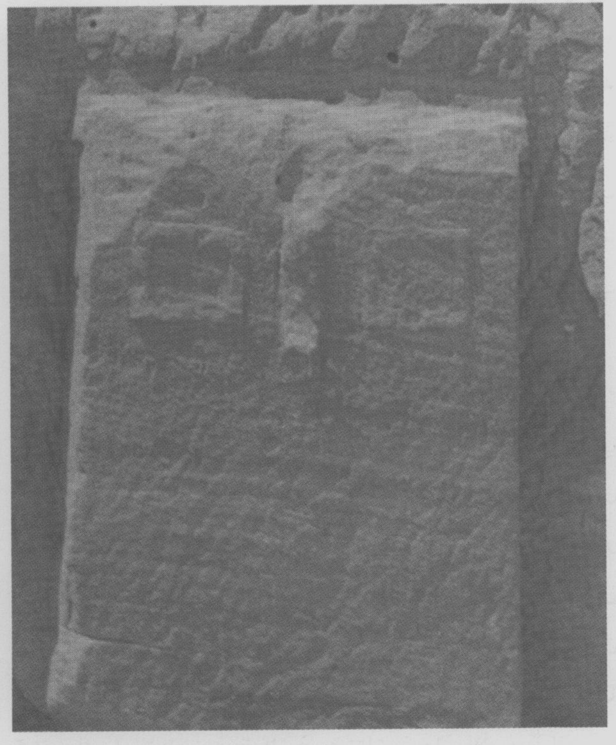


"قصر البنت". ذلك أن العناصر، التي تقدمها المنصةُ، بوصفها قاعدةً للأنصاب ومجلسا للآلهة، تعكس جانباً أساسياً من الطقوس والاحتفالات الدينية الموسمية، التي كانت تقدَّم خلالها الأضاحي للآلهة.

وفي نص متأخر كتبه القديس إبيفانيوس (Saint Epiphanius) أسقف سلاميس، حوالي ٣١٥-٤٠٣ ميلادية)، في معرض حديثه عن البتراء والإسكندرية وإلوسا أو الخالصة، وهي مدينة نبطية في النقب، ثمة ما يوضح هذه الطقوس ويُلقي الضوءَ عليها. يقول إبيفانيوس متحدثا عن أهالي هذه المدن وطقوسهم الدينية:

"... وهم يسهرون الليلَ كلَّه مرنِّمين أناشيدَ للصنم تصحَبُهم المزامير. وعندما يُنهون سهرَهم مع صياح الديك، ينزل حاملو مشاعلَ إلى مكان مقدس سفلي ويأخذون من هناك صنما من خشب [...] فيدورون بالصنم سبعَ مرات حول الـ"ناووس" الداخلي بمزامير وطبول وأناشيد، ثم يولِمون (يصنعون وليمة) ويعيدون الصنمَ إلى مكانه السفلي .[...] يحدث هذا أيضا في البتراء [...] في الـ"أيدوليون" eidôlion، حيث يرنمون بالعربية أناشيدَ للعذراء التي يسمونها كعمو Xaauov [٣] يعني كوري Kopnv أو العذراء في العربية. والابن الذي وُلد لها يسمونه ذو الشرى Dousarès أي "الابن الوحيد للرب". وقد حدث هذا أيضا هذه الليلة في إلوسا". (Villeneuve and al-Muheisen 2000: 1557).

إن النزعة الإسقاطية أو التوفيقية في هذا النص لا يمكن أن تُغفلَها العين؛ إذ يُلاحظ إسقاطَ مفردات هي من صميم اللاهوت النصراني: (العذراء، الابن الوحيد للرب) على مفردات وثنية خالصة. وبغض النظر عمَّا إذا كانت هذه النزعة تعبيراً عن نظرة الكاتب (إبيفانيوس) للأمور، أو كونَها انعكاساً لاتجاه توفيقي تبناه الأنباطُ كردة فعل تُجاه المد المسيحي، الذي عرفته المنطقة ابتداءً من القرن الرابع بعد الميلاد، فإن هذا النص يكتسب أهميةً كبيرة. فهو لا يقتصر على إلقاء الضوء على المعالم، التي تُقدمها بعض المعابد النبطية فحسب، بل يتجاوز ذلك بتقديمه وصفاً حياً للطقوس الدينية، كما كانت تُجرَى داخل هذه المعابد. والاتفاق المثير بين المعلومات الواردة في النص، وبين المعطيات الآثارية، التي



اللوحة ٣: حت تجريدي يمثل نصباً ذا عينين وأنف. من المحتمل أن نصبي معبد خربة الذريح كانا يتخذان شكلا مماثلا لهذا الأثر المنحوت على جبل إثلب في الحجر-مدائن صالح (نقلا عن الأنصاري وأبو الحسن ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م: ٦٩).

يقدمها "موتاب" معبد خربة الذريح، يُضفي على نص إبيفانيوس مصداقية تجعلنا نقبل ما ورد فيه دون تحفظ، بما في ذلك المعلومات، التي لا يمكن أن نفحص صحتَّها باللجوء إلى الآثار؛ نقصد تحديداً الجوانبَ المتعلقةَ بالاحتفالات الدينية، بما فيها من ترانيم وولائم طقوسية.

فـ "موتاب" معبد خربة الذريح يجد نظيرَه الأمثل في الـ"ناووس"، المذكور في نص إبيفانيوس، والقبوين الواقعين أسفلَ الـ"موتاب"، حيث كانت تودَع الأنصابُ وقطعُ العبادة عندما تنفض الاحتفالات الدينية، يقابلهما المكانُ السفليُّ المقدَّس الوارد في النص نفسِه. أما الوليمة، التي ذكرها إبفانيوس، فربما وجدنا تجسيداً لها في المجالس الطقوسية (triclinia)، التي ما زالت آثارُ الهيكل تحتفظ ببعضها.

وإذا كان نص إبيفانيوس يقدم معلوماتٍ قيِّمةً، لا نستطيع الاستدلالَ عليها من خلال الآثار، مثل تلك المتعلقة بمواقيت تنظيم الطقوس (الليل) أو كيفية إحيائها (الطواف،

الترانيم والولائم)، فإن آثار معبد خربة الذريح تقدم معلومات لا تقل أهمية، لأنها تتمم هذا النص وتجعلنا ندرك ما ورد فيه عينَ اليقين، ونقصد هنا تحديداً ما تعلق بالأضاحي وكيفية تقديمها للآلهة/ الأنصاب، على "موتاب" المعبد. فقد عثر في هذا الجزء من المعبد على كل ما من شأنه إبراز هذا الجانب، الذي احتل مكانةً مهمة في ديانة الساميين عموماً، والعرب خصوصا خلال فترة ما قبل الإسلام.

كان "موتاب" معبد خربة الذريح يشهد، على ما يبدو، خلال الأعياد الدينية تقديمَ الأضاحي والقرابين للآلهة، التي نجهل أسماءَها بسبب عدم العثور، حتى الآن، على أي نقش يذكر الآلهة، التي كُرّس لها المعبد. بيد أن وجودَ ثلاث حفر صغيرة نُفذت على سطح الـ"موتاب" وفق خط منحرف، يدل -دون شك- على أن نصبين اثنين كانا يشغلان الحفرتين الوسطى والشمالية-الشرقية، كما يبدو في (الشكل ٥)، بينما كانت الحفرة الجنوبية-الغربية تتلقى، على الأرجح، الدماءَ المسكوبة على النصبين عبر ميزاب ضيق حُفرَ أمام النصب الأوسط، كانت وظيفتُه ايصالَ هذه السوائل إلى حوض قُدَّ من جذع عمود. وكان هذا الحوض يوضَع في الزاوية الجنوبية-الغربية للـ"موتاب"، دون مستوى أرضية المنصة، حتى يكون في إمكانه تلقي وجمع سوائل الأضاحي المسكوبة على النصبين. أما الثقوب التي تخللت سطحَ الـ"موتاب" (الشكل ٥)، فقد أدت وظيفةً مماثلةً، إذ كان الغرضُ منها تمرير الدماء إلى أحواض تقع أسفل الـ"موتاب" (Villeneuve and al-Muheisen 2000: 1556-1557; Villeneuve and al-Muheisen: In Press).

وقد اعتقدنا في البدء أن الحفرَ الثلاث، التي تتخلل قاعدةَ المنصة بشكل منحرف، كانت مواضعَ لتثبيت ثلاثة أنصاب، وهو ما دعانا إلى الاعتقاد بأنَّ آلهةً ثلاثةً كانت تَتَسيَّد الهيكل. بيد أن مزيداً من الفحص والتدقيق دفعنا إلى تعديل هذا الاستنتاج، وذلك بالذهاب إلى أن الأمرَ ربما تعلق، على الأرجح، بنصبين اثنين لا ثلاثة. وقد يصح هذا الاعتقاد بالنظر إلى أن الحفرتين الشمالية-الشرقية والوسطى تنفردان بوجود ثقبين يحاذي كلَّ واحدٍ منهما الحفرة على حدة، بينما لا تحظى الحفرة الجنوبية-الغربية بهذه الخاصية (الشكل ٥).

ونتساءل هنا حول هوية الآلهة، التي جسّدتها هذه الأنصاب، هل يتعلق الأمر بآلهة "نبطية" خالصة، من قبيل ذو الشرى أو اللات/ العزى ؟ هل يتعلق الأمر بآلهة دخيلة على الـ"بانثيون" النبطي، لعلها ذات صلة بالآلهة التي سادت عبادتُها في هذه المنطقة من الأردن خلال عصر الحديد (قوس كبير آلهة الإدوميين مثلا...) ؟ هل يتعلق الأمر بتوفيق (syncretism) أو مماثلة (assimilation)، بين مجموعة من الآلهة المختلفة اسماً، المتشابهة جوهراً ووظيفة ؟

من الصعب الإجابة على هذه الأسئلة في الوقت الراهن؛ وما دام النص غائبا فأن أقصى ما يمكن الطموح إليه عند محاولة الرد على هذه التساؤلات، هو الزعم بأن هيكل خربة الذريح قد تَسَيَّده زوجٌ من الآلهة قد لا يختلف كثيرا عن الزوج (هدد/ عطرغتيس)، الذي نجد صداه موجوداً بقوة في مواقع مجاورة، مثل خربة التنور (McKenzie et al. 2002: 76)، أو قصيَّة مثل إدسَّا-الرُّها (أورفه)، في الجزء الشمالي من الرافدَيْن (Ross 2001: 89-90).

إن ما يثير الانتباهَ، كذلك، هو أن هذه الحفر، التي كانت تُثبت فيها الأنصابُ، انتظمت وفق خط منحرف لا يتعامد مع الخط المحوري شمال-جنوب، الذي ينتظم وفقه الهيكل، ولا يتوازى مع واجهة المعبد وعناصرها المعمارية المنحوتة. وإذا كنا غير قادرين، بعدُ، على فهم السبب وراء اختيار تقديم الأنصاب على منصة المعبد وفق خط منحرف، فإن المعطيات، التي يقدمها "موتاب" معبد خربة الذريح باتت تناقض ما ذهب إليه، على سبيل المثال، ميشال جافليكوفسكي (M. Gawlikowski) حين عدَّ المصاطبَ أو المنصات (platforms)، التي تحتل مراكزَ بعض معابد الشرق الأدنى العائدة للفترة الرومانية، "موضعا لإقامة طقوس التضحية لا لعرض الأنصاب [...]، ساحةً معمَّدةً ضمن مَقْدِس المعبد لا قاعدة معمارية مخصَّصة لحمل قطع العبادة" (Villeneuve and al-Muheisen 2000: 1556, n. 37).

إذن من الثابت أن هذا الجزء من معبد خربة الذريح قد خُصِّصَ لطقوس دينية عربية خالصة، احتلت فيها شعائرُ



معينةٌ، مثل: التضحية، وسكب دماء الأضاحي على الأنصاب، والطواف، وإقامة الولائم الطقوسية... مكانةً أساسية. ويبدو أن الـ"موتاب" كان قابلا للكشف أو للحجب، بفضل حاجز معدني في مقدمة المنصة، مثلما هو الأمر في معابد نبطية أخرى، كمعبد "الأسود المجنحة" في البتراء.

ونستطيع، إذن، من خلال المستمسكات الآثارية المتاحة، تصوُّرَ إجراء هذه الطقوس على نحو يتفق تمامَ الاتفاق مع الوصف، الذي قدمّه أسقف سلاميس (المبيّن سابقاً)، مضيفين أن الغرف الجانبية، التي تحيط بـ"الموتاب" (أربع غرف: غرفتان ذات اليمين وغرفتان ذات الشمال) لا تنفصل عن هذا السياق الطقوسي؛ وحتى الغرفة الشمالية-الشرقية، التي شغلتها مرقاة دَرَج، لا بد أن الكهنة كانوا يصعدونها حاملين أنصابَهم لمعاينة تجليات الآلهة (Theophanies)، على الأرجح، خلال اللحظات الأخيرة من إحياء هذه الطقوس. بعد ذلك، وفور انفضاض الاحتفالات الدينية، كانت تودع الأنصاب ومتعلقات العبادة في القبوين الواقعين أسفل الـ"موتاب"، أو في القبو الموجود تحت الغرفة الجنوبية-الشرقية (.Villeneuve and al-Muheisen 2000: 1556-1558; 2000/2001: 280). أما القيّمون على تنفيذ هذه الطقوس، فلا بد أنهم كانوا ينتمون إلى "أسرة" اضطلع أفرادُها بدور محوري في إدارة شؤون الهيكل والقرية. ولعل أبرز الآثار الدالة في الموقع على تميّز أفراد هذه "الأسرة" عن غيرهم، تكمن في المنزل الفخم (V1)، الذي ربطته جادّةٌ مبلطة بالهيكل، وكذا في الضريح التذكاري (C1)، الذي تفوّق كثيراً بحسن عمارته على باقي مدافن القرية (انظر الدراسة المستفيضة لهذا الضريح، كما لمدافن القرية، في Lenoble et al. 2001).

وكما سبقت الإشارة إلى ذلك، فإن إبيفانيوس يقدّم في نصه المذكور أعلاه معلومةً في غاية الأهمية، لا يمكن الاستدلالُ عليها من خلال المستمسكات الآثارية، وهي: إحياء هذه الطقوس ليلاً، واستمرارها حتى طلوع الفجر. بيد أن هذا التحديد الدقيق لا يمنع من التساؤل حول الموسم، الذي كانت تُجرى فيه هذه الاحتفالات الدينية. ما موقعه من السنة؟ أكان يحل في الخريف أم في الصيف ؟ هل ارتبط إحياء هذه الطقوس بحدث معين، أو بظواهر طبيعية محدَّدَة (منازل النجوم مثلا) ؟

إن الإجابة على هذه الأسئلة، تستوجب الانتقالَ إلى جزءٍ آخرَ مهمٍ من معبد خربة الذريح، إلى الواجهة، التي شكل الكشفُ عن بعض أجزائها في السنوات الأخيرة حدثا في حد ذاته.

واجهة المعبد: الفن الديني النبطي بين الأصيل والدخيل:

حتى سنة ١٩٩٤، لم تكن البعثة الأردنية-الفرنسية قد أماطت اللثام سوى عن عناصرَ قليلة من هذه الواجهة، كان أبرزها على الإطلاق، في ذلك الحين، التمثال النصفي، الذي عُثر عليه خلال الموسم السابع من التنقيبات وعُدّ حينَها تمثالاً نصفيا يجسد هرمس أو على الأرجح أكتب/الكُتبى، نظيرَ هرمس في الـ"بانثيون" النبطي (al-Muheisen and Villeneuve 1994: 745-746. Fig. 5). بيد أنه إذا كان هذا التحديد قد أملته اعتباراتٌ أيقونوغرافية في ذلك الحين، فإن توالي اكتشافات عناصر الواجهة، خصوصا خلال الموسم التاسع (موسم ١٩٩٨)، قد دفع إلى إعادة النظر في هذا التحديد، وذلك عن طريق ربط التمثال النصفي المكتَشَف بسياق أكثر شمولاً واتساعاً هو سياق الواجهة، التي كانت "تزيّن" معبدَ خربة الذريح بين القرنين الأول والرابع بعد الميلاد.

وقد ناهز ارتفاعُ الواجهة (الشكل ٦) ١٥ مترا؛ وهي بذلك تُعَدُّ واحدةً من أكثر الواجهات، التي تركها الأنباطُ ضخامةً واكتمالاً. وتشكل واجهة معبد خربة الذريح الامتدادَ الرأسيَّ للجدار الجنوبي للمعبد، وهو امتداد كان يظهر على شكل مُنشأة بارزة، ترتكز على أربعة أعمدة استنادية أو عضادات، تزيّنها تيجانٌ كورنثية، وتتوزع بشكل متماثل محورياً على يمين ويسار بابٍ ضخم يناهز علوُّه خمسةَ أمتار، يُفضي إلى مجاز جنوبي يحتل عرض المعبد كلَّه. ونجد التماثل المحوري مطبقاً بإحكام في مختلف أجزاء الواجهة، حيث تتوافر العناصرُ الواقعة في النصف الغربي من الواجهة، على ما يناظرها في النصف الشرقي. فإذا انطلقنا من الأسفل إلى الأعلى وجدنا

قاعدتين، ربما حملت كلٌّ واحدة منهما على حدة تمثالَ حيوانٍ حامٍ (apotropaic) للمعبد. ويدل عثورُنا أمام الواجهة على بعض الكسر المنحوتة أن هذا الحيوان، على الأرجح، من فصيلة السِّنَّوريات (فهد أو نمر ؟). ثم توجد بعد ذلك إطاراتٌ منحوتةٌ ضمت أشكالاً مختلفة تفتقد نسبياً إلى التجانس، يبرز بينها بشكل خاص نحتٌ قد يرمز إلى الذئبة الرومانية وهي ترضع التوأمَ ريموس و رومولوس، مؤسسيّ روما حسب الأسطورة اللاتينية الشهيرة (Villeneuve and al-Muheisen 2000: 1546; Villeneuve 2002). وتعلو هذه الإطاراتِ نافذتان، يدل وجودُهما على أن الصالة الواقعة مباشرة خلف الواجهة (المجاز الجنوبي للمعبد) لم تكن غرفةً بالمعنى الدقيق، بل ساحةً أو مجازاً غيرَ مسقوف، يفضي باتجاه الشمال إلى مَقْدِس المعبد[cella] (Al-Muheisen and Villeneuve 2000: 1543).

بيد أن أهمَّ ما في الواجهة على الإطلاق هي العناصر المنحوتة، التي كانت تشكل الأجزاءَ العلوية للجدار الجنوبي للمعبد: رباط الأعمدة (architrave) ثم الإفريز (frieze) فالجبهة المثلثة أو الجبلونة أو القَوْصَرة (pediment). وعلى

الشكل ٦: رسم تصوري لواجهة معبد خربة الذريح، حيث يمكن تبيُّن عناصر الواجهة المختلفة: رباط الأعمدة ثم الإفريز ذو التماثيل النصفية فالقَوْصَرة المثلثة في الأعلى... (إنجاز رونو دو لانو R. de La Noue رسم رفائيل دريزار R. Drizard وآخرون).



الرغم من تعرّض الكثير من هذه العناصر للتحطيم من قبل مناهضي الأيقونات (Iconoclasts)، أو لإعادة الاستخدام خلال الفترتين البيزنطية والأموية، إلا أن سنواتٍ من العمل الدؤوب قد مكنتنا من وضع تصور شبه تام لهذه الواجهة (الشكل ٦).

رباط الأعمدة (architrave): تشكّل من حجارة ضخمة، زينتها زخارف بارزة زاوجت بين الأشكال النباتية (الكرمة، سعف النخيل...) والحيوانية (الوعول والطيور...)، وقدمت في بعض الأحيان صدىً لموضوعات ميثولوجية إغريقية أو رومانية (إيروس قاطفا للعنب...؟) غير واضحة بما فيه الكفاية. وقد تشكَّل طرفا رباط الأعمدة من نحتَيْن، يمثل كل واحد منهما رأسَ مِدُوزة (Medusa).

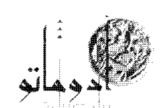
الإفريزُ (frieze): مَثَّلَ بعناصره المنحوتة البارزة أهمَّ أجزاء الواجهة على الإطلاق. وقد تشكّل من تماثيل نصفية تعاقبت بشكل أفقي مع رباتِ نصر مجنَّحَة، حيث توَّجت كلُّ ربة نصر مجنَّحَة (Nike) التمثالَ النصفيَّ، الذي كان يعقُبُها. ولعل ما عُثر عليه إلى الآن من تماثيل نصفية كافٍ للتأكيد على أن الأمر يتعلق هنا بمنحوتات رمزت للأبراج الإثني عشر؛ وقد اتخذت أشكالاً آدمية وانتظمت بشكل أفقي على هيئة شريط، ناهز عرضُه اثني عشر متراً (الشكل ٦). وهاتان ميزتان يندر أن نجدَهما في المنحوتات الدالة على الأبراج في فن الشرق الأدنى القديم، إذ اتخذت تلك المنحوتات، في الغالب الأعم، أشكالاً آدمية وَ/أو حيوانية، وانتظمت داخل حلقات أو أنصاف دوائر (Ness 1990: 79-90). ويكفي أن نتأمل بعض العلامات الموجودة على التماثيل النصفية المكتشَفَة، لنستطيعَ تحديدَ البرج المقصود: القرنان لبرج الثور، والقُرَص لبرج السرطان، ثم الميزان مرسوماً على الصدر لبرج الميزان (الشكل ٦)، أما برج الجوزاء فدلَّ عليه التمثالُ النصفيُّ المزدوَج، الذي نُفِّذَ وفق أسلوب بالغ السلاسة (اللوحة ٤).

القَوْصَرَة أو الجبهة المثلثة (pediment)، على غرار باقي



اللوحة ٤: تمثال نصفي يرمز لبرج الجوزاء. شكل هذا الأثر المنحوت جزءا من إفريز الواجهة (تصوير كريستيل مارك C. March).

أجزاء الواجهة، فقد تماثَل جزءاها الأيمن والأيسر محورياً دون أن يقدما عناصرَ بالغة البروز، مثلما هو الأمر في الإفريز. ويبدو أن عقداً قد شغل مركزَ القَوْصَرَة، لكن يظل من غير المعروف ما إذا كان هذا العقد في الأصل فارغاً أو ممتلئاً؛ ولأن قاعدةَ التماثل المحوري هي السائدة في كل أجزاء الواجهة، فإن أشكالاً مماثلة لتلك، التي كُشف عنها في الجزء الأيسر من القوصرة، لا بد أنها كانت "تُزيِّن" الجزءَ الأيمن كذلك. ويتعلق الأمرُ تحديداً بأشكال منحوتة قليلة البروز تمثل قنطوراً بحرياً (Centaur)، أو ما يُعرف في الميثولوجيا اليونانية باسم تريتون (Triton)، وهو وحش هجين جزؤُه العلوي بشري والسفلي حيواني، ينتهي بذَنَب حلزوني طويل. ويُلاحظ هنا بأن الـ"قنطور" قد صُوِّر بشكل مُواجِه (frontal) تماماً، وهو يرفع إحدى يديه، تُتَوِّجُه ربةُ نصر مجنَّحة، بينما يفصله عن منطلق العقد نسرٌ قد أفردَ جناحيه، وفي أقصى اليسار ثمة نحتٌ قليل البروز يمثل سمكة



(Villeneuve and al-Muheisen 2000: 1554).

إن المجالَ هنا لا يتسع للخوض في المدلول الميثولوجي لهذه "المشاهد"، وحسبُنا أن نعترفَ بأننا ما زلنا بعيدين عن فهم مدلول الواجهة، ليس لأن ثمة نقصا في معارفنا حول هذا الموضوع، ولكن لأن السياق العام لهذه المنحوتات هو في غاية الغرابة. ولعل في هذه "المشاهد" ما يدل على مزج واعٍ ومدروس، قام به الفنان النبطي بين عناصر محلية وأخرى دخيلة (شرقية وفارسية بالأساس)، وهو ما يؤيد ما ذهبت إليه جوديث مكّنزي حين استنتجت بأن " [...] الثقافةَ النبطية لم تنتُج عن سوء فهم محلي للمعالم الكلاسيكية، بل إن سماتِها المميزة ناتجة بالأحرى عن اختيار مقصود لبعض العناصر المحلية ومزاوجتها مع عناصر كلاسيكية من مصر وأخرى من الشرق القديم (آشور وبابل). والتركيبة الحاصلة جعلت معنى هذه الأمثلة غيرَ واضح بالنسبة للدارس المعاصر." (McKenzie 2001: 109).

هدفنا هنا تحديداً الإجابةُ على سؤالين:

- ما هي الآلهة التي كُرِّسَ لها هيكل خربة الذريح ؟
- في أي فترة من السنة كانت تُقامُ الاحتفالاتُ الدينيةُ في المعبد ؟

في دراسة لهما قيد النشر، حاول فرنسوا فيلنوف وزيدون المحيسن (Villeneuve and al-Muheisen: In Press) الإجابةَ على هذين السؤالين، عن طريق استحضار بعض الشواهد، التي يقدمها في هذا الشأن موقعٌ مهم مجاور هو خربة التنور؛ فالموقعان معاً، أي خربتا الذريح والتنور، يقدمان شواهدَ متعددة، أيقونوغرافية بالأساس، على ارتباط الطقوس في الهيكلين إلى حد ما بالنجوم والكواكب. هذا ما تؤكده المكانة، التي احتلتها الأبراجُ الإثنا عشر في الذريح، كما في التنور. ومع أن القياس في هذه الحالة قد لا يخلو من مجازفة، إلا أنه بالإمكان الافتراض أن الآلهة، التي تَسَيَّدت هيكلَ خربة التنور (الزوج هدد/ عطرغتيس على الأرجح أو ذو الشرى/ العُزَّى ؟) هي نفسُها، التي كانت محطَّ عبادة وإجلال في هيكل خربة الذريح. وحسبنا أن الموقعَ الأخير قدم بعض الشواهد الأيقونوغرافية، التي قد ترجح هذه الفرضية؛ ونخص هنا بالذكر قرْنَيْ وفرة (horn of abundance = cornucopi-ae) ونحتاً يمثل رأسَ رجلٍ مُلتحٍ. وإذا كان من غير المشكوك فيه أن هذه القطع المنحوتة كانت تشكل جزءاً لا يتجزأ من منحوتات الواجهة، فإن مكانَها الأصليَّ في الجدار الجنوبي للمعبد يظل موضعَ تخمين.

هل يجوز أن نرى في رأس الرجل الملتحي ما يرمز إلى ذو الشرى، وفي قرنيْ الوفرة ما يحيل إلى إلهة خصب ونماء، من قبيل تايكي أو ربما العزى، التي أجلَّها الأنباطُ وعربُ الجاهلية أيما إجلال ؟ قد يبدو من الغريب أن تسودَ الطقوسُ ذاتُها والآلهةُ ذاتُها في هيكلين متجاورين، لا تفصل أحدَهما عن الآخر سوى بضعة كيلومترات! والغرابة لا تنتفي إلا إذا افترضنا أن الهيكلين متكاملان، وأنَّ زيارةَ أحدهما كانت تحدث في مواقيت غير المواقيت التي كانت تقع خلالها زيارة الآخر.

والملاحظة الأخيرة قد تؤكدها الوجهة، التي اتخذها كلُّ هيكل على حدة: نحو الغرب لهيكل التنور، وباتجاه الشمال فيما يخص هيكل الذريح. وربما دل ذلك على أن مواسمَ الحج إلى الهيكلين كانت مختلفة، إذ كانت تجري للتنور، على الأرجح، خلال فترتي اعتدال السنة (الاعتدال الربيعي أو الخريفي = equinoxes)، عند غروب الشمس أو شروقها، للذريح، على الأرجح، خلال شهر شباط، عندما كان شروق الشمس أو غروبها يشكل خطا متعامدا مع محور المعبد المتجه (شمال-جنوب) (Al-Muheisen and Villeneuve: In press).

إن ما يمكن قوله، أخيراً، هو أن هيكل خربة الذريح، مثله مثل هيكل خربة التنور، يقدم مجموعة من الشواهد المهمة، التي تلقي الضوءَ على ديانة الأنباط في هذا الجزء من مملكتهم. وعلى الرغم من أنه يصعب إدماج مجمل هذه الشواهد ضمن "الثقافة النبطية"، لأنها شواهد تفتقد إلى التجانس دينياً، وإن تجانست فنياً (جانيف: قيد الطبع)، إلا أن دراستَها بعمق وتأنٍّ ستسهم، دون شك، في فهمنا للثنائيات أو "الأضداد"، التي قد تبدو مميِّزَةً لديانة الأنباط.



أ. د. زيدون المحيسن - معهد الآثار والأنثروبولوجيا - ص. ب. ٥٦٦ جامعة اليرموك، إربد / الأردن.
E-mail: muheisenz@yahoo.fr

د. فرنسوا فيلنوف - مدرسة المعلمين العليا و المركز الوطني للبحث العلمي - وحدة آثار وعلوم العصور القديمة)
(Maison René Ginouvès 21, allée de l'Université F 92023 Nanterre Cedex, France
E-mail: francois.villeneuve@ens.fr

أ. مولاي محمد جانيف - جامعة باريس الأولى. 1, rue Maurice Arnoux C207 - 92120 Montrouge France
E-mail: archaeologia77@yahoo.com

الهوامش

(١) يرد في العديد من كتب التراث العربي ذكر مجموعة من الأماكن الواقعة جنوبي الأردن، مثل الحميمة وجبل الشراة، أي المنطقة التي استوطنها الأنباط قديما، ضمن منطقة البلقاء (انظر على سبيل المثال القضاعي ١٩٨٥: ٢/٣٣٩)، وهو ما يجعلنا نقبل بتحفظ رأيَ جون ستاركي (J. Starcky)، الذي حصر هذه المنطقة في بلاد مؤاب واعتبر أن الحـمَّة المذكورة في ابن الكلبي ربما كانت العينَ الحارَّة المعروفة باسم عين الزارة (Kallirohé) الواقعة جنوبي البحر الميت (Starcky 1966: col. 999).

(٢) ردت كلمة "موتاب" مرتبطةً في نقوش البتراء باسم ذو الشرى كما في نقش التركمانية (د و ش ر ا / إ ل هـ / م ر ن ا / و م و ت ب هـ / ح ر ي ش / ... د و ش ر ا / و م و ت ب هـ)، وهو ما دفع إلى الاعتقاد بأن (ذو الشرى) قد اختص وحده بالـ"موتاب"، انظر في هذا الإطار (Healey 2001: 158-159).

(٣) تطرح الكلمة الواردة في نص إبيفانيوس، كاسم للعذراء أم ذو الشرى، إشكالا على مستوى التفسير. فاللفظة (Xaaμov) تخفي وراءها، لا شك، أصلاً عربياً أو سامياً اختلف الباحثون في تحديد اشتقاقه ومعناه : هل له صلة بالكعبة أم بالمبنى المكعب على وجه الإطلاق؟ وفي هذه الحالة يمكن اعتبار اللفظة دالةً على مبنى ذي شكل مكعب (معبد قصر البنت في البتراء ؟) "جَسَّد" الإلهةَ الأم ودلَّ عليها، أم هي لفظة دالة على معنى البتولة، الذي تؤديه كلمة "كاعب" في العربية، وهي الكلمة التي ربما كانت أصلَ اللفظة الواردة في نص إبيفانيوس ؟ (انظر مناقشة المسألة في (Healey 2001: 104). ونميل إلى ترجيح الرأي الأخير على ما ذهب إليه (Milik 1982: 262) من أن (Xaaμov) المذكورة في هذا النص هي (غ ل م و) ذات الصلة بالكلمة الآرامية (عَلْمَه)، وهي المرأة في مقتبل الشباب. ومع أن اقتراح (Milik) يظل مقبولا على مستوى المعنى، إذ لا يخرج عن دلالات البتولة والشباب، التي تؤديها الكلمة الآرامية (عَلْمَه) ومقابلها في العربية (غُلامة)، إلا أنه يصادف مشاكلَ على المستوى اللفظي أو الصوتي ليس من السهل تجاوزُها، ذلك أن الكلمة المستخدمة من قبل إبيفانيوس لا تحمل أيَّ أثر لحرف اللام، الذي يشكل جزءاً أساسياً من جذر الكلمة (ع ل م / غ ل م)، عدا عن أن إبدالَ الغين كافاً في المقابل اليوناني يبدو ضعيفَ الاحتمال. كل ذلك يدعو إلى ترجيح كون (ك ع ب و / كاعب) أصلا للكلمة (Xaaμov)، إذ يسهل صوتيا قلبُ الباء ميما كما في بكّة / مكّة.

المراجع

أولا: المراجع العربية

الأنصاري، عبد الرحمن الطيب، وحسين بن علي أبو الحسن، ١٤٢٣ هـ/٢٠٠٢ م، **العلا ومدائن صالح (حضارة مدينتين). سلسلة قرى ظاهرة على طريق البخور (١)**، دار القوافل، الرياض.

جانيف، مولاي محمد، قيد الطبع، "توفيق، مثاقفة أم مماثلة: أجوبة من خربة الذريح"، **مؤتمر دراسات الأنباط الثاني** (تحرير خيريه عمرو وآخرون)، جامعة الحسين بن طلال / بيت الأنباط.

الكلبي، أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب، (المُتوفّى سنة ٢٠٤ هجرية)، ١٩٢٤، **كتاب الأصنام**، تحقيق أحمد زكي باشا، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة.

القضاعي، محمد بن أبي بكر (المتَوفّى سنة ٦٥٨ هجرية)، ١٩٨٥، **كتاب الحلّة السيراء**، القاهرة.

ثانيا: المراجع غير العربية

Dussaud, R. 1955. **La pénétration des Arabes en Syrie avant l'Islam,** Librairie orientaliste Paul Geuthner, Paris.

Healey, J. 1989. Were the Nabataens Arabs? **Aram** 1: 38-44.

Healey, J. 2001. **The Religion of the Nabataeans. A Conspectus,** Leiden, Brill.

al-Muheisen, Z. and Villeneuve. 1988. Fouilles à Khirbet edh-Dharih (Jordanie), 1984-1987 : un village, son sanctuaire et sa nécropole aux époques nabatéenne et romaine (Ier-IVe siècle apr. J.-C.). **Comptes Rendus de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres**: 458-479.

al-Muheisen, Z. and Villeneuve, F. 1994. Nouvelles recherches à Khirbet edh-Dharih (Jordanie), 1991-1994 : Autour du sanctuaire nabatéen et romain. **Comptes Rendus de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres:** 735-757.

al-Muheisen, Z. and Villeneuve, F. 1999. Khirbet edh-Dharih, **Dossiers d'Archéologie** 244: 54-59.

Lenoble, P., Al-Muheisen, Z. and Villeneuve, F. (with the collaboration of Ch. Augé, R. Boyer, A. Chambon, A. Desreumaux, F. Le Mort, al-Muheisen-Tarrier, D. and L. Nehmé). 2001. Fouilles de Khirbet edh-Dharih (Jordanie), I: Le cimetière au sud du Wadi Sharheh. **Syria** 78: 89-151.

McKenzie, J. S. 2001. Keys from Egypt and the East: Observations on Nabataean Culture in the Light of Recent Discoveries, **Bulletin of the American Schools of Oriental Research** 324: 97-112.

McKenzie, J. S., Gibson, S. and Reyes, A. T. 2002. Reconstruction of the Nabataean Temple Complex at Khirbet et-Tannur, **Palestine Exploration Quarterly** 134: 44-83.

Milik, J. T. 1982. Origines des Nabatéens. In A. Hadidi (ed.), **Studies in the History and Archaeology of Jordan I**: 261-265.

Ness, L. J. 1990. Astrology and Judaism in Late Antiquity. Unpublished Ph. D. Thesis, Faculty of Miami University.

Ross, S. K. 2001. **Roman Edessa. Politics and Culture on the Eastern Fringes of the Roman Empire, 114-242 CE,** Routledge, London & New York .

Restö, J. 1999. Nabataeans Origins - once again, **Proceedings of the Seminar for Arabian Studies** 29: 115-118.

Starcky, J. 1966. Pétra et la Nabatène. In: H. Cazelles and A. Feuillet (eds): **Dictionnaire de la Bible. Supplément 7**: cols 886-1017.

Tholbecq, L. 1998. The Nabataeo-Roman Site of Wadi Ramm (Iram): A New Appraisal, **Annual of the Department of Antiquities of Jordan** 42: 241-254.

Villeneuve, F. 2002. Une louve romaine à sabots chez les Nabatéens ? **L'archéologie à l'Ecole normale supérieure. Ouvrage dédié à Christian Peyre**: 93-94.

Villeneuve, F. and al-Muheisen, Z. 2000. Nouvelles recherches à Khirbet edh-Dharih (Jordanie du Sud, 1996-1999), **Comptes Rendus de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres:** 1525-1571.

Villeneuve, F. and al-Muheisen, Z. 2000/2001. Rites et mythes des Nabatéens. Le cas de Khirbet edh-Dharih. Cahier des thèmes transversaux, **Archéologies et Sciences de l'Atiquité II**: 279-281.

Villeneuve, F. and al-Muheisen, Z. In Press. Dharih and Tannur, Sanctuaries of Central Nabataea. In G. Markoe (ed.), **Splendors from a Caravan Kingdom. The Nabataeans and the City of Petra**.

Wellhausen, J. 1897. **Reste arabischen Heidentums gesammelt und erlautert.** Berlin, G. Reimer.

نقش غيل المِنْضِج (المبرح) الإسلامي المؤرخ في سنة ٩٨ هـ (٧١٦-٧١٧م) (محافظة ظهران الجنوب-المملكة العربية السعودية)

محمد بن عبد الرحمن الثنيان

ملخّص : يعنى هذا البحث بدراسة نقش إسلامي مؤرخ في سنة ٩٨ هجرية (٧١٦-٧١٧م) تم العثور عليه بالقرب من محطة غيل المنضج (المبرح)، في محافظة ظهران الجنوب، الواقعة على مسار طريق الحج اليمني الأعلى (النجدي) بين صنعاء و مكة المكرمة. تكمن أهمية هذا النقش المؤرخ لكونه أول نقش إسلامي مؤرخ يكشف عنه لحد الآن على مسار طريق الحاج اليمني الأعلى، هذا إلى جانب ما يحتويه نص النقش من مضامين مهمة تشتمل على تاريخ تنفيذه المبكر، والإشارة الصريحة إلى حرفة صاحب النقش. ووفقاً للخاصية الأخيرة فيعد هذا النقش فريداً في نوعه عند مقارنة نصه بنصوص النقوش والكتابات العربية الإسلامية المبكرة.

Abstract. *This paper studies an early Islamic rock-inscription, dated back to 98 A.H (716-717 A.D), found in the vicinity of Ghayl al-Mandaj (al-Mabrah) pilgrim station which is located on the Yemeni highland pilgrim route (so called al-najdi) which connects San'a' and Makkah. In addition to being the first dated rock-inscription to be discovered so far alongside that road, the text of the inscription provides valuable information such as the date of its early execution and the open declaration of the profession of its scribe. This last feature deems the inscription one of a kind when comparing its text with the texts of other early Arab Islamic rock-inscriptions.*

الموقع:

تبعد محافظة ظهران الجنوب عن مدينة أبها مسافة تقارب ١٦٠ كيلاً، ويرجع تأسيس مركز إمارة مدينة ظهران الجنوب إلى عام ١٢٤٥هـ /١٨٢٩م. تتصف المدينة بموقعها المتميز الكائن بين منطقة نجران، الواقعة إلى الجنوب الشرقي، ومحافظة سراة عبيدة وجازان في الجنوب الغربي. وتضم محافظة ظهران الجنوب العديد من الأودية الخصبة، منها: وادي ظهران، ووادي العرين، ووادي كتام، ووادي الغيل. (الحربي ١٩٩٧: ج٢/: ١٠٥٢) .

وصفت مدينة ظهران الجنوب في عام ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م بأهميتها لكونها محطة حيوية في التعامل التجاري بالبن اليمني، وكانت آنذاك: " (. . .) ، تتكون من بيوت صغيرة حسنة العمارة من الخارج وذلك بطرازها المعماري المتخذ شكل عمارة الحصون، أما في الداخل فهي مظلمة الدهاليز، (. . .) " (Philpy 1938: 1, 14).

يقطن مدينة ظهران الجنوب ومنطقتها وما يجاورها مُنذ القدم حتى وقتنا الراهن قبيلة همدانية تدعى وادعة، وهي بطن من بطون قبيلة حاشد[1] (الهمداني ١٩٣١: ج٨، ٣٥؛ ابن حجر ١٩٩٥: ج١، ٣٣٠) . تنتشر هذه القبيلة الآن في ثلاث جهات جغرافية، هي: وادعة حاشد في بلاد حاشد باليمن، ووادعة صعدة في بلاد صعدة في اليمن، ووادعة عسير في جنوب المملكة العربية السعودية (الحجري ١٩٨٤: ج٣ ص ٧٦١- ٦٢)، وقد أطلق الهمداني على الأخيرة مسمى وادعة النجدية، وحدد بلادها وأراضيها بقوله: "بلد وادعة النجدية:

العدد التاسع ذو الحجة ١٤٢٤هـ - يناير (كانون الثاني) ٢٠٠٤م
(ص ص ٥٩ - ٨٢) ردمد ٨٩٤٧-١٣١٩

بقعة وعوذان والثُويلة وغيل علّي، ووادي عرد وأعلى وادي نجران فإلى جبل شوك فقاضي دين فالزبران فإلى مَهْجَرة فالمَنْضَج فغيل عليّ فأقاويات فأرينب (فجلاجل). (الهمداني ١٩٧٤: ٢٥٠)

تبعد منطقة المَنْضَج (المبرح) ، حيث أكتشف هذا النقش المؤرخ، مسافة تقدر بحوالي ١ كم إلى الشمال من الخط المعبد (المسفلت) الذي يربط مدينة ظهران الجنوب بمحافظة سراة عبيدة؛ ويمكن الوصول إلى موقع النقش عن طريق مسلك ترابي، يمر عبر منطقة المحاجر، ويتفرع من هذا الطريق المعبّد قبل وصوله مدينة ظهران الجنوب، (الخريطة: ١).

يحد منطقة المبرح من الجنوب جبل القهرة الرابض على الضفة الغربية لوادي المبرح، وجبل أقاوية الواقع على الضفة الشرقية للوادي، وعقبة ووادي أقاوية. أما من الجهة الشرقية فيحدها بالتسلسل من الجنوب إلى الشمال، جبل أقاوية، ومن ثم سلسلة جبال المحجر المتصلة بسلسلة جبال الحرشة، ومن ثم سلسلة جبال بني نظار، ومن ثم جبل النظار. أما من الحدود الغربية فتشرف على امتداد الوادي منطقة المحاجر، وهي المنطقة التي تفصل ما بين المبرح والطريق العام الأسفلتي الذي يربط مدينة ظهران الجنوب بسراة عبيدة. وفي الأقصى الشمالي من الوادي، وعلى ضفته الغربية يقع جبل عثيث حيث يوجد في سفحه موقع غيل المبرح المكتظ بمجموعة من أشجار النخيل، بالإضافة إلى وجود الرسومات والكتابات الصخرية بما فيها هذا النقش العربي الإسلامي المؤرّخ.

هذا، وقد أمدنا كبار السن في منطقة ظهران الجنوب بمعلومات قيمة عن منطقة المبرح مفادها أن الوادي كان يحتوي قديماً على عين ماء دائمة النضوح، واستمرت على هذه الصفة حتى حفرت الآبار في الآونة الأخيرة مما تسبب في تراجع منسوب المياه في عين المبرح. واشتهرت المنطقة بعذوبة مياهها الجوفية، وخير شاهد هو كثرة أعداد الآبار الجوفية في المنطقة. كما أنها عرفت في الماضي مكاناً يقصده أهالي البادية، إلى جانب المقيمين حوله والمسافرين بقصد التزود بالمياه العذبة من الغيل لأنفسهم ولسقيا بهائمهم. وان الوادي كان بمثابة محطة استراحة للمسافرين عامة، والقادمين من بلاد اليمن ونجران على وجه الخصوص. أما سبب التسمية فيذكر كبار السن في المنطقة بأنه نتيجة أن الأراضي هناك واسعة وفسيحة والجبال تحيط بها من جميع الجهات؛ وهذا المفهوم لسبب التسمية، نرى تطابقه تماماً مع ما ذكره أصحاب المعاجم للمعنى اللغوي لكلمة المبرح.

شهدت محافظة ظهران الجنوب نشاطين من المسح الأثري قامت بهما وكالة الآثار والمتاحف بوزارة المعارف[٢] وكانتا منطقتي المنضج (المبرح) والمصلولة مضمنتا في النطاق الجغرافي للمسح الأثاري الأول (الناصر ١٩٨٨: ١٠٥-١٠٦). أما المسح الآثاري الثاني فتركز على توثيق الرسوم والنقوش الصخرية في المنطقة[٣] (كباوي ١٩٩٢: ٩٩-١٠٨؛ اسكوبيك ١٠٩-١٢٤)؛ وكان نصيب منطقة المنضج (المبرح) من النصوص الكوفية الموثقة في التقرير عشرة نقوش فقط، ويشير التقرير ذاته إلى خلو منطقة المنضج (المبرح) من الرسومات الآدمية والحيوانية والنقوش السبئية أو الثمودية، (الجدول: ١) .

أما دراستنا الميدانية الأخيرة لمنطقة المنضج (المبرح) ، التي تشكل جزءاً من دراسة آثارية شاملة لطريق الحج اليمني الأعلى من صنعاء إلى مكة المكرمة، فتشير إلى توثيق مجموعة من الرسومات الصخرية، الآدامية والحيوانية، والكتابات القديمة والنقوش العربية الإسلامية[٤] بما فيها هذا النقش المؤرخ في الطرف الشمالي من وادي المبرح (al-Thenayian 2000: 43, 54, 88-91, 196-208). وجميع هذه الآثار الخطية نفذت على صخور الجبل المطل على المبرح من الجهة الشرقية، وتقع في أسفل هذا الجبل شعاب صغيرة تلفها أشجار النخيل وآثار غير واضحة بالتمام لمنبع غيل المبرح. وأكدت الدراسة على أن هذه المنطقة وما اشتملت عليه من رسومات وآثار خطية وغيل وبقايا من مسار الدرب قد استخدمت محطة رئيسة على طريق الحج اليمني الأعلى. وما عدا موقع الغيل، فلم يلاحظ وجود آثار إنشائية قديمة في الموقع ترتبط مباشرة بأستخدامات الدرب، (الجدول: ٢).

المنضج (المبرح) وغيله في المصادر العربية المبكرة:

يعد غيل البردان وغيل وادي المنضج (المبرح) هما العينان المائيتان الوحيدتان اللتان كشف عنهما حتى الآن على القسم



الخريطة ١: توضح الموقع الجغرافي لنقش غيل المنضج (المبرح) المؤرخ.

السعودي من مسار طريق الحج اليمني الأعلى من صنعاء إلى مكة المكرمة[٥] (al-Thenayian 2000: 102-3; Biella 1982: 394).

والمبرح هو المسمى المعاصر الذي يطلق الآن على الموضع الجغرافي الذي كشف فيه عن هذا النقش بدلاً من مسمى المنضج ويبدو أن التسمية مشتقة من: " (. . .) براح الأرض، وهو البارز الظاهر"؛ "وأرض براح: واسعة ظاهرة لا نبات فيها ولا عمران. والبراح: المتسع من الأرض لا زرع فيه ولا شجر" (ابن منظور ١٩٩٥: ج٤ ص ٢٢٢) . ولجذر الكلمة: بَرَحَ (ب ر ح) ورود ودلالة في نصوص النقوش السبئية القديمة لعرب جنوب الجزيرة العربية بمعنى: "ماء سائب أو جار بلا ضابط (نعتاً لمسيل الماء) "(بيستون ١٩٨٢: ٣١) .

أما المصلولة (وهو الاسم الحالي لمسار درب الحج المرصوف بالحجارة وبديلاً عن مسمى المنضج التاريخي الذي اختفى نهائياً) فهو اسم وصفي للدرب الجبلي المرصوف بالحجارة، وهي كلمة شائعة الاستخدام بين سكان جنوب المملكة وجنوبها الغربي؛ كما أنهم، أيضا، يستخدمون كلمة المُدَّرَجة التي تعني الدرب الجبلي المرصوف بجانب كلمة

م	الموقع	رسوم	مسند جنوبي	ثمودي	كوفي	التاريخ
١	قهرة العتر (على درب الحج).	أدمية وحيوانية (جمال و٣ أشخاص).	٦٤ نصاً	–	٥٨ نصاً	الألف الأول ق.م- الفترة الإسلامية.
٢	الراكبة (على درب الحج).	نقوش أكثرها.	٤٠ نصاً	–	٥٦ نصاً	–
٣	السئويلة (على درب الحج).	نعام، وعول، وأبقار، وأسد، وذئاب.	–	–	–	–
٤	الحاجر (بالقرب من علب).	خيول ورسوم هندسية.	–	–	–	–
٥	المجمع (شمال ظهران الجنوب).	أدمية وحيوانية.	–	–	–	–
٦	حجر المدخن.	–	١٤ نصاً	–	–	–
٧	**المبرح (على درب الحج).**	–	–	–	**١٠ نصوص**	–
٨	الرواكب (على درب الحج).	–	–	–	٥ نصوص	–
٩	الهياج.	–	–	١٤ نصاً	–	–
المجموع	–	–	**١١٨ نصاً**	**١٤ نصاً**	**١٢٩ نصاً**	–

(المصدر: هذا الجدول المعلوماتي من تصميم الباحث).

الجدول ١: يوضح أهم المواقع الأثرية في محافظة ظهران الجنوب التي تم مسحها وتوثيق نقوشها ورسومها الصخرية وفقاً لتقرير وكالة الآثار والمتاحف.

اسم العقبة	الحالة الإنشائية لمسار الدرب						النقوش الصخرية		الرسوم الصخرية		طبيعة مسار الدرب
	رصف	تسوية	مفرد	مزدوج	تكتيف	تعتيب	قديم	إسلامي	آدمي	حيواني	
الجدلية	+	+	+	−	+	−	−	−	+	−	سيئة
كريف العلب	+	+	+	+	+	+	−	−	−	−	جيدة
العرقة	+	+	+	−	+	+	+	+	−	−	جيدة
محذا النعال	+	+	+	−	+	+	+	−	−	−	جيدة
المنضج	+	+	+	+	+	+	−	+	+	+	**ممتازة**
أقاوية	−	+	+	−	+	−	−	+	+	−	سيئة
المبرح	−	+	+	−	−	−	+	+	+	+	**سيئة**

+: هذه العلامة تدل على الإيجاب، -: هذه العلامة تدل على النفي. (المصدر: هذا الجدول المعلوماتي من تصميم الباحث).

الجدول ٢: يوضح صفة الحالة الإنشائية لمسار درب الحج اليمني والآثار الخطية والرسومات الصخرية الواقعة عليه أثناء اجتيازه لبعض العقبات الجبلية الواقعة في محافظة ظهران الجنوب، وفقاً لدراسة الباحث:

المصلولة[٦] (ابن منظور: ج٢، ٢٦٦-٢٦٧) . ويبدو أن جذر الكلمة: صَلَلَ (ص ل ل) مشتق من اللغة السبئية القديمة لعرب جنوب الجزيرة العربية الذي يعني: " كساء أو غطاء بصفائح من الحجر أو الطين "(بيستون ١٩٨٢: ١٤٢) . كما أنها وردت بصيغة فعل بمعنى يغطي بصفائح حجرية أو بالجبس (الجص) أو بالطين (Biella 1982: 424-425).

يعد أحمد بن عيسى الرداعي من أقدم من ذكر غيل المنضج ومنطقة المبرح وأشار إلى وقوعهما على مسار طريق الحج اليمني الأعلى خلال رحلة ذهابه وإيابه من مسقط رأسه مدينة رَدَاع في اليمن إلى مكة المكرمة لتأدية فريضة الحج (الهمداني: ٤٠١-٤٥٨؛ الحموي: ج٣، ٣٩-٤٠)[٧]، (الجدول: ٣).

وفي هذا الشأن يقول الرداعي في أرجوزته المشهورة عند ذهابه لمكة المكرمة ومروره من خلال منطقة الغيل:

" ثم اندَهُوا خُوصَ المطايا الوُسّج ××× إن مُضحّاها بغيل المَنْضَج "

و علّق الهمداني (وفاته تقريباً بعد: ٣٤٤هـ/٩٥٥م) على هذا البيت بقوله: " غَيْلُ المَنْضَج غيل علَيّ من وادعة والمنضج نقيل عظيم "[٨] . أما عند عودة الرداعي من مكة المكرمة وخلال عبوره المنطقة، ذكر التالي (مخاطباً مطيته المهرية) :

"تجشم من أُرَيْنب المجشوما ××× ومن ذوات المبرح الحُزوما " (الهمداني: ٤٥٥؛ بيستون: ٩٧) .

ضمّن الحربي (وفاته: ٢٨٥هـ/٨٩٨م) ، وقدامة (٣١٠-٣٢٠هـ/٩٢٢-٩٣٢م) مسمى المنضج في أعمالهما، إلا أن تهجئة الاسم ترد بصورة محرفة وغير صحيحة، فظهرت في العمل المنشور للجغرافي الأول وفقاً لهذا الرسم (غيل المنضح) وفي مخطوطة الكتاب ظهرت باسم (المنصح)؛ أما قدامة فأوردها بالصورة التالية: (النصح) وبدون إشارة للغيل أو مسماه (الحربي ١٩٦٩: ٦٤٣، هامش ١٢-١٣؛ قدامة ١٩٦٧: ١٩٢) . وفيما عدا ما ذكرنا من أقوال وأستشهادات مستقاة من أرجوزة الرداعي وكتابات الهمداني، والحربي، وقدامة، فأن أعمال بقية الجغرافيين العرب المسلمين الأوائل تخلو من ذكر المنضج أو المبرح أو الغيل بكونها محطة على درب الحج اليمني الأعلى، وبدلاً منها فقد حل مسمى محطة المَهْجَرة، التي لا يعرف إلى الآن موقعها الجغرافي بالتحديد[٩] (الجدول: ٤) (الهمداني: ٩٩) .

تاريخياً، يشير الهمداني إلى أن منطقة المنضج كانت



اللوحة ١: المنطقة التي عثر فيها على النقش بالمصلولة في ظهران الجنوب.



اللوحة ٢: جانب من مسار طريق الحج اليمني الأعلى (النجدي) في منطقة المصلولة ، ظهران الجنوب.

تمثل، في العصور القديمة التي سبقت ظهور الإسلام، البوابة الرئيسة التي يتمركز عندها حُجاب ملوك حمير، وأنها تقع على مسافة مرحلتين من صعدة في اتجاه الحجاز (الهمداني ١٩٨٦ ج ٨: ٣٤-٣٥).

أما في الفترة الإسلامية فشهدت منطقة المنضج (المبرح) في عام ١٤٢هـ/٧٦٠م وخلال العصر العباسي الأول، صداماً عسكرياً بين الوالي العباسي على اليمن معن بن زائدة الشيباني (المُعين من قبل الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور، ١٣٦-١٥٨هـ/٧٥٣-٧٧٥م) وعمر بن زيد الغالبي. وكان من نتائج هذا الصدام العسكري قتل الغالبي وقيام الزعيم الخولاني محمد بن أبان برفض ولاية معن بن زائدة على اليمن ومحاربته في نواحي مدينة صعدة للأخذ بالثأر من قتل الغالبي[١٠] (الهمداني ١٩٨٦ ج ٢: ١٤٠ هامش ٥١٥؛ al-Mad'aj 1988: 181, 184, 199).

يظهر من نتائج مسحنا الميداني الآثاري في عام ١٩٩٠م لهذه المنطقة بان مسمى المنضج، وهو الاسم القديم والتاريخي لهذه المنطقة قد تلاشى تماماً واختفى واستبدل المسمى باسم المصلولة الذي يطلق الآن على عقبة المنضج التاريخية ومنطقتها ومسار الدرب من خلالها، من قبل السكان المحليين في منطقة ظهران الجنوب، أما مسمى المبرح فلا يزال معروفاً ومتداولاً إلا أن محيطه الجغرافي قد تقلص ليشمل الوادي فقط حيث وجد هذا النقش المؤرخ (al-Thenayian 2000: 88-91, 196-206).

نقش غيل المنضج (المبرح) المؤرخ:

يعد طريق الحج اليمني الأعلى، المعروف في المصادر المتقدمة باسم النجدي، من صنعاء إلى مكة المكرمة من أهم دروب الحج اليمنية الواقعة في القطاع الجنوبي للجزيرة العربية؛ ويشكل جزءاً لا يتجزأ من ضمن منظومة مترابطة من الدروب البرية القديمة التي ربطت عواصم وأمصار العالم الإسلامي وحواضره آنذاك بعضها ببعض، ويسرت وسهلت وصول الحجاج والمعتمرين من هذه البقاع المترامية الأطراف للأماكن المقدسة (اللوحتان ١-٢). وتأتي الآثار الخطية الإسلامية في مستهل قائمة الآثار الإسلامية الشاخصة للعيان على امتداد مسار طريق الحج اليمني الأعلى؛ إذ تم الكشف عنها في مواقع على الدرب متباينة التضاريس، من هذه المواضع: بطون وضفاف الأودية، وصفحات وعقبات الجبال، وفي محيط المناهل المائية والمنازل ومحطات الطريق الرئيس منها والثانوي. وتشير الدراسات والأعمال الآثارية المتعلقة بهذا الطريق إلى عدم العثور على نقوش صخرية إسلامية تتضمن نصوصها تواريخ مثبتة ومحددة. وبذلك تكمن أهمية نقش المنضج (المبرح) في المقام الأول بأنه أول أثر خطي إسلامي مؤرخ يكشف عنه على مسار طريق الحج اليمني من صنعاء إلى مكة المكرمة؛ كما تكمن أهميته بوقوع تأريخه في نهاية العقد الأخير من القرن الأول الهجري. وعليه، يمكن إضافته إلى قائمة النقوش الإسلامية المؤرخة المكتشفة على أراضي المملكة العربية السعودية والعائدة للقرن

م	الموقع	رسوم	مسند جنوبي
١	الثويلة	سجع	عقبة.
٢	مسجد خالد	-	تحت الثويلة عليه حواء بلا سقف.
٣	محذا النعال	-	موضع لبني حيف من وادعة.
٤	ثائبة	-	موضع لبني حيف من وادعة.
٥	معرضين	-	موضع في بلد وادعة.
٦	**مهجرة**	-	**قرية في المنضح.**
٧	**غيل المنضح**	**المبرح**	**غيلَ عَليٍّ من وادعة. المنضح نقيل عظيم.**
٨	**الظليف**	-	**جبل في رأس المنضح.**
٩	شتات	أينب	موضع في بلد وادعة من همدان وهي من أحواز أرينب.
١٠	رية	-	موضع في بلد وادعة من همدان وهي من أحواز أرينب.
١١	ثلات	-	موضع في بلد وادعة من همدان وهي من أحواز أرينب.
١٢	الطلاح	الطلحة	موضع طلحة الملك في بلد وادعة من همدان وهي من أحواز أرينب.
١٣	جلاجل	سروم (الفيض)	واد ضيق، وهو آخر بلد وادعة.

-: هذه العلامة تدل على عدم وجود اسم الموقع في رحلة الإياب. (المصدر: هذا الجدول المعلوماتي من تصميم الباحث).

الجدول ٣: يوضح أسماء المحطات والمنازل والمناهل والمواضع الواقعة على مسار درب الحج اليمني الأعلى (النجدي) عند اجتيازه محافظة ظهران الجنوب، وفقاً لأرجوزة أحمد بن عيسى الرداعي خلال رحلة ذهابه لمكة المكرمة وإيابه منها بقصد تأدية فريضة الحج في القرن الثالث الهجري/ القرن التاسع الميلادي.

م	الحربي (٢٨٥هـ)	ابن خرداذبة (٣٠٠هـ)	قدامة (٣١٠ - ٣٢٠هـ)	قدامة	الهمداني (٣٣٤هـ)	المقدسي (٣٩٠هـ)	الإدريسي (٥٤٨هـ)	الإدريسي
١	عمدان	-	-	-	-	-	-	-
٢	مهجره	+	-	+	+	+	+	+
٣	غيل المنضح	-	(النصح)	-	-	-	-	-
٤	أُرينب	-	-	-	-	-	-	-
٥	سروم الإبل	سروم راح	القصبة	شروم راح	سروم الفيض	شرو راح	سدوم راح	سروم راح
٦	جلاجل الجُميلين	-	-	-	-	-	-	-

+: هذه العلامة تدل على ورود اسم الموقع كما عند الحربي، -: هذه العلامة تدل على عدم ورود اسم الموقع كما عند الحربي.
(المصدر: هذا الجدول المعلوماتي من تصميم الباحث).

الجدول ٤: يوضح أسماء بعض المحطات والمنازل الواقعة على مسار درب الحج اليمني الأعلى (النجدي) عند اجتيازه محافظة ظهران الجنوب، وفقاً لكتابات أشهر الجغرافيين العرب المسلمين الأوائل.

الأول الهجري/ السابع الميلادي. وتشتمل هذه القائمة، لغاية الآن، على تسعة عشر نقشاً مؤرخاً أبكرها نقش زهير مولى بنت شيبة المؤرخ في سنة ٢٤ للهجرة (٦٤٤م) وأخرها نقش أبو سلمة بن عبد الله بن عبد الله بن عمر المؤرخ في سنة ١٠٠ للهجرة (٧١٨-٧١٩م)[١١] (الجدولان: ٥ -٦) .

تغطي هذه النقوش المؤرخة جميع عقود القرن الأول الهجري ما عدا العقد الأول والثاني والسابع إذ لم يكشف عن أي أنموذج يمثل هذه العقود الثلاثة من القرن الأول الهجري؛ وتتمثل نقوش العقدين التاسع والعاشر (ستة نقوش لكل عقد) بتزايدها مقارنة مع نقوش العقود السابقة لها في القرن نفسه. تعكس لنا النقوش الستة المؤرخة للعقد العاشر من القرن الأول الهجري، إذ يمثل غرة هذا العقد نقش الخشنة المؤرخ في سنة ٩٠ للهجرة (٧٠٨-٧٠٩م) بينما خاتمة العقد فيمثله نقش رواوة المؤرخ في سنة ١٠٠ للهجرة (٧١٨-٧١٩م) ، ويقع ما بين نقشي بداية ونهاية العقد أربعة نقوش مؤرخة؛ فأولها نقش الأوجرية المؤرخ في سنة ٩١ للهجرة (٧٠٩-٧١٠م) ، أما النماذج الكتابية الثلاثة الباقية فتمثلها نقش الحُرُمان ونقش العسيلة بمنطقة مكة المكرمة ونقش غيل المنضج (المبرح) في منطقة ظهران الجنوب، وجميعها متزامنة بفترتها التاريخية ومؤرخة في سنة ٩٨ للهجرة (٧١٦-٧١٧م). فالنقش الأول عثر عليه في موقع الحُرُمان ويتضمن نصه بيت من الشعر الحِكَمِي واسم كاتبه (أبو جعفر بن حسن الهاشمي) وتاريخ تنفيذ الكتابة، أما النقش الثاني فعثر عليه في موقع العُسيلة ويشتمل على نص مستوحى من الآية رقم: ٣ من سورة الطلاق، واسم كاتبه (أمية بن عبد الملك). (الراشد ١٩٩٥: ٦٠-٦٦؛١٦٣١٦٢؛ الراشد ١٤٢٣: ٢٦٥-٢٧٠) .

وبذلك يتضح لنا بأن نقش غيل المنضج (المبرح) يمثل النموذج السادس للنقوش الإسلامية المؤرخة والعائدة جميعها للعقد العاشر من القرن الأول الهجري، وبنفس الوقت يعد المثال الثالث بالنسبة للنقوش المؤرخة والعائد تنفيذها جميعاً لسنة ٩٨ هجرية (٧١٦-٧١٧م) ، (الجدولان: ٥-٦) .

ولنقش غيل المنضج (المبرح) المؤرخ أهمية بالغة، أيضا، لارتباطه المكاني الوثيق بمحطة غيل المنضج (المبرح) ، وهي من المحطات الرئيسه الواقعة على درب الحاج اليمني. وتزداد هذه الأهمية بسبب تضمين صاحب النقش في نهاية اسمه مسمى حرفته وقيامه بتأريخ كتابته للنص بصيغة دقيقة ربما تعتبر فريدة بنوعها. وفي ضوء هذه المعطيات التاريخية والحضارية فدراسة هذا النقش ستكون خير عون في عملية وضع التأطير التاريخي لمراحل استخدامات طريق الحج اليمني الأعلى، بسبب غياب التدوين التاريخي الموسع - حسب علمنا الحالي- لحالة الدرب واستخداماته خلال العصور والفترات الإسلامية المبكر منها والمتأخر. كما أن هذه الدراسة ستمثل قاعدة ومرجعاً للاستئناس بنتائجها عند التعرض للنقوش الصخرية الإسلامية الأخرى غير المؤرخة، وسبيلاً ربما سيهتدى بها لبقية الآثار الإسلامية الواقعة على ضفتي مسار هذا الطريق.

الدراسة التحليلية للنقش

و فيما يلي الدراسة التحليلية لنقش غيل المنضج (المبرح) المؤرّخ (اللوحة ٣، الشكل ١):

معلومات أولية:

الموقع والمنطقة: غيل المبرح (المنضج) ، (ظهران الجنوب).

المقاسات التقريبية: ٥٥ سم طولا ×٤٥ سم عرضا.

خط الطول ودائرة العرض: ً٤٥ ً٤٣ -َ٣٠ ً٤٣ شرقاً / َ٤٥ ً١٧ -َ٣٠ ً١٧ شمالاً.

نوع الخط: كوفي بسيط.

عدد الأسطر: ١٠ أسطر.

نوع الصخر: جرانيتي يميل للاحمرار.

موضوع النقش: طلب الرحمة من الله، وتوقيع الصانع.

صاحب النقش: ثابت بن أبي تميم.

تاريخ النقش: يوم السبت ١٠ جمادى الآخرة سنة ٩٨ هجرية (٧١٦-٧١٧م).

قراءة نص النقش:

١ . رحمـ(ـت ا) لله

٢ . على ثبت (ثابت) ابن (كذا) أ

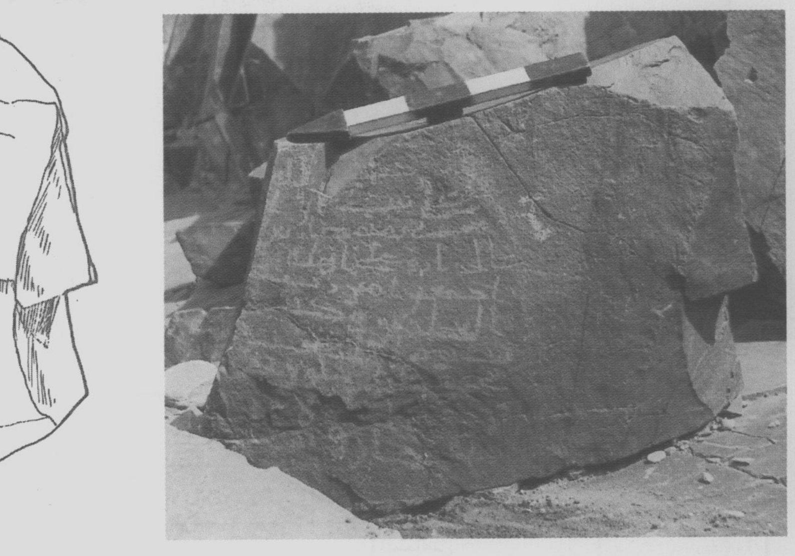
٣ . بي تميم صانع

٤ . الجرار وعلى أهله

٥ . أجمعين أمين رب

٦ . العلمين (العالمين) وكتب





اللوحة ٣: صورة ضوئية (فوتوغرافية) لنقش غيل المنضج



الشكل ١: تفريغ النقش في لوحة ١.

٧ . ثبت (ثابت) يوم السبت

٨ . في عشر ليل (ليالٍ) خلون من

٩ . من (كذا مكررة) جمدى (جمادى) الأخرة

١٠ . سنة ثمان وتسعين

التحليل العام للنقش:

تم تنفيذ النص على مساحة صخرية غير مستوية السطح وشبه مستطيلة الشكل للجانب الغربي من كتلة صخرية جرانيتية التكوين يميل لونها إلى الاحمرار ومنفلقة من الصخر الجبلي المحاذي لها. إلى جانب وجود هذا النقش المؤرخ، يوجد - أيضا - على الواجهة الشمالية لنفس الكتلة الصخرية نقش إسلامي آخر غير مؤرخ سبق التعرض له بالدراسة التفصيلية، (al-Thenayian 2000: 207-208).

نفذ النص الكتابي، المتضمن عشرة أسطر، بالخط الكوفي البسيط بواسطة الحز الغائر للسطح الصخري. تخلو جميع حروف كلمات هذا النص من عملية التنقيط أو التنميق الخطي. ومن الملاحظ، بشكل عام، على الأسطر الكتابية للنص أنها تخلو من التناسب المتوازن في عدد الكلمات فيما بينها، ويتضح ذلك عند مقارنة عدد كلمات السطر الأول (كلمتان فقط) مع عدد الكلمات في السطر الثامن (خمس كلمات فقط)، إلا أن المعدل العام في عدد الكلمات لنص السطر الواحد هو ثلاث كلمات في كل منها. وتظهر بعض السمات الكتابية في رسم وصياغة حروف الكلمات التي تستحق الإشارة إليها، منها: لحوق الشكل الخطافي بقاعدة حرف الألف المنفردة عند مجيئها في بداية ووسط الكلمة (الجرار: ٤، أهله: ٤، أجمعين: ٥)؛ إغفال قفل الطرف النهائي لحرفي الباء والتاء النهائيتين (ثابت: ٢، ٧، رب: ٥، كتب: ٦، السبت: ٧)؛ ظهور حروف الجيم والحاء والخاء في بداية الكلمة بالشكل المُثلث (الجرار: ٤، اجمعين: ٥، رحمت: ١، خلون: ٨)؛ وورود حرف العين مفتوحة القمعة (القنطرة) عند مجيئها في وسط ونهاية الكلمة (اجمعين: ٥، العالمين: ٦، تسعين: ١٠، صانع: ٣)؛ إحكام وكمال إستدارة محيط حرف الميم المبتدئة (أمين: ٥) والوسطى (العالمين: ٦) والنهائية وقصر ذيلها (تميم: ٣، يوم: ٧)؛ نزول جسم حرف النون النهائية تحت السمت الوهمي للسطر الكتابي وعدم إقفال طرفه النهائي (ابن: ٢، اجمعين: ٥، أمين: ٥، العالمين: ٦، ثمان: ١٠)؛ الرجوع العكسي لذيل الياء النهائية (على: ٢، أبي: ٢-٣، وعلى: ٤، جمادى: ٩). وهذه السمات الخطية تحمل في طياتها جانباً من التزاوج الحضاري بين القلم العربي الإسلامي والقلم النبطي القديم وتمكن الخطاط المسلم من تقعيد الخط الأخير ليكون في خدمته.

يعتبر النص الكتابي للنقش مكتمل اللفظ والمعنى ومقروء بأكمله، ويخلو من الأخطاء الإملائية واللغوية ما عدا وجود حرف الألف الزائدة قبل لفظة البنوة (ابن: ٢) ، وتكرار كلمة "من "(سطر رقم: ٩) . أما الحالة العامة الطبيعية للنقش فلا بأس بها ما عدا وجود كسر صخري عميق واقع في منتصف السطر الأول، الذي يبدو لنا بأنه قريب الحدوث، وأدى هذا الكسر إلى إخفاء وذهاب حرفين هما: حرف التاء النهائية المبسوطة من كلمة رحمت (رحمة: ١) وحرف الألف في بداية كلمة (الله: ١) .إلى جانب وجود بعض النتوءات والتجاويف الصخرية الطبيعية التي تتخلل صفحة المساحة الصخرية المنفذ عليها نصوص الأسطر الثلاثة الأخيرة من النقش (رقم: ٨-١٠) .

الرقم	التاريخ	صاحب النقش	الموقع	المنطقة	النشر
١	٢٤ هـ	زهير مولى بنت شيبة	قاع المعتدل، بالقرب من الحجر	العلا - درب الحج	لم ينشر
			(مدائن صالح).	الشامي	
٢	٤٠ هـ	خالد بن العاص	الباثة، درب زبيدة	مكة المكرمة	منشور
٣	٤٦ هـ	عبدالله بن ديرام	وادي سبيل	نجران	منشور
٤	٥٦ هـ	جهم بن عل بن هبيرة	الخشة - درب زبيدة	مكة المكرمة	منشور
٥	٥٧ هـ	"غير معروف"	الخشنة - درب زبية	مكة المكرمة	لمن ينشر
٦	٥٨ هـ	معاوية بن أبي سفيان	سد سيسد	الطائف	منشور
٧	٧٦ هـ	رباح بن حفص بن عاصم بن عمر	رواوة	المدينة المنورة	منشور
		بن الخطاب			
٨	٨٠ هـ	عثمان بن وهران	العسيلة	مكة المكرمة	منشور
٩	٨٠ هـ	عثمان بن وهران	العسيلة	مكة المكرمة	منشور
١٠	٨٠ هـ	ميمون مولى أبو مريم مولى رباح	الأسعد - درب الحج الشامي	شمال غرب المملكة	منشور
١١	٨٣ هـ	عفير بن المضارب	الأقرع - درب الحج الشامي	شمال غرب المملكة	منشور
١٢	٨٤ هـ	عبدالله بن عمارة	الحرمان	مكة المكرمة	منشور
١٣	٨٤ هـ	حكيم بن عمارة	الحرمان	مكة المكرمة	منشور
١٤	٩٠ هـ	"غير معروف"	الخشنة - درب زبيدة	مكة المكرمة	لم ينشر
١٥	٩١ هـ	مخلد بن أبي مخلد مولى علي بن	الأوجرية - درب الحج الشامي	شمال غرب المملكة	منشور
		أبي طالب			
١٦	٩٨ هـ	أبو جعفر بن حسن الهاشمي	الحرمان	مكة المكرمة	منشور
١٧	٩٨ هـ	أمية بن عبدالملك	العسيلة	مكة المكرمة	منشور
١٨	**٩٨ هـ**	**ثابت بن أبي تميم**	**غيل المنضج (المبرح): درب الحج**	**عسير (محافظة**	**موضوع هذا**
			اليمني الأعلى.	**ظهران الجنوب)**	**البحث**
١٩	١٠٠ هـ	أبو سلمة بن عبدالله بن عبدالله	رواوة	المدينة المنورة	منشور
		بن عمر			

(المصدر: هذا الجدول المعلوماتي من تصميم الباحث).

جدول رقم (٥): يتضمن النقوش الإسلامية المؤرخة المكتشفة على أراضي المملكة العربية السعودية والعائدة للقرن الأول الهجري/ السابع الميلادي:



م	المنطقة	العقد الثالث	العقد الرابع	العقد الخامس	العقد السادس	العقد السابع	العقد الثامن	العقد التاسع	العقد العاشر	مجموع النقوش
١	مكة المكرمة	–	٤٠ هـ	–	–	–	–	٨٠ هـ، ٨٠ هـ، ٨٤ هـ، ٨٤ هـ.	٩٠ هـ، ٩٨ هـ، ٩٨ هـ.	١٠
٢	شمال غرب المملكة	٢٤ هـ	٢٤هـ	–	–	–	–	٨٠ هـ، ٨٣ هـ.	٩١هـ	٤
٣	المدينة المنورة	–	–	–	–	–	٧٦ هـ	–	١٠٠ هـ	٢
٤	الطائف	–	–	–	٥٨ هـ	–	–	–	–	١
٥	ظهـــــــران الجنوب	–	–	–	–	–	–	–	٩٨ هـ	١
٦	نجران	–	–	٤٦ هـ	–	–	–	–	–	١
مجموع نقوش العقد		١	١	١	١	–	١	٦	٦	١٩

(المصدر: هذا الجدول المعلوماتي من تصميم الباحث).

الجدول ٦: يوضح توزيع النقوش المؤرخة في مناطق المملكة العربية السعودية وفقاً لعقود القرن الأول الهجري/السابع الميلادي:

أولاً: النص الدعائي:

يفتتح صاحب النقش نصه بصيغة دينية دعائية شائعة الاستخدام في النقوش العربية الإسلامية الصخرية إذ يطلب من خلالها الرحمة من الله سبحانه وتعالى، يتبع ذلك اسم صاحب النقش وتعريفاً بصنعته، ومن ثم يستكمل صاحب النقش دعاءه بطلب شمولية الرحمة من الله سبحانه وتعالى وإسباغها على أهله أجمعين، ويختتم الدعاء بالتأمين لقبول واستجابة هذا الدعاء من رب العالمين. وفي نهاية النص، يثبت صاحب النقش بأنه هو الكاتب للنص، يتبعه بتاريخ مفصل لزمن تنفيذ نص النقش.

وبذلك يعد هذا النقش فريداً في مضمونه، مقارنة بالنقوش الصخرية الإسلامية المؤرخة التي كشف عنها حتى الآن على أراضي المملكة العربية السعودية، إذ إنه يبرز لنا بجلاء تام عن أقدم نموذج مؤرخ مشتمل على توقيع الصانع واسمه.

١. **"رحمت الله على (. . .)": (السطر رقم: ١-٢)** :

مصطلح ديني يتكرر مراراً في نصوص النقوش والكتابات التذكارية الصخرية، بشكل فردي أو بشكل مركب مع مصطلحات دينية أخرى، كما يرد بصيغ أخرى مختلفة، مثل: "رحم الله فلان" أو "يرحم الله فلان" أو "ترحم الله على فلان". وقياساً بالفراغ الناتج عن عملية كسر الصخر الواقع مباشرة بعد الكلمة الأولى بالسطر الأول فمن شبه المؤكد أن هذه الكلمة تنتهي بتاء مفتوحة وليست منتهية بتاء مربوطة "رحمت، لا: رحمة "، لذا فتحت التاء النهائية حيث يجب الربط؛ وهي ظاهرة كتابية بارزة تتكرر كثيراً في نصوص النقوش والكتابات الصخرية الإسلامية المبكرة والوسيطة. ومن الثابت، علمياً، أن هذه الظاهرة الخطية تعد سمة من سمات الخط النبطي وبالتالي فهي من تأثيرات الكتابة النبطية القديمة، ولهذه الظاهرة وجود ملحوظ في رسم كلمات محددة في بعض الآيات القرآنية الكريمة. وبمقارنة منهجية كاتب هذا النص، في تنفيذ التاء الأخيرة من الكلمة، فإننا نلحظ قيامه بتثبيت التاء المربوطة في كلمة "سنة "(السطر رقم: ١٠) بدلاً من جعلها مبسوطة.

٢. **"(. . .) وعلى أهله أجمعين (. . .)": (السطر رقم: ٤-٦)** :

يكاد يكون في حكم المؤكد أن صاحب هذا النقش حينما قام بصياغة هذا الدعاء الاستهلالي المتضمن طلب الرحمة من الله تعالى وإسباغها عليه وعلى جميع أهله فأنه، بلا شك، كان يتبع في ذلك هدي الآيات القرآنية التالية ويستمد تراكيب دعائه من وحيها الرباني؛ وهذه الآيات الكريمات، على سبيل المثال لا الحصر، هي:

قال الله تعالى في محكم كتابه:

أ. "(فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴿٨٤﴾) (الأنبياء: ٨٤).

ب. (وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾) (ص: ٤٣).

ج. (فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾) (الشعراء: ١٧٠).

د. (إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾) (الصافات: ١٣٤).

أما ما يتصل بكلمة "أهل"، الواردة في النص، فتعني لغوياً: أهل الرجل، وهم عشيرته وذووه، وأهل الدار؛ ولنفس الكلمة "أهل" معان عديدة أخرى تخضع عادة لموقع الكلمة وسياقها في الجملة ومدى ارتباطها المعنوي بما يسبقها أو يلحقها من ألفاظ، ولذا نجد أنها وردت بصيغ مختلفة لمعان متباينة، ومنها: أهل القرآن، وأهل مكة، وأهل الله، وأهل بيت الله، وأهل المذهب، وأهل الإسلام، وأهل بيت النبي (صلى الله عليه وسلم)، وأهل الأمر، وأهل البيت، وأهل الرجل، وغيرها من أوجه الاستخدام[١٢]. (ابن منظور ج٢٨: ١١-٢٩؛ حميدالله ١٩٨٧: ٥٨٣).

ويختم صاحب النقش (النقاش)، ثابت بن أبي تميم، نص دعائه بالقول:

٣. "(. . .) أمين رب العالمين (. . .)": (السطر رقم: ٥-٦):

التأمين كلمة تقال في أثر الدعاء، كذلك يستحب لمن يقرأ أمّ الكتاب (سورة الفاتحة) أن يقول في نهايتها وبعد الفراغ من قرأتها: "آمين". والتأمين، (وهو قول: آمين/ أمين) يعني: "اللهم استجب ليّ"، وتعني أيضاً: "يكون" (المباركفوري ٢٠٠٠: ٢٧). وورد بأن العرب تقول أمين بقصر الألف، وآمين بالمد، والمد أكثر. (ابن منظور: ج ١٣: ٢٦-٢٧).

والرب هو الله المالك المتصرف، ولا يقال إلا لله عز وجل، ويستثنى من ذلك عندما تلحق إضافة بكلمة الرب، مثل: رب الدار، وهكذا، والعالمين جمع عالم وهو كل موجود سوى الله عز وجل، وورد في تعريف العالم: "كل ماله روح ترفرف، وكل ما خلق الله في الدنيا والآخرة "(المباركفوري ٢٠٠٠: ٢٣). **هذا وورد في القرآن الكريم (قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾) (الشعراء: ٢٣-٢٤). ولهذا النص الدعائي "آمين رب العالمين "وجود في العديد من الصيغ النصية للنقوش الصخرية الإسلامية المبكرة (Grohmann 1962: 31-32, z. 23, 34-35).**

ثانياً: شخصية صاحب النقش:

١. " ثابت بن أبي تميم ": (السطر رقم: ٢-٣):

يظهر الاسم الأول من شخصية النقش على أنه "ثابت"، ويلاحظ في رسم الاسم إهمال ألف المد النهائية، هكذا: "ثبت". وتتكرر هذه الظاهرة الكتابية في نص هذا النقش المتمثلة في حذف ألف المد في كل من الكلمات التالية: العلمين = العالمين (السطر رقم: ٦)، وليل = ليال (السطر رقم: ٨)، وجمدى = جمادى (السطر رقم: ٩)؛ وهي سمة خطية تعد من سمات الكتابات النبطية القديمة الشائعة ووجدت طريقها للخط العربي وذلك في ظهورها في بعض كلمات الآيات القرآنية الكريمة والنقوش الكتابية الإسلامية المبكرة[١٣] (المنجد ١٩٧٩: ٢٠-٢١، ٤٠-٤١، ١٠١-١٠٢؛ شرف الدين ١٩٧٧: ٧٣-٧٤، لوحات: ٤٩-٥٠). وخلافاً لهذا الحذف، فأن النقاش قام بتثبيت ألف المد الوسطى في كلمات معينة أخرى في النص، منها: "صانع" (السطر رقم: ٣)، و"الجرار" (السطر رقم: ٤)، و"ثمان" (السطر رقم: ١٠).

٢. (ابن):

تتبع لفظة البنوة الاسم الأول من شخصية صاحب النقش، ويلاحظ أنها مسبوقة بألف مع العلم بأنها تقع بين علمين ولم تقع في بداية السطر. والقاعدة اللغوية والإملائية تشير إلى حذفها لتصبح (بن) لعدم وقوعها في بداية السطر، وبذلك يصبح اسم شخصية النقش: ثابت بن أبي تميم. وزيادة الألف من الظواهر الكتابية الشائعة في النقوش الصخرية الإسلامية.

٣. (ابن أبي تميم):

يظهر "ابن أبي تميم" بالنقش اسم أول منسوب إليه ثابت، وهو شخصية النقش (ثابت بن أبي تميم). والتميم يعني لغوياً: الطويل، التام الخلق "، وتميم -أيضا- اسم لقبيلة مضرية تنسب إلى تميم بن مر بن أُد بن طابخة بن إلياس بن مضر (ابن منظور ج١٢: ٦٩-٧٠).

و"تميم" اسم علم مذكر له ذكر في الكثير من النقوش الصخرية غير المؤرخة، التي تعود إلى القرنين الأول والثاني الهجريين، التي كشف عن نماذج منها في منطقة الطائف[١٤] (الحارثي ١٩٩٤: ٩٧-١٠٠؛ Grohman 1962; 44-47). ويرد اسم أبو تميم في ا سماء أعلام لشخصيات مبكرة، منها: أبو تميم الحَيْسُماني (ابن حجر ج٢: ١٢٩)، وأبو تميم الأسلمي (ابن سعد ج٤: ٣١٠؛ ابن حجر ج٥: ٢٨٢)، وأبو تميم الجيشاني (ابن حجر ج٧: ٣٧). ومن الصعوبة نسبة صاحب النقش لأي شخصية من هذه الشخصيات لخلو اسم أبي تميم من نسبته؛ هذا ولم نجد، في المصادر المتاحة، معلومات تراجمية تخص سيرة شخصية هذا النقش، مع العلم بأن تراكيب اسمه (ثابت، تميم) لم تزل تستخدم في عالمينا العربي والإسلامي حتى يومنا هذا.

ثالثاً: مهنة صاحب النقش:

١. "(. . .) صانع الجرار (. . .)" (السطر رقم: ٣-٤):

وكما أسلفنا، يظهر ويثبت صاحب هذا النقش ومنفذه مهنته التي كان يزاولها في حياته، وربما أنه كان معروفاً بها وبمزاولتها على نطاق واسع في منطقته، وبهذا يقوم بتوقيع اسمه في ثنايا النص (صانع الجرار)، ولعله بمثابة الاسم التجاري له - إذا صح التعبير - للتعريف بنفسه وبصنعته(١٥). ويبدو أن هناك علاقة قوية بين الحرفة والصناعة ووجود ارتباط وثيق ولصيق في الطبيعة التطبيقية لكل منهما، فالمصطلح الأول يعني الصناعة التي يرتزق منها وتعد مصدر الكسب؛ أما مصطلح الصناعة: فمصدرها الصُنع وهي حرفة الصانع وعمله، فيقال امرأة صناع اليدين أي حاذقة وماهرة بعمل اليدين، ورجل صنيع اليدين أي صانع حاذق. ومن الملحوظ أن الحرفة والصناعة يفهمان على أنهما مصطلحان متباينان لمدلول واحد، فوفقاً لقول ابن منظور: "المحترف الصانع وفلان حريفي أي معاملي والمُحْرِف الذي نما ماله وصلح والاسم الحرفة، والحرفة الصناعة، وحرفة الرجل صنعته أو صنيعته، وحرف لأهله واحترف كسب وطلب واحتال" (ابن منظور ج٢: ٨٣٩). ويؤيد هذا المعنى اللغوي ما ذهب إليه الجوهري بأن الصناعة هي حرفة الصانع، وعمله الصنعة؛ أما الصانع فهو عامل الشيء، والصناعة تكون حرفة له (الخزاعي ١٩٩٩: ٧٧٦-٧٧).

ويمكن الخروج من هذه المفاهيم والتعريفات اللغوية بنتيجة إيجابية مفادها بأن صاحب هذا النقش كان يعمل في مجال صناعي محدد وهو صناعة الفخار المشتملة على صناعة الجرار، وهذه الصنعة الحيوية كانت حرفته وعمله ومعاشه في حياته، فهو إذاً بالتالي صانع محترف الصنعة للأواني الفخارية بشكل عام، وصناعة الجرار بأنواعها بشكل خاص.

أما المفهوم العام والشائع للحرفة والصناعة فيمكن تأطيره على أنه مصدرا من مصادر الكسب المادي التي يجيدها الشخص في حياته سواء كان ذلك تجارة أو فلاحة أو عمل يدوي كالسقاية والحمالة ونحوهما، ويدخل تحت مظلة هذا المفهوم العام جميع الأعمال الفكرية من تعليمية وتثقيفية وبحثية وغيرها (العمري ١٩٨٥: ٣٨).

أما ما يتعلق بلفظة الجرار فورد لها تعريف لغوي مفصل موضحاً التالي "الجرار، مفردها: جرة: إناء من خزف كالفخار، وجمعها جَر وجِرَار. وفي الحديث أنه نهى عن شرب نبيذ الجَر. قال ابن دريد: المعروف عند العرب أنه ما أتخذ من الطين، وفي رواية: عن نبيذ الجرار، وقيل: أراد ما ينبذ في الجرار الضارية يدخل فيها الحناتم وغيرها. قال ابن الأثير: أراد النهي عن الجرار المدهونة لأنها أسرع في الشدة والتخمير. التهذيب: الجر: آنية من خزف، الواحدة جَرَة، والجمع جَر وجرار. والجِرارة: حرفة الجَرّار" (ابن منظور ج٤: ١٣٠-١؛ ابن الأثير ١٩٩٧: ج١: ٢٥١).

وبهدف فهم وإدراك الصفات الدقيقة لأواني الجرار وطبيعة استخداماتها العملية والتعرف على الفروقات ما بينها من خلال هذا التعريف، فيلزم علينا التعرض بشكل موجز على ماهية وكنه الأواني المُسماة والمشار إليها في مضمون



هذا التعريف اللغوي الشامل. يحتوي هذا التعريف اللغوي على مسميات لأواني وأوعية تفهم على أنها نظائر للجرار من ناحية الشكل والوظيفة (الاستخدام)، وهي كالتالي: الخزف، والفخار، والحناتم. فالخزف هو كل آنية عملت من الطين، ومن ثم عرضت وشويت بالنار لتصبح فخاراً، وواحدته خزفه؛ وذكر الجوهري بأن الخزف هو الجُر (جمع جرة) الذي يبيعه الخزاف (ابن منظور ج٩: ٦٧)، كما ورد بأن الجُر هو "كل ما عمل من الطين وشوي بالنار حتى يكون فخاراً" (الفيروز آبادي ٧٢٣). أما الفخار (مفرده فخارة) فإنه مُعرف على أنه الجُر أو الخزف. وفي الحديث: (أنه خرج يتبرز فأتبعه عمر بإداوة وفخارة) والفخار: ضرب من الخزف معروف تعمل منه الجرار والكيزان وغيرها (ابن منظور ج٥: ٤٩-٥٠)، وورد في **التنزيل العزيز قول الله تعالى: (خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾) (الرحمن: ١٤)، ووفقاً لقول ابن إسحاق فإن** الصلصال هو "الطين اليابس الذي يصل من يبسه أي يصوت، وهو صلصال ما لم تصبه النار، فإذا مسته النار فهو حينئذ فخار. قال الجوهري: الصلصال: الطين الحر خلط بالرمل فصار يتصلصل إذا جف، فإذا طبخ بالنار فهو الفخار". (ابن منظور ج١١: ٣٨٢).

أما الحنتم فورد بشأنها التعريف التالي: "جرار خُضر تضرب إلى الحمرة، والواحدة: حنتمة، وأصل الحنتم الخضرة، والخضرة قريبة من السواد. وفي الحديث: أن النبي (ص) نهى عن الدباء والحنتم، قال أبو عبيد: هي (يعني الحنتم) جرار حُمر كانت تحمل إلى المدينة فيها الخمر. وفي النهاية، الحنتم: جرار مدهونة خضر كانت تحمل الخمر فيها إلى المدينة، ثم اتسع فيها فقيل للخزف كله حنتم، واحدته حنتمه" (ابن منظور ج١٢: ١٦١-١٦٢؛ الفيروز آبادي: ٩٩١).

يفهم من هذه التعاريف اللغوية للجرار وللأواني والأوعية الفخارية الأخرى بأن معظم الأواني المعمولة من الطين الحر (الصلصال) أو الطين المحروق (الفخار) سواء كانت تلك الأواني فخارية أو خزفية أو حناتم فأنها جميعاً تعرف باسم الجرار (مفردها: جرة). هذا إلى جانب إطلاق مسمى جرار على أواني فخارية أخرى تشتمل على مسميات معينة ومحددة وفقاً لاستخداماتها، ومنها على سبيل المثال لا الحصر: الحُب[١٦]، والقلة[١٧]، والمكوك[١٨]، والشقيط[١٩] (ابن منظور ج١: ٢٩٥، ج١١: ٥٦٥، ج٧: ٣٣٥؛ الفيروز آبادي: ٦٧- ٦٨، ٣٢٨، ٩٤٩). لذا فمفردة الجرة تعد لفظة فنية لغوية تعريفية تطلق بشكل شمولي لا انتقائي على جميع الأواني والأوعية المصنعة من الطين الصلصالي، سوى كان الطين حراً أو محروقاً، والمستخدمة للأطعمة والأشربة السائلة أو شبه السائلة (المائعة) كالدبس والعسل مثلاً.

اشتهرت جزيرة العرب في عصورها التاريخية القديمة والإسلامية المبكرة بعدة حواضر تشكلت كمراكز صناعية وإنتاجية معاً، وبؤر تصدير للصناعات الحيوية آنذاك؛ ومن هذه الحواضر والمراكز العربية الإسلامية المشهورة: مدينة صعدة، ومدينة نجران، ومدينة جُرش، ومدينة الطائف، ومكة المكرمة، والمدينة المنورة، واليمامة، ومدينة هجر. وتركزت تجارة وصناعة هذه البلدان على ما تجود به بيئة كل منطقة من تلك المناطق، وعلى مدى توفر الثروات الحيوانية والزراعية في كل منها، وبذلك تمثلت المتاجرة والإنتاج الصناعي المحلي في هذه المراكز والحواضر، مثلاً، في: تصدير التمور والقمح (البر) ومشتقاتهما، والمصنوعات الجلدية وما يلحق بهذا المجال الصناعي من دباغة للجلود وتصنيع للأدم، والمصنوعات الخصفية، ونحت الأقداح والبروم، وصناعة الجرار بمختلف أصنافها وأشكالها وأحجامها[٢٠].

وفي هذا السياق الحضاري، تشير المعلومات المتوفرة (الفاكهي ١٩٩٤: ج٣ ص ٣١٧؛ البابطين ١٩٩٨: ١٨٢-٣) إلى بروز طبقة اجتماعية محترفة تقوم بأعمال وصناعات يدوية[٢١] تشتمل على حرفة نحت الأقداح في مكة المكرمة، مع ظهور الإسلام، ووفقاً لما ورد عند الخزاعي (الخزاعي: ٧١٢-١٣) فأن أبا رافع القبطي (مولى العباس بن عبد المطلب- رضي الله عنه) كان يمتهن حرفة نحت الأقداح في حجرة زمزم.

و كانت صناعة الجرار من المهن المشهورة في مكة المكرمة لدرجة أن شعب من شعاب مكة المكرمة، واقعاً بالقرب من المحُصَب والحُجون، كان ينسب إلى المشتغلين بهذه المهنة[٢٢] (البابطين ١٩٩٨: ١٨٣؛ الفاكهي: ج٤ ص ٧٢-٧٣). كما كان



هناك ارتباط مهني وثيق بين صناعة الجِرار ومهنة السقاية في مكة المكرمة، وكانت الجِرار الحمر المُزفتة والقِلال والحناتم، إضافة إلى القرب والدلاء الجلدية، هي الأواني والأوعية المستخدمة في نزع وتحميل وجلب وحفظ المياه من قبل السقائين، ومن النماذج الحياتية اليومية في عملية جلب الماء في مكة المكرمة هو قيام أم سعيد (أمة آل العاص) بجلب كل يوم ثلاث جرار مملوءة بالماء بناءً على طلب سيدها.

وهكذا كان الشأن التجاري والصناعي في المدينة المنورة يكاد يتطابق مع الحالة السائرة في مكة المكرمة، فيذكر بأن سوق المدينة المنورة كان يستقبل مجلوبات من القبائل ومنها الخمور - قبل تحريمها - المعبأة في جرار خضر مدهونة يطلق عليها اسم الحناتم (مفردها حنتمة) (ابن ادريس ١٩٩٢: ٢١٣؛ ابن منظور ج١٢: ١٦١-٢). كما كان المجتمع المدني يضم طبقة صناع يصنعون آنية وأدوات المنزل من فخار ونحاس للأغراض المعيشية (مغربي ١٩٩٣: ٢٦٤). ويلاحظ المدقق والمتفحّص في سيرة وحياة النبي محمد (صلى الله عليه وسلم)، مدى توفر ما ذكر من مسميات متنوعة للأواني وللأدوات وللأوعية الفخارية واستخداماتها في الحياة اليومية في عهده (صلى الله عليه وسلم) لأغراض متعددة ومختلفة وذلك إما للأكل أو للشرب أو للكيل أو للحفظ أو للوضوء والتطهر أو لتبريد الماء (ابن ادريس ١٩٩٢: ٢٤٢)، ومن نماذجها: الفخار، والتور، والبرمة، والحنتم، والقلة، والنقير، والمُزفت (المُقير) (الجميل ١٩٩٤: ٩٦- ١٩٣) . وتعد وفرة هذه الأواني والأوعية المختلفة في المجتمع المدني خلال العهد النبوي من الدلائل والمؤشرات القوية على وجود طبقة اجتماعية عاملة في المدينة المنورة تتولى صناعة وإنتاج وتسويق الجرار بمختلف أصنافها وأشكالها وأحجامها.

ويمكننا الجزم بأن صناعة الجرار الفخارية في المدينة المنورة استمرت فيما بعد لفترات طويلة لارتباطها بحرفة السقاية، وجدير بالذكر بأن جودة تربة المدينة المنورة كان لها دور في رقي هذه الصناعة وتطورها إذ كانت الدوارق (ابن منظور ج١: ٩٦؛ الفيروزآبادي: ٧٩٤) المصنّعة في المدينة المنورة يتم تصديرها للبلدان المجاورة، وإلى مكة المكرمة على وجه الخصوص (المديرس ٢٠٠١: ١٠٤) .

كما كانت الجِرار تستخدم مكاييل لحمل الضرائب العينية فيها في بلاد مصر في العهد الأموي من أجل حفظها في دار الرزق بالعاصمة الفسطاط، ومن أصنافها جرار العس[٢٣] (ابن الأثير ج ٤: ٥٣) . واشتملت هذه الجرار بمختلف أحجامها على أختام مستديرة الشكل مضغوطة على أبدانها تتضمن مأثورات كتابية تشير إلى سعة الجرة ومكان ورودها واسم صانعها إضافة إلى وجود هذا الختم المضغوط على بدن الجرة، فكانت فوهات جميع الجرار، المراد إرسالها إلى الفسطاط، تسد سداً محكماً بواسطة سدادة تعمل من نفس عجينة الجرة أو من مادة الجص لمنع حصول تلوث لمحتويات الجرة، وغالبا ما تحمل سدادة فوهة الجرة الختم الرسمي للمالك. وتتم صناعة هذه المكاييل الفخارية بنفس الطرق والوسائل المتبعة في صناعة الفخار العادي، إلا أن الاهتمام كان ينصب على تحقيق السعة والتأكد من دقتها لكل جرة فخارية وذلك على يد مندوب عامل الخراج (فهمي ١٩٨١: ٥٤-٥٥، ٦٨-٦٩، لوحات: ١٧-٢٠) .

وبالتالي نجد أن الصناعات اليدوية، ومن ضمنها صناعة الجرار، تعتبر من الصناعات الرائجة في المجتمعات العربية القديمة والإسلامية لتعدد أغراض استخدامها؛ وبذلك تنامى تطويرها تدريجياً بحكم الفتوحات الإسلامية الذي مكن المجتمع الإسلامي من الاتصال الحضاري بالمجتمعات المفتوحة وبالتالي الاستفادة من معطياتها الثقافية والحضارية وجعلها، واقعياً، تتماشى مع هدي وتعليمات الدين الإسلامي. ومن المعلوم بأن الصناعات الفخارية الإسلامية بدأت تتشكل وتأخذ طابعها الإسلامي مع بداية قيام الخلافة الأموية، إذ اتسم الفخار الإسلامي خلال هذه الفترة بصفات فنية صناعية بارزة ناتجة عن العمق المعرفي بإجادة تقنيات هذا الفن من الصناعات اليدوية، وتتمحور هذه الصفات الفنية، بإيجاز، في الصياغة الرقيقة لعجينة الآنية الفخارية وتضليع البنية الجسمية لها، وإيقاع الزخارف الهندسية والنباتية وغيرهما على سطح جسم الآنية باستخدام أصباغ مختلفة الألوان، وخاصة صبغة المَغْرَة[٢٤] (ابن منظور ج٥: ١٨١-١٨٢) ، والتركيز في صهر الآنية لدرجة الحرق. وبالتالي أخذت صناعة الفخار في هذا العصر الإسلامي المبكر بالتخلص من



التأثيرات الفنية الأجنبية، وخاصة الساسانية والبيزنطية، بعد أن كانت الجرار الضخمة (المشهورة باسم الجرار الساسانية – الإسلامية، أو الجرار الخضراء/ الزرقاء) هي المهيمنة والشائعة في التداول بين الناس (Fehervari 1973: 27-32).

رابعاً: التأريخ:

"(. . .) وكتب ثابت يوم السبت في عشر ليال خلون من جمادى الآخرة سنة ثمان وتسعين".

١ . "(. . .) **وكتب ثابت** (. . .) "(**السطران: ٦ و٧**):

هذه إشارة صريحة على أن صاحب النقش (ثابت بن أبي تميم) هو الذي قام بتنفيذ النص الكتابي للنقش، كما تعد مؤشراً على تفشي القراءة والكتابة بين أصحاب وأرباب العمل والمهن اليدوية في منطقة ظهران الجنوب. وتعد صيغة: "كتب فلان"، أو "كتب لسنة"، أو "وكتب بيده "من الصيغ الشائعة في نصوص النقوش والكتابات الصخرية الإسلامية المبكرة سواء المؤرخ منها أو غير المؤرخ، ومن المعتاد رسمها في موضعها الصحيح وهو نهاية أو خاتمة نص النقش متبوعة باسم منفذ النص أو تاريخ تنفيذ النص أو بكليهما معاً. وتجدر الإشارة في هذا المقام إلى ما ذكره الواقدي بأن أول من كتب لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) حين قدم للمدينة المنورة أُبي بن كعب (وفاته سنه ١٩هـ/٦٤٠م) ، ويعتبر أُبي أول من كتب في آخر الكتاب: "وكتب فلان "(كتبه تعني خطه) (الخزاعي: ٨٥، ١٢٠، ١٨١) .

وعند تسليمنا بالحقيقة التالية أن ثابت بن أبي تميم كان صانعاً محترفاً للجرار طوال حياته، فما هو الأمر الذي جعله يختار هذه الصنعة بالذات مهنة وحرفة له مع أنه كان ينتمي إلى الطبقة المتعلمة؟ وهل كانت الطبقة الاجتماعية العاملة في المجتمع الإسلامي آنذاك لا يحدها حدود طبقية، وكانت تنهل من المعارف التعليمية والعلمية مثل ما تنهل الطبقات الأخرى؟ ولمحاولة تلمس إجابة علمية على هذه الفرضية لا بد لنا من البسط في القول أنه في سنة تنفيذ نص هذا النقش (٩٨هـ) كان قد مضى على قيام الخلافة الأموية سبعة وخمسين عاماً، وبقي من عمرها الزمني ما يقارب الثلاثة والثلاثين عاماً؛ وخلال هذه الفترة التاريخية ظهرت الحاجة لدى خلفاء بني أميه إلى إيجاد مراكز تعليمية في أرجاء أراضي الدولة الإسلامية، فتم تأسيس مراكز الكُتَّاب الذي أدى دوراً هاماً في نشر التعليم الأولي من خلال تأسيس ونشر الكُتّاب والكتاتيب في الأرياف والتجمعات السكانية النائية كانتشارها في المدن والحواضر الكبيرة، وعرفت مدن منها مكة المكرمة والمدينة المنورة والطائف وصنعاء وغيرها دور الكتّاب، وخلال هذه المسيرة التعليمية استخدمت طريقة التلقين واستعمال الألواح الصغيرة كوسائل تعليمية أولية في تلك المرحلة المبكرة من التاريخ الحضاري للدولة الإسلامية. إلى جانب توفر الكُتّاب، أوجدت ونظمت حلقات التعليم في الجوامع والمساجد التي عنيت بالتفقه في العلوم الدينية (علوم القرآن الكريم، والحديث، والفقه). كما اهتم بنو أمية بنفس الوقت في نشر العلم في أرجاء وربوع البادية وفي أوساط الجند المرابطين في ثغور الدولة الإسلامية (العقيلي ٢٠٠٢: ١٥٥-١٧٤) . ومع هذه الجهود الرسمية من قبل الخلافة الأموية، فلا بد من الإشارة في هذا الخصوص أن مسيرة عجلة التعليم آنذاك وخاصة في البلدان النائية كانت، أيضا، من الأمور التي تخضع لوعي وإدراك الأهالي ووعي السلطة المحلية.

وعند النظر إلى هذه الجهود التعليمية الهادفة للخلافة الأموية الرامية إلى نشر التعليم في مشارق ومغارب حدود الدولة الإسلامية آنذاك، فأننا نجد لا غرابة من تغلغل التعليم في جميع أوساط الطبقات الاجتماعية في مختلف فئاتها بما فيها الطبقة العاملة من عرب أو موالي، وبذلك لا بد أن يكون ثابت بن أبي تميم من ضمن هؤلاء الأشخاص الذين استفادوا من نشر العلم والتعليم في ذلك الوقت المبكر من تاريخ الحضارة الإسلامية.

وعليه، يتضح لنا أن التعليم آنذاك لم يكن قاصراً على الحواضر الكبيرة فقط، وكان المتعلمين يعملون في المهن والحرف اليدوية وبذلك يُعد ثابت بن أبي تميم أنموذجاً للمسلمين في إبداعه لمعرفة الكتابة وهي لغة القرآن الكريم وعدم استنكافه عن القيام بأعمال حرفية ومهنية لكسب الرزق الحلال من عمل يديه.



٢. " (. . .) يوم السبت في عشر ليال خلون (. . .) " (السطران: ٧ و٨) .

قام صاحب ومنفذ هذا النقش بتحديد تاريخ نقشه الصخري بدقة متناهية من حيث تضمينه لعناصر مهمة في تراكيب تأريخ نص النقش، وهذه العناصر هي: اليوم (السبت) ، وتاريخ هذا اليوم (عشر ليال خلون)[٢٥] (ابن كثير: ١١٤٣)، واسم الشهر (جمادى الآخرة) ، والسنة (ثمان وتسعين)، وهذا التاريخ الإسلامي يتوافق مع التاريخ الميلادي التالي:

- **النقش: الأول.**
- **السنة الهجرية: ٩٨ هـ.**
- **التاريخ الميلادي المصادف للأول من شهر محرم: ٢٥ أغسطس/ ٧١٦ م (السنة كبيسة مؤلفة من ٣٦٦ يوماً).**
- **عدد الأيام المنصرمة من السنة الميلادية: ٢٣٧ يوماً.**
- **يوم بداية السنة الميلادية: الأربعاء.**

ومن النقاط المهمة الجديرة بالإشارة إليها في صيغة تأريخ هذا النقش هو تميزه وليس انفراده (Grohmann 1962: 124, Z- 202, Pl. xxiii) ، مقارنة بالنقوش الإسلامية المؤرخة، بتضمين الكاتب لكلمة ليال (مفردها: ليلة) واستخدامها عنصراً تأريخياً لتثبيت وتحديد التأريخ وجعلها تمييزا للعدد. وتعد لفظة ليلة أو ليال من صيغ تمييز العدد الوارد لها ذكر في القرآن الكريم، ومنها على سبيل المثال، قول الله تعالى:

- **(قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا) (مريم: ١٠) .**
- **(سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾) (الحاقة: ٧).**
- **(وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾) (البقرة: ٥١) .**
- **(وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾) (الأعراف: ١٤٢) .**

وعليه، يثبت بأن ثابت بن أبي تميم نفّذ نصه في وقت غير معلوم من نهار يوم السبت المصادف للحادي عشر من شهر جمادى الآخرة، أي بعد انقضاء عشر ليالٍ، ومضي طرف غير معروف من نهار اليوم الحادي عشر من شهر جمادى الآخرة لسنة ثمان وتسعين هجرية، **قال الله تعالى في محكم كتابه (لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾). (يس: ٤٠)**

٣. "(. . .) **من جمادى الآخرة** (. . .) "**(السطور: ٨-٩)** :

من الصعوبة بمكان الوصول إلى معرفة المغزى من وراء اختيار صاحب ومنفذ هذا النقش (ثابت بن أبي تميم) وتوقيته لشهر جمادى الآخرة ليكون الزمن المناسب لتنفيذ نصه؛ إلا أنه تتوفر بعض الحقائق التاريخية التي من خلالها ربما يمكن لنا أن نستشف بصورة غير قطعية سبب اختياره لهذا الشهر بالذات من دون شهور السنة، وهي:

أولاً: قيام الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك بتأدية فريضة الحج في العام السابق من تاريخ هذا النقش، وتوليه إمامة الحج بالناس في هذا العام (ابن الأثير ١٩٧٨: ج٤: ١٤٦).

ثانياً: اعتياد قيام شريحة عريضة من المسلمين في شهر رجب من كل عام بتأدية "العمرة الرجبية "(ابن جبير ١٩٨٠: ١٠٦-١١٦) .

ويبدو، احتمالاً، أن هذين السببين هما اللذان جعلا حشود من الحجيج والمعتمرين والزوار، القادمين من بلدان جنوب وغرب الجزيرة العربية، التوافد على مكة المكرمة في وقت مبكر، إذا أخذنا في الاعتبار أن القوافل المنظمة للحج وللعمرة كان عليها أن تقطع مسيرة شهر أو أكثر من بلاد اليمن لتصل إلى مكة المكرمة. وبالتالي فقد كانت ربما فرصة سانحة لثابت بن أبي تميم العمل على استغلال توافد هذه الحشود من الناس عن طريق الحج اليمني الأعلى من صنعاء إلى مكة المكرمة، وقيامه بتنفيذ نقشه في شهر جمادى الآخرة. وتبقى هذه الإحتمالية واردة مع اعتقادنا بعدم وجود رابط قوي يتمثل بالدليل المادي الملموس بين كتابة نص هذا النقش ومناسبة حج الخليفة الأموي أو تأدية العمرة الرجبية.

٤. "(. . .) سنة ثمان وتسعين " (السطر رقم: ١٠) :

يتزامن تاريخ تنفيذ هذا النقش (سنة ٩٨هـ) مع فترة خلافة الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك الذي حكم ما بين ٩٦-٩٩ للهجرة / ٧١٥-٧١٧ للميلاد، وعند توليه زمام



الخلافة كانت دعائم الحكم الأموي متجذرة داخل حدود الدولة الإسلامية، بفضل جهود من سبقوه في الخلافة أمثال والده عبد الملك بن مروان (٦٥-٨٦هـ/٦٨٥-٧٠٥م) وأخيه الوليد بن عبد الملك (٨٦-٩٦هـ/٧٠٥-٧١٥م).

اتسمت فترة خلافة سليمان بن عبد الملك بالاهتمام بفتح القسطنطينية، وخلال فترة خلافته تعاقب على ولاية مكة المكرمة وما جاورها ثلاثة ولاة معينين من قبله، وهم بالترتيب: خالد بن عبدالله القسري، وطلحة بن داود الحضرمي، وعبدالعزيز بن عبدالله بن خالد (البابطين ٤٧٥)؛ أما بلاد اليمن فكان واليها عروة بن محمد السعدي (تاريخ ولايته: ٩٦-١٠١هـ/٧١٥-٧٢٠م) ، إذ عينه الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك، ومن ثم عُين مرة أخرى في خلافة عمر بن عبد العزيز بن مروان (٩٩-١٠١هـ/٧١٧-٧٢٠م) (الحمزي ١٩٩٢: ٣٢؛ al-Mad'aj 1988: 169-172). وكان على هؤلاء الولاة وغيرهم إدارة الشؤون المتعلقة بولاياتهم من إدارية وحربية وغيرها؛ إذ كانت الخلافة الأموية خلال مراحل تاريخها تتسم في حكمها بتطبيق مبدأ اللامركزية في الحكم (إمارة استكفاء) ، ولذلك أصبحت من صلاحيات الوالي جباية الخراج، وإشهار الجهاد، وتوزيع الأعطيات على مستحقيها، وتنفيذ الأمور القضائية[٢٦] (ابن الأثير ج٤: ١٤٦-١٥١؛ العقيلي: ٦٥، ٢٩٩-٣٠١) .

وفي خاتمة القول يمكننا الوصول إلى نتيجة مفادها أن نص هذا النقش المؤرخ يحمل في طياته مفردات لعناصر حضارية ثقافية إسلامية وهي القراءة والكتابة والصناعة، وأن صاحب هذا النقش "ثابت بن أبي تميم"، قام بعمل تاريخي لم يسبقه أحد من قبل - حسب علمنا الحالي - في مجال النقوش الكتابية الصخرية في الفترة الإسلامية المبكرة وذلك بإضافة مسمى حرفته الذي يعد بمثابة توقيعه الشخصي لمضمون النقش. وبهذا يعد ثابت بن أبي تميم من الشخصيات العاملة في مهنة صناعة الأواني الفخارية (الجرار) وخاصة تلك الأواني والأوعية المخصصة للمواد والمشروبات السائلة والأطعمة الجافة وشبه السائلة (المائعة) ، ويبدو أن هذه المهنة كانت حرفته الرئيسة في حياته، وكان يعمل بيديه لكسب معاشه الدنيوي، وبذات الوقت يُعد من الشخصيات المنتمية للطبقة المتعلمة في منطقته من خلال إجادته القراءة والكتابة. وبذلك نجده لم يقف عند تعلم القراءة والكتابة فحسب بل عمل بيديه لكسب رزقه ليرسم بذلك المسار الحياتي الصحيح والقدوة الحسنة للمرء المسلم الصالح.

كما أن تدوين صنعته في نص هذا النقش يدل بدون شك على نهضة الصناعات الفخارية وازدهارها في العصر الأموي؛ وهو بذلك يُؤرخ ويوثق، بطريقة غير مباشرة، عن مسيرة هذه الصناعة الحيوية في الحضارة الإسلامية، إلى جوار توثيقه البَيّن لاستخدام طريق الحج اليمني وازدهاره في عصره.

ويظهر من النقش، أيضا، بأن ثابت بن أبي تميم قام بمجهود طيب في تنفيذ نص النقش واعتنائه برسم حروفه وكلماته، واختياره موقع إستراتيجي وحيوي ليكون النقش بجوار مصدر مائي (غيل المنضج: المبرح) ، وهو من المناهل الرئيسة على مسار طريق الحج اليمني الأعلى بين صنعاء ومكة المكرمة؛ وفضلاً عن استخدامه من قبل حجاج وزوار بيت الله الحرام، فإنه كان يستخدم من قبل السكان المحليين والمسافرين.

وتأسيساً على ذلك، تتضح أهمية مرور واجتياز مسار درب الحج اليمني بين صنعاء ومكة المكرمة لأراضي منطقة ظهران الجنوب وموقع غيل المنضج (المبرح) بوجه خاص لما له من أثر إيجابي في نشوء وتطور صناعة الجرار؛ ولربما كانت هذه الصناعة مفردة من مفردات اقتصاديات المجتمع المحلي في المنطقة.

وكما نرى أن نص النقش خرج لحيز الوجود ربما بسبب أن المنطقة آنذك كانت مشهورة بهذا المُنتج الفخاري وتعج بصُناع الجرار. وعليه، رغب ثابت بن أبي تميم التميز عن غيره ومنافستهم بواسطة الإشارة إلى حرفته من خلال هذا النقش مع عدم علمنا إن كان ينتمي شخصياً لسكان المنطقة ومعروف بينهم ولديهم، أو أنه صانع طارئ على المنطقة يكسب رزقه من صنع يديه وفي المواسم فقط، أو حيثما وجد التوقيت المناسب؛ أو أنه مجرد من عابري السبيل، وأنه أحد الحجاج اليمنيين العابرين الذين كانوا في طريقهم إلى مكة المكرمة.



وعلى الرغم من تحري الدقة العلمية، حسب المستطاع، في دراسة نص هذا النقش، إلا أنه ما تزال توجد بعض الفرضيات العلمية المهمة التي تطرح نفسها حيال المضامين النصية للنقش، وستبقى الفرضيات التالية تساؤلات صامتة حتى يقيض الله سبحانه وتعالى لمنطقة ظهران الجنوب المزيد من الاكتشافات الآثارية والبحوث التاريخية الجادة، ومن هذه الفرضيات:

أ. في حالة تناسي الإشارة الواضحة من كاتب النص لحرفته ومصدر رزقه "صناعة الجرار"، هل يُعتبر مضمون هذا النقش نصاً دعائياً دينياً بحتاً؟، أو أن "صانع الجرار" ليس إلا مجرد لقباً، مركب تركيباً إضافياً، تلقب به صاحب النقش، ومعروف في مجتمعه بهذا اللقب بدلاً من اسمه الحقيقي "ثابت بن أبي تميم"؛ أم أن إضافة مهنته في نهاية اسمه هي بالحقيقة تعريف بشخصه وبحرفته لمن يعرفه ومن لا يعرفه؟

ب. وبصرف النظر عن تراكيب الجمل الدعائية الدينية الترحمية المضمنة في نص النقش، هل يُعد هذا النقش مجرد لوحة تجارية، بمثابة شارة إعلانية، قصد بها صاحبها التنويه عن مدى مهارته وتسويق بضاعته خاصة عند مستخدمي المورد المائي لغيل المنضج (المبرح). وما هو المحفز من وراء قيامه بهذا العمل؟ أم أن المنطقة آنذاك كانت تمر بمراحل اقتصادية وسياسية عصيبة لم توثق تاريخياً؟

د. محمد بن عبد الرحمن راشد الثنيان - قسم الآثار والمتاحف - كلية الآداب - جامعة الملك سعود - ص. ب. ٢٤٥٦ الرياض ١١٤٥١ - المملكة العربية السعودية.

الهوامش:

١ . يذكر أن قبيلة وادعة الهمدانية تنحدر من أبناء وادعة بن عمرو بن عامر بن ناشح بن دافع بن مالك بن جشم بن حاشد المهري . ووردت نسبة وادعة عند ابن حجر عن ابن الكلبي بأنها وادعة بن عمرو بن عامر بن ناشح بن قانع بن مالك بن جُشَم بن حاشد بن جُشَم بن خيران بن نوف بن همدان .

٢ . تضمنت المرحلة الأولى من هذا المسح الآثاري حصر عدد من المواقع (إذ بلغت ٢٣ موقعاً: ابتداءً من الجدلية وإنتهاءً بوادي الأرنب) على مسار الدرب؛ أما بقية مراحل مسح الدرب فستنشر تباعاً بالأعداد القادمة من حولية أطلال .

٣ . أتت نتائجه وفقاً للإحصاء التالي: ١١٨ نصاً بخط المسند الجنوبي، و١٤ نصاً بالخط الثمودي، و١٢٩ نصاً بالخط الكوفي . ويشتمل العدد نفسه من حولية أطلال على دراسة لبعض النقوش القديمة المنفذة بخط المسند الجنوبي المكتشفة بظهران الجنوب، ومنها نقوش واقعة على امتداد مسار طريق الحج اليمني .

٤ . من أبرزها نقشان غير مؤرخين يتضمنان إشارة واضحة وصريحة إلى اسم الأمير اليعفري محمد بن يُعْفِر (وفاته: ٢٦٩هـ/٨٨٢م)، وابنه الأمير اليعفري إبراهيم بن محمد بن يُعْفِر (وفاته: ٢٨٢هـ/٨٩٥م) .

٥ . تعد لفظة غيل من الألفاظ العربية القديمة إذ تمتلك تأصيلاً ودلالة في نصوص النقوش السبئية القديمة بمعنى: سال، أو جرى، أو مجرى ماء، أو قناة؛ عرفت بلاد اليمن منذ القدم جر الغيول من مصادرها، ولم تزل كلمة غيل تستخدم في بلاد اليمن حتى يومنا هذا بالمعنى اللغوي نفسه .

٦ . كلمة المُدْرَجَة (جمعها مدارج)، تعني: "الثنايا الغلاظ بين الجبال"، واحدتها مدرجة، وهي المواضع التي يدرج فيها أي يمشي .

٧ . من أصحاب القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، وهو مؤلف أرجوزة الحج المشهورة باسم الرداعية .

٨ . النقيل، هنا، هو إشارة إلى الطريق الجبلي الذي يتخلل مساره عبر المضائق الجبلية، ووردت هذه اللفظة بنفس المعنى والصفة والدلالة للكلمة العربية في نصو ص النقوش السبئية القديمة؛ وتجدر الإشارة بأن لفظة نقيل، التي تعني العقبة الجبلية، لم تزل شائعة الاستخدام بين سكان جنوب المملكة وسكان المناطق الجبلية في الجمهورية اليمنية، ويقصد بها الدرب الجبلي .

٩ . وضع الهمداني المهجرة على قمة جبل المنضج وأعتبرها الحد الشمالي لمنطقة صعدة، وعدّها جزءاً من بلاد بني حيف الوادعية .

١٠ . يذكر الهمداني ما يلي: " ومحمد بن أبان الذي قاوم معن بن زائدة بصعدة وحاربه وأخذ بثأر عمر بن زيد الغالبي، لأن معناً كان قتله بالمنضج " .

١١ . تتوزع هذه النقوش الإسلامية المؤرخة على ست مناطق متفرقة من مناطق المملكة العربية السعودية؛ وتحتل منطقة مكة المكرمة العدد الأكبر منها (١٠ نقوش مؤرخة)، يليها منطقة شمال غرب المملكة (٤ نقوش مؤرخة)، من ثم منطقة المدينة المنورة (نقشان مؤرخان)، فمنطقة الطائف، ومنطقة ظهران الجنوب (عسير)، ومنطقة نجران (نقش مؤرخ واحد في كل منطقة من هذه المناطق الثلاث الأخيرة .

١٢ . وردت في النصوص التاريخية العائدة للعهد النبوي والخلافة الراشدة على وجهين، وهما: "أرسلت إليكم من صالحي أهلي": وردت أكثر من مائة مرة في الوثائق؛ أما الوجه الثاني لورودها فهو: " أهل رسول الله ": وردت أكثر من ثلاثين مرة في الوثائق . وقد عرف محمد حميد الله كلمة أهل: بأنها " أهل الرجل أخص الناس به ولا يلزم أن يكون من الأقارب " .

١٣ . لهذه الظاهرة الكتابية شواهد متعددة في النقوش العائدة لفترة ما قبل الإسلام، وفي النقوش الإسلامية المبكرة، واستمرت هذه الظاهرة الكتابية إلى فترات إسلامية متأخرة .

١٤ . ومن هذه النقوش، على سبيل المثال، النماذج التالية: أ . " آمن تميم بالله "، ب . " أنا تميم بن سعد العتيقي ربي الله "، ج . " ترحم الله على تميم بن مهران أمين " .

١٥ . تشتمل كلمة "صنع" على عدة تخريجات في بعض آيات القرآن الكريم، وتتمحور معاني وتفسيرات هذه الألفاظ القرآنية للكلمة بالتالي: الأعمال التعبدية العضوي منها والحسي (هود: ١٦)، وصناعة المصنوعات الحديدية والخشبية (الأنبياء: ٨٠؛ هود: ٣٧)، وأعمار العمارات والمزارع (الأعراف: ١٣٧)، وفعل الله وقدرته العظيمة بإتقان كل ما خلق وأودع فيه من الحكمة ما أودع (النمل: ٨٨)، والاصطفاء والاجتباء للنفس (طه: ٤١).



١٦ . الحُب: الجرة الضخمة، الذي يجعل فيه الماء .

١٧ . القُلة: قيل الجرة العظيمة، وقيل الجرة عامة .

١٨ . المكوك: قال ابن الأعرابي: الجُرُ: جمع الجُرة، وهو المكوك الذي يثقب أسفله .

١٩ . الشقيط (الشقيظ): الجرار من الخزف يجعل فيها الماء، وقال الفراء: الشقيط: الفخار عامة .

٢٠ . خلقت هذه الحركة التجارية والأعمال الصناعية بمرور الوقت أجيالاً متعاقبة اتسمت بالخبرات المتراكمة والمتوارثة من مهارة وبراعة في الحقول الصناعية والإنتاجية والتصديرية في محيطيها المحلي والإقليمي . وبهذا انعكست هذه الحركة التجارية والصناعية في تطور وازدهار هذه الحواضر بمجتمعاتها السكانية ونمو اقتصادياتها المحلية .

٢١ . ومن هذه الصناعات اليدوية، بجانب نحت الأقداح وصناعة الجرار، قطع حجارة البرام من الجبال في مكة المكرمة، ومن ثم تسوى وينحت منها القدور والأواني الأخرى، ويطلق على هذه الفئة العاملة "البرامون"، وهي من الحرف القديمة المعروفة في مكة المكرمة قبل ظهور الإسلام، وعُرفت شخصيات تنتمي لقبيلة قريش لها ذكر في العمل بحرفة بيع البُرم مثل أمية بن خلف الجمحي . ولا زالت هذه الحجارة تُعرف وتُنحت في المناطق الجنوبية والجنوبية الغربية من المملكة العربية السعودية؛ هذا وتعرف حجارة البرام علمياً باسم " التالك/التالكوم: (*talc/talcum*) أو الحجر الصابوني " .

٢٢ . إلا أنه يبدو أن اسم هذا الشعب هو "شعب الجزّارين" وليس "شعب الجرارين" .

٢٣ . كما عرفت مصر صنفين من الجرار مكيالين، فالجرة الكبيرة تصل سعتها إلى حوالي ٢٤ قسطاً، أما الجرة الصغيرة فسعتها تبلغ حوالي أربعة أقساط . وتقدر سعة القسط بنصف الصاع، وكان القسط، أيضا، يستخدم كإناء للوضوء .

٢٤ . المَغَرَة والمَغْرَة: عبارة عن طين أحمر يستخدم لصباغة الجرار الفخارية والثياب .

٢٥ . وورد بأن "العرب تسمى كل ثلاث ليال من الشهر باسم باعتبار القمر، فيسمون الثلاث الأول غُرَر، واللواتي بعدها نُفَل، واللواتي بعدها تُسَع، لأن أخراهن التاسعة، واللواتي بعدها عُشَر لأن أولاهن العشرة، واللواتي بعدها البيض، . . . " . وعند تطبيق هذا التصنيف الحسابي العربي القديم لمنازل القمر على التاريخ المذكور في نص هذا النقش (في عُشَر ليال خلون) فأنه يصادف أم يوم العاشر أو الحادي عشر أو الثاني عشر من شهر جمادى الآخرة لسنة ٩٨هـ .

٢٦ . من أبرز الأحداث التاريخية في الدولة الإسلامية المتزامنة آنذاك مع سنة تنفيذ نص هذا النقش، ما يلي:

أ . يعهد الخليفة سليمان بن عبد الملك بولاية العهد لابنه أيوب، فمالبث أيوب أن يتوفى فاختار لولاية العهد عمر بن عبد العزيز .

ب . قيام أمير أفريقية محمد بن يزيد القرشي بعزل أيوب بن حبيب اللخمي عن إمارة الأندلس، وتولي الحّر بن عبد الرحمن الثقفي ولايتها .

ج . قيام أمير خراسان يزيد بن المهلب ببناء مدينة جرجان .

كما شهد العقد الأخير من القرن الهجري الأول المراحل الأولى لقيام الدعوة العباسية في طورها السري الذي استمر لأكثر من ثمان وعشرين سنة فيما بعد .



المراجع

أولا: المراجع العربية

ابن الأثير، علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الواحد الشيباني، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م، **الكامل في التاريخ**، ٩ أجزاء، بيروت.

ابن الأثير الجزري، أبو السعادات المبارك بن محمد، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، **النهاية في غريب الحديث والأثر**، ٥ أجزاء، خرج أحاديثه وعلق عليه أبو عبد الرحمن صلاح بن محمد بن عويضة، ط١، بيروت.

ابن إدريس، عبدالله عبد العزيز، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، **مجتمع المدينة في عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم)**، الرياض.

اسكوبي، خالد محمد، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، "دراسة تحليلية للنقوش الواقعة في: أ. عشن (ذهبان)، ب. المعلمات، ج. ظهران الجنوب بالمنطقة الجنوبية - المسح الأثري عام ١٤١٢هـ/١٤١٣هـ"، **أطلال**، العدد الخامس عشر، ١٠٩-١٢٤، الرياض.

البابطين، إلهام أحمد، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، **الحياة الاجتماعية في مكة منذ ظهور الإسلام حتى نهاية العصر الأموي**، ط١، الرياض.

بيستون، أ.ف. ل ؛ مولر، والتر ؛ الغول، محمد ؛ ريكمانز، جاك ١٩٨٢م، **المعجم السبئي**، بيروت ولوفان.

ابن جبير، محمد بن أحمد، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، **رحلة ابن جبير**، بيروت.

الجميل، محمد بن فارس ١٤١٥هـ/١٩٩٤م، "الآنية والأوعية المستخدمة في العهد النبوي: دراسة مستمدة من كتب الحديث الشريف"، **مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية**، العدد الثاني عشر، ٩٦-١٩٣، الرياض.

ابن جنيدل، سعد بن عبد الله ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، **معجم الأمكنة الوارد ذكرها في صحيح البخاري**، الرياض.

الحارثي، ناصر بن علي، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م، **النقوش العربية المبكرة بمنطقة الطائف**، ط١، الطائف.

ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، **الأصابة في تمييز الصحابة**، ٩ أجزاء، دراسة وتحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، ط١، بيروت.

الحجري، محمد بن أحمد، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، **مجموع بلدان اليمن وقبائلها**، ٤ أجزاء، تحقيق وتصحيح ومراجعة: إسماعيل بن علي الأكوع، ط١، صنعاء.

الحربي، علي بن إبراهيم ناصر، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، **المعجم الجغرافي للبلاد السعودي (منطقة عسير)**، ٣ أجزاء، بيروت.

الحربي، أبو إسحاق إبراهيم، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م، **كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة**، تحقيق حمد الجاسر، ط١ الرياض.

حمزة، فؤاد، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م، **في بلاد عسير**، ط٢، الرياض.

الحمزي، إدريس بن علي بن عبد الله، ١٩٩٢م، **تاريخ اليمن من كتاب كنز الأخيار في معرفة السير والأخبار**، دراسة وتحقيق عبد المحسن مدعج المدعج، ط١، الكويت.

الحموي، ياقوت بن عبد الله ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م، **معجم البلدان**، بيروت، لبنان.

حميد الله، محمد، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، **مجموعة الوثاق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة**، ط٦، بيروت.

خان، مجيد ؛ المغنم، علي، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، "سدود أثرية في منطقة الطائف"، **أطلال**، العدد السادس، ١٢٥-١٣٤، الرياض.

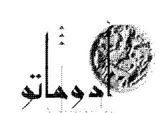
الخزاعي، علي بن محمد بن سعود، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، **تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية**، تحقيق إحسان عباس، ط٢، بيروت.

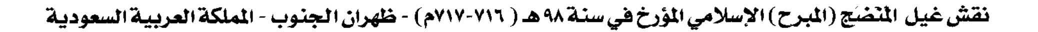
الراشد، سعد بن عبد العزيز، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، **كتابات إسلامية من مكة المكرمة: دراسة وتحقيق**، الرياض.

الراشد، سعد بن عبد العزيز، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، "نقش مؤرخ من العهد الأموي مجهول الموقع من منطقة جنوب الحجاز"، **دراسات في الآثار، الكتاب الأول**، مطابع جامعة الملك سعود، الرياض.

الراشد، سعد بن عبد العزيز، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، **كتابات إسلامية غير منشورة من (رواوة) المدينة المنورة**، ط١، الرياض.

الراشد، سعد بن عبد العزيز، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، **كتابات إسلامية**





من مكة المكرمة: دراسة وتحقيق، الرياض.

ابن سعد، محمد بن منيع، (ب.ت). **الطبقات الكبرى**، دار صادر، بيروت.

شرف الدين، أحمد حسين، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م، "النقوش الإسلامية بدرب زبيدة"، **أطلال**، العد الأول، ٧٣-٧٤، الرياض.

عسلان، عبد الوهاب محمد، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، **غيول صنعاء: دراسة تاريخية أثرية وثائقية**، ط١، دمشق.

العمري، عبد العزيز إبراهيم، ١٩٨٥م، **الحرف والصناعات في الحجاز: في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم**، ط١، الدوحة

العقيلي، عمر بن سليمان، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، **تاريخ الدولة الأموية: ٤١-١٣٢هـ/٦٦١-٧٥٠م** ، ط١، الرياض.

غبان، علي بن إبراهيم، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، **الآثار الإسلامية في شمال غرب المملكة: مدخل عام**، ط١، الرياض.

الفاكهي، محمد بن إسحاق، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، **أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه**، ٦ أجزاء، دراسة وتحقيق عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، ط٢، بيروت .

فهمي، سامح عبد الرحمن، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، **المكاييل في صدر الإسلام**، مكة المكرمة .

فهمي، سامح عبد الرحمن، ١٩٨٧م، "نقشان جديدان من مكة المكرمة"، **المنهل**، مج ٤٨.

الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، **القاموس المحيط**، بيروت.

قدامة، بن جعفر البغدادي، ١٩٦٧م، **نبذة من كتاب الخراج وصنعة الكتابة**، تحقيق دي غويه، ليدن.

كباوي، وآخرون، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠ م، "تقرير عن الرسوم والنقوش الصخرية جنوب غرب المملكة (أبها- جازان): الموسم السابع، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م"، **أطلال**، العدد الخامس عشر، ٩٩-١٠٨، لوحات: ٢٧-٣٩، الرياض.

ابن كثير، إسماعيل بن عمر، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، **المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير**، إعداد جماعة من العلماء بإشراف الشيخ صفي الرحمن المباركفوري، ط٢، الرياض.

كنودستاد، جيمس، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م، " مشروع درب زبيدة ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م: تقرير مبدئي عن المرحلة الأولى لمسح درب زبيدة "، **أطلال**، العدد الأول، ٤٧-٧٢، الرياض.

المديرس، عبد الرحمن مديرس، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، **المدينة المنورة في العصر المملوكي(٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م): دراسة تاريخية**، ط١، الرياض.

مغربي، محمد علي، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، **لمحات من تاريخ الحجاز قبل الإسلام**، ط١، القاهرة.

المقدسي، شمس الدين محمد بن أحمد، ١٩٠٦م، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، تحقيق دي غوية، ط٢، ليدن.

المنجد، صلاح الدين، ١٩٧٩م، **دراسات في تاريخ الخط العربي منذ بدايته إلى نهاية العصر الأموي**، ط٢، بيروت.

ابن منظور، محمد بن مكرم، (ب.ت)، **لسان العرب**، ١٥ مجلداً، دار صادر، بيروت.

الناصر، علي ناصر ؛ الرويتع، عبد العزيز، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م، "دراسة مبدئية لدرب الفيل: طريق الفيلة"، **أطلال**، العدد الحادي عشر، ١٠٣ - ١٠٧، الرياض.

الهمداني، الحسن بن أحمد بن يعقوب، ١٩٣٣١م، **الأكليل**، ج ٨، تحقيق الأب أنستاس ماري الكرملي البغدادي، بغداد.

الهمداني، الحسن بن أحمد بن يعقوب، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م، **صفة جزيرة العرب**، تحقيق محمد بن علي الأكوع الحوالي، الرياض.

الهمداني، الحسن بن أحمد بن يعقوب، ١٨٨٤م، **صفة جزيرة العرب**، تحقيق موللر، ليدن.

الهمداني، الحسن بن أحمد بن يعقوب، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م، **الأكليل**، ج ٢، تحقيق محمد الأكوع، ط٣، بيروت.

الهمزاني، سعد، ١٩٩٩م،" نقشان في السعودية يقلبان تاريخ ولادة الخط العربي"، **جريدة الحياة**، عدد الجمعة ٦ رجب، ١٤٢٠هـ، ص ١، ٦.

الوادعي، محمد، (ب.ت). **ظهران الجنوب وروعة الحاضر**، منشورات إمارة ظهران الجنوب، اللجنة الفرعية للتطوير السياحي، أبها.

ثانياً: المراجع غير العربية:

Biella, Joan Copeland 1982. **Dictionary of Old South Arabic: Sabaean Dialect**, U.S.A.

Fehervari, Geza 1973. **Islamic Pottery,** 1st.ed., London.

Grohmann, A. 1962. **Arabic Inscriptions**, Louvain.

al-Mad'aj, 'Abd al-Muhisn Mad'aj M. 1988.**The Yemen in early Islam, 9-233/630-847 : a political History**, London.

Philby, st.John 1938. ' The Land of Sheba', **Geographical Journal**.vol.xcii.no.1, London.

Smith, Rex. J. 1978. **The Ayyubids and Early Rasulids in the Yemen (567-694/1173-1295)**, vol.ii, London.

al-Thenayian, Mohammed A. R. 2000. **An Archaeological Study of the Yemeni Highland Pilgrim Route between San'a' and Makkah** 1st.ed., Riyadh.

Wilson, Robert.T. O. 1989. **Gazetteer of Historical North-West Yemen in the Islamic Period to 1650**, New York.

مؤتمرات وندوات علمية

نقوش وآثار جنوب الجزيرة العربية

(ندوة دولية بمناسبة الذكرى السبعين لميلاد البروفسور والتر مولر)

الجهة المنظمة : قسم الدراسات السامية بجامعة فيلبس - ماربورج- ألمانيا.

مكان الانعقاد : جامعة فيلبس.

تاريخ الانعقاد : ٢٨-٢٩ رجب ١٤٢٤هـ.
الموافق ٢٦-٢٧ سبتمبر ٢٠٠٣م.

عُقدت في جامعة فيلبس بمدينة ماربورج بألمانيا، الندوة الدولية حول: "نقوش وآثار جنوب الجزيرة العربية. بمناسبة الذكرى السبعين لميلاد البروفيسور والتر موللر"، عميد الدراسات السامية السابق في جامعة فيلبس، والمتخصص في نقوش وحضارة اليمن القديم. وقد أمضى موللر أكثر من أربعين عاماً في خدمة البحث العلمي في مجال دراسة تاريخ وحضارة جنوب الجزيرة العربية، وتخرج على يديه جيل من المتخصصين والباحثين العرب والأجانب.

اتسمت هذه الندوة بمشاركة عربية ودولية واسعة، شارك فيها من الجانب العربي باحثون من: الأردن، والسعودية، واليمن؛ ومن الجانب الدولي، شارك باحثون من: ألمانيا (الدولة المضيفة)، وإيطاليا، وبريطانيا، وروسيا، وفرنسا، والنمسا، وأستراليا وأمريكا.

وقد عقدت الندوة على مدار يومين، قُدمت فيها تسعة عشر بحثاً علمياً بثلاث لغات: الألمانية، والإنجليزية، والفرنسية. وقد ألقت الأبحاث الضوء على جوانب مختلفة من الحضارة اليمنية القديمة.

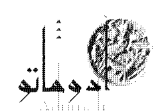
اشتملت الندوة على خمسة محاور رئيسة، ضم كل محور مجموعة من الأوراق والأبحاث العلمية المرتبطة بعضها ببعض، وتنحصر جميعها جغرافيا في منطقة جنوبي الجزيرة العربية.

وجاءت محاور المؤتمر موزعة على النحو الآتي:

- المحور الأول بعنوان: "نقوش ونتائج تنقيبات جديدة" ، تناولت الورقة التي ألقاها الأستاذ الدكتور يوسف محمد عبدالله - اليمن- دراسة تحليلية لـ "نقش سبئي جديد من مأرب"، وهو من ضمن مجموعة النقوش المكتشفة حديثاً من قبل بعثة المعهد الأمريكي لدراسات الإنسان في معبد أوام، المعروف حالياً (محرم بلقيس) باليمن. فيما عرض الأستاذ الدكتور "ريكاردو أيشمان" -ألمانيا- موضوعاً حول: "المنشورات الأثرية في مدينة مأرب"، المدينة التاريخية لحاضرة مملكة سبأ، والكشف عن الآثار الغامضة لهذه المدينة، وعن قصة ملكة سبأ، التي جاء ذكرها في المصادر التاريخية. كما قدمت الدكتورة عميدة شعلان -اليمن- بحثاً بعنوان: "أسماء جديدة لطيوب عربية جنوبية قديمة: نقوش على مباخر غير منشورة"، من مجموعة متحف قسم الآثار بجامعة صنعاء. وتكمن أهمية هذا البحث في أنه أضاف اسمين جديدين من أسماء الطيوب العربية الجنوبية القديمة، إلى أسماء الطيوب المعروفة في اليمن القديم. أما ورقة الدكتور سعيد السعيد -السعودية- فقد جاءت تحت عنوان: "نقش نذري معيني، فيه ذكر لزوجة الملك المعيني وقه إيل صادق"، تناول فيها دراسة تحليلة لغوية للنقش. ومن جهتها تحدثت الدكتورة "إيرِس جِرلاخ" -ألمانيا- عن: "الأبحاث الأثرية للمعهد الألماني بصنعاء في المدينة السبئية صرواح"، وهي من الأوراق العلمية التي تعكس مجهودات بعثة المعهد الألماني في المدينة السبئية صرواح. استعرضت خلالها أهم الاكتشافات الأثرية الجديدة في منطقة صرواح، العاصمة السبئية الأولى لمملكة سبأ. كما ألقى الدكتور سالم طيران - السعودية- بحثاً بعنوان: "نقش سبئي جديد من متحف جامعة الملك سعود بالرياض - المملكة العربية السعودية"، وهو من النقوش السبئية المبكرة المكتوبة بخط المحراث، تناول فيه دراسة تحليلية لغوية للنقش. أما الأستاذ الدكتور "فرانسوا برون" -فرنسا- فقد ألقى ورقة بعنوان: "نقش معيني جديد بخط الحراث" من مجموعة نقوش (Moussaieff) ويحمل رقم (Moussaieff 14) وهو شبيه من حيث إطار الزخرفة المحاطة بالنقش وكذلك أسلوب الكتابة، بالنقش الذي عرضه الدكتور سالم طيران. ويعتبر هذا النقش من النقوش المعينية النادرة التي كتبت بخط المحراث.

- المحور الثاني: "الديانة": ألقيت في هذا المحور ورقتان تتعلق بديانة اليمن القديم، وكانت الورقة الأولى للدكتور "سيرجوي فرانتسوزوف" -روسيا- بعنوان: "آلهة سبئية في حضرموت وعبادتها في معبد رحبان". فيما قدم الورقة الثانية الأستاذ الدكتور "كريستيان روبان" -فرنسا- بعنوان: "حكم ثأران يهنعم: نحو رفض الديانات المتعددة".

- المحور الثالث: "الخط واللغة": اشتمل هذا المحور على أربع



أوراق، قُدمت الورقة الأولى من قبل الدكتور هاني هياجنه - الأردن- بعنوان: "خواطر حول نشأة الخط السامي الجنوبي". أما الورقة الثانية فقد كانت للباحث "ميشال ماكدونالد "- بريطانيا- بعنوان: "نحو إعادة تقيم خطوط شمال الجزير العربية القديمة، التي استخدمت في واحة العلا". وكانت الورقة الثالثة للدكتور "بيتر شتاين" -ألمانيا- تناولت "الكتابة ومدرسة الكتابة في جنوبي الجزيرة العربية"، وذلك من واقع النصوص الخشبية (خط الزبور اليماني)، المحفوظة في متحف ميونخ. أما الورقة الأخيرة في هذا المحور فقد كانت للدكتور "الإكسندر سيما" -ألمانيا- وتحدثت عن "مكانة اللهجات السبئية المتأخرة".

- المحور الرابع: "الثقافة والعمارة": حمل هذا المحور الأوراق التالية: الأولى للأستاذ الدكتور "والتر دوستال" -النمسا- عن: "ملاحظات نقدية حول مسألة نظام القرابة العائلية في الجزيرة العربية". أما الدكتور "ويليام جلانزمان" -إمريكا- فقد كانت ورقته حول: "العلاقة بين فخار جنوبي الجزيرة العربية وأراضي الممالك المختلفة خلال الألف الأول ق.م." أما ورقة الدكتور "بوركهارد فوجت" -ألمانيا- فقد حملت العنوان: "هجر يَهر-عاصمة مملكة أوسان؟" استعرض خلالها المكتشفات الأثرية الجديدة في موقع حاضرة عاصمة مملكة أوسان".

- المحور الخامس والأخير: "التاريخ السياسي والتأريخ": ألقى الأستاذ الدكتور "اليساندرو دي ميجري" -إيطاليا- بحثه حول "إدلة جديدة للتسلسل الطبقي لتأريخ مدينة تمنع (قتبان)"، مستعرضاً نتائج التنقيبات والنقوش الجديدة المكتشفة في مدينة تمنع، عاصمة مملكة قتبان. وآخر أبحاث هذا المحور بشكل خاص والندوة بشكل عام قُدِّمت من قبل الدكتور "دانيال بوتس" -أستراليا- عن "جنوبي الجزيرة والإمبراطورية الفارسية".

وقد مثّلت غالبية الأوراق عرضاً لنتائج أعمال ميدانية - قام بها مقدم، أو مقدمو الورقة - التي ربما كانت ضمن جهود فريق علمي متكامل، وهذ ما ترتب عليه مستوى عالٍ في طرح الأوراق، ومحاكاة الدليل الأثري.

وقد أوصى المشاركون في الندوة بنشر بحوث المؤتمر في كتاب خاص، بمناسبة مرور سبعين عاماً على ميلاد البروفسور والتر موللر.

د. عميدة محمد شعلان: قسم الآثار-كلية الآداب-جامعة صنعاء- ص.ب. ١٢٣٥٧- صنعاء- الجمهورية اليمنية.

e-mail: amida_sholan@hotmail.com

ندوة التراث العمراني الوطني في المملكة العربية السعودية

الجهة المنظمة : الهيئة العليا للسياحة

مكان الانعقاد : مركز الملك عبد العزيز التاريخي - الرياض.

تاريخ الانعقاد : ٤-٧ شعبان ١٤٢٤هـ، الموافق: ٣٠ سبتمبر - ٣ اكتوبر ٢٠٠٣م.

برز موضوع إدارة الموارد الثقافية على الساحة العلمية في الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا، في أوائل السبعينات من القرن الماضي. ويتجلى هذا الاهتمام في أدبيات الأنثروبولوجيا والآثار المنشورة، وفي البرامج الدراسية في الجامعات والمؤسسات العلمية. كذلك صار الاهتمام إلى قيام الحكومات بتكوين مؤسسات لإدارة الموارد الثقافية، التي تشمل الآثار والتراث الشعبي والمتاحف والفولكلور وغيره. كما أصدرت القوانين والأنظمة، التي تحكم عمل هذه المؤسسات وتحدد مسؤوليتها. ومن ثم انتشر هذا الاهتمام بإدارة التراث إلى مناطق أخرى من العالم، من ضمنها المملكة العربية السعودية التي عملت على الحفاظ على تراثها الحضاري. وكان من نتائج اهتمام حكومة المملكة بتراثها، أن أصدرت نظام الآثار سنة ١٣٩٢هـ، الذي اشتملت بنوده على كل ما يتعلق بحماية وحفظ الآثار الثابتة والمنقولة. كذلك، يتضمن النظام العناية بالتراث الشعبي أو التقليدي، الذي يتمثل في المصنوعات التقليدية ذات الأهمية الثقافية والتاريخية، والمباني العمرانية التراثية.

ومن الجدير بالذكر أن دستور منظمة الأمم المتحدة للتربية والثقافة والعلوم (اليونسكو) عرّف في مادته الأولى التراث الثقافي (الآثار) بأنه: "تلك النصب ومجموعة المباني والمواقع الأثرية التي لها قيمة عالمية مميزة لجهة التاريخ والفن والعلوم". وتركت المادة الثالثة للدول الأطراف تحديد تلك الملكيات الواقعة على أرضها، التي تراها جزءاً من هذا التراث"، (حمدان ١٩٨٨). ويعني ذلك أن التراث الشعبي التقليدي لا يتحدد بفترة زمنية معينة، بل يرجع ذلك إلى





التحديد، الذي تتخذه كل دولة لتراثها الخاص، حسب قدمه وأهميته لها. وفي حالة المملكة العربية السعودية، نص نظام الآثار على أن الأثر هو ما تم صنعه أو إنتاجه أو رسمه من قبل الإنسان قبل ٢٠٠ سنة (وزارة المالية والاقتصاد الوطني ١٣٩٢هـ، الفصل ١، المادة ٥)

وبجانب العمارة التقليدية، تتمتع أقاليم المملكة العربية السعودية بتنوع عمراني فريد، يعكس البيئة المحلية والعادات والتقاليد والحالة الأمنية، ومن هذه الطرز:

- طراز المنطقة الوسطى (منطقة نجد)، ومن خصائصها مباني اللبن المتلاصقة والأفنية الداخلية والطرقات الضيقة، لتلطيف حرارة الجو.
- طراز المنطقة الشمالية (حائل والجوف والقريات وتيماء وتبوك)، ويشبه طراز نجد.
- طراز المنطقة الغربية (مكة والمدينة وجدة وينبع) حيث المباني الحجرية ذات الزخارف الجبسية والرواشين الخشبية المزخرفة.
- طراز المنطقة الشرقية (الإحساء وساحل الخليج العربي) الذي يجمع بين طرازي نجد والحجاز، ويختلف مظهره الخارجي حسب قربه أو بعده عن الساحل.
- طراز المنطقة الجنوبية (أبها وعسير ونجران والباحة) وفيه يختلف العمار حسب الارتفاع، حيث يبنى من الحجر في المناطق الجبلية، أو الحجر والطين معاً في المناطق القليلة الارتفاع.

وتعد العمارة بمختلف أنماطها وعناصرها، مرآة تعكس ثقافة وقيم ومعتقدات الأمم والشعوب، وتسلط الضوء على التطور الحضاري والقدرات المادية والمعرفية والحياة الاقتصادية والبيئية، التي شهدتها هذه المجتمعات. ومن هنا، كان على هذه الأمم أن تولي هذا التراث الاهتمام بالعناية والمحافظة على بقائه وصيانته، لأنه ذكرى ماثلة أمامها لماضيها، كما أن له فائدة اقتصادية وعلمية وثقافية لحاضرها ومستقبلها.

وإدراكاً من حكومة المملكة العربية السعودية لأهمية هذا المورد الثقافي، في تكوين الشخصية الوطنية والهوية الثقافية لشعب المملكة، فقد خصصت بعضاً من بنود نظام الآثار للعناية بالتراث العمراني. وبناء على ذلك أعطت الدولة الصلاحية لوكالة الآثار للإشراف على هذه المباني، والحق في تعيين ما يجب أن يُحافظ عليه من مناطق أثرية، أو أبنية تاريخية، أو أحياء قديمة، وذلك لحمايتها وتأمين صيانتها. (نظام الآثار: الفصل الثاني، مادة ١٦). وقد أجرت بالفعل الوكالة أعمال الصيانة والترميم في أكثر من موقع، منه على سبيل المثال: قصور الملك عبد العزيز في كل من الرياض ومكة وجدة. وتنص المادة ١٧ من الفصل الثاني من نظام الآثار السعودي، على التنظيمات الخاصة بصلاحية الوزارات والجهات المختصة بتخطيط وتجميل المدن والقرى، حيث نص القرار على ضرورة مراعاة المباني الحديثة في المناطق التاريخية لطراز وشكل المباني القديمة، ليكون بناؤها منسجماً مع المباني القديمة من ناحية التصميم واللون ومواد البناء. وهذا القرار يوحي بضرورة التنسيق بين الجهات المختصة بتخطيط المدن، مع الوكالة العامة للآثار عند القيام بأي مشروع تنموي أو ترميمي. ومن الملفت أن هناك أكثر من جهة تتصل مسؤوليتها بحماية هذا التراث، ما يحدث تداخلاً في المهام يؤثر في تحقيق إدارة فعالة لهذه الموارد الثقافية.

ومنذ صدور نظام الآثار في المملكة، حتى دمج وكالة الآثار مع الهيئة العليا للسياحة، أي لما يقارب أربعة عقود، أنجزت وكالة الآثار ما يزيد على مئة مشروع ترميم لمباني تاريخية، في مختلف مناطق المملكة، إضافة إلى مسح أثري شامل وتسوير العديد من المواقع الأثرية. وبعد دمج وكالة الآثار مع الهيئة العليا للسياحة، تُجرى الآن محاولات لتقويم الأداء الرسمي العام في مجال التراث والسياحة وتنشيط الفعاليات العلمية، في الوقت نفسه.

ومن ضمن هذا النشاط، دعت الهيئة العليا للسياحة إلى ندوة خاصة تعنى بالتراث العمراني، عقدت في الفترة ما بين ٤-٧ شعبان ١٤٢٤هـ. وفي ضوء إعلان الندوة كانت أهدافها كالآتي:

١- زيادة الوعي بأهمية التراث العمراني، كمصدر ثقافي واقتصادي.

٢- التعرف إلى سبل حماية التراث العمراني في المملكة،



وإعادة استخدامه ضمن إطار معاصر.

٣- استنتاج أسس ومعايير تخطيطية وتصميميه لتطوير الأحياء التقليدية، والرقي بالبيئة العمرانية الحديثة.

٤- التعرف على العوامل البيئية والثقافية المؤثرة في نسيج العمارة المحلية وطابعها.

٥- إبراز القيمة الاقتصادية للتراث العمراني وأهميته في التنمية الاقتصادية، وإلى توظيف التراث العمراني كرافد أساسي من روافد السياحة.

٦- تبادل الخبرات والتجارب في مجال توثيق مواقع التراث العمراني، وتسجيلها وتصنيفها والمحافظة عليها وإعادة تأهيلها.

٧- دراسة سبل التوفيق بين المحافظة على طابع وأصالة المدنية المحلية، ومتطلبات المدن العصرية، وإبراز أسس ومعايير تخطيط البناء والعمارة المحلية، والاستفادة منها في الارتقاء بالبيئة العمرانية.

وللحصول على نظرة شاملة لإدارة التراث العمراني، جرى اختيار باحثين من المملكة العربية السعودية، ومن خارجها من: اليمن وسوريا والأردن ومصر والإمارات العربية والمغرب. وقد جاءت الأوراق المقدمة في الندوة متوافقة مع المحاور المطروحة. وتركز الندوة على المحاور الآتية:

١ . الوضع الراهن للتراث العمراني.

٢ . حصر مواقع التراث العمراني وتصنيفها.

٣ . تقويم الوضع الراهن للتراث العمراني.

٤ . الأهمية الثقافية والاجتماعية والاقتصادية للتراث العمراني.

٥ . حماية التراث العمراني وتنميته وإعادة استخدامه.

٦ . التحديات والمعوقات التي تواجه الحفاظ على التراث العمراني وتنميته وتوظيفه.

٧ . دور الجهات المختلفة من أفراد وقطاع عام وقطاع خاص، في تنمية التراث العمراني وتطويره وإدارته.

٨ . التجارب المتميزة للدول والمؤسسات والمنظمات في مجال الاستخدام السياحي للتراث العمراني، على المستوى المحلي والعربي والعالمي وسبل تنميته والمحافظة عليه.

ولإدارة التراث العمراني كان لا بد للهيئة العليا للسياحة من دراسة الوضع الراهن للتراث العمراني حتى تتلمس المشكلات، التي يعيشها هذا المجال؛ ومن ثم تقوّم هذا الوضع. ومن التقرير الذي قدمته الهيئة العليا للسياحة في هذه الندوة، نستطيع أن ندرك وجود بعض المعوقات، التي تواجه هذا القطاع في المملكة، ومن أبرزها عدم وجود تنظيم مؤسسي خاص بالتراث العمراني، أو نظام تشريعي يتعلق بالتراث العمراني الوطني، ولا قائمة به، ولا سياسية للتعامل مع القرى العمرانية. هذا إضافة إلى تعدد الجهات المتعاملة معه، إذ تتداخل المسؤوليات ما قد يؤثر سلباً على الأداء المطلوب. فنظام الآثار السعودي يتطرق إلى المباني التاريخية ضمن الآثار الثابتة، التي يجب حمايتها؛ ولكن وكالة الآثار لم تستطع الإشراف على كل المباني التراثية، بسبب عجز التمويل ونقص الكادر الوظيفي المدرب وبعض السياسات الحكومية، على الرغم من الجهد الذي بُذل من ناحيتي الحماية والدراسة.

وقد أشار د. مشاري عبد الله النعيم إلى القيمة الأثرية لبعض المدن السعودية، مثل مدينة الهفوف خاصة الوسط التاريخي منها، الذي يضم عمارة تعود لعدة قرون. وهذه المدينة ورثت الكثير من أساليب البناء وتقنياته، ولها قيمة معمارية توجب على الجهات المسؤولة المحافظة عليها، بإجراء مسح ميداني لها وتصنيفها. كما تناولت ورقة الدكتور محمد عبد الهادي الشيباني مدينة العلا التاريخية، التي خُططت متوافقة مع ظروف الزمان والمكان، وقسّمت مبانيها تقسيماً وظيفياً يعكس الحياة الاجتماعية بجميع جوانبها. ولكن هذه المدنية تعيش حالة من الإهمال ويهددها الزحف العمراني، لذلك جرت المناشدة لبذل الجهود لإنقاذ ما تبقى منها.

ومن القضايا الأساسية، التي تتقاطع مع عملية إدارة التراث العمراني الوطني، قضية الحماية والمحافظة. ففي تقرير "الوضع الراهن للتراث العمراني"، في ضوء دراسات الهيئة العليا للسياحة، وجد أن الحماية محدودة وتنحصر فقط على المباني، التي تحت سلطة الآثار. أما المباني الأخرى



المملوكة للمواطنين، فإن العديد منها قد هُجر بسبب التحديث، وأصبحت مأوى للحيوانات والمخالفين للقانون. ومما يزيد الأمر سوءاً أن هذه المباني تتعرض للدمار يومياً، بسبب العوامل الطبيعية، وتعديات البشر بسبب التوسع العمراني الحديث، أو غيره من نشاط، خاصة بعد ارتفاع أسعار الأراضي. وعند التخطيط للمدن والقرى تُتجاهل هذه المباني من قبل الجهات الحكومية. وحتى المباني التي جرى مسحها وترميمها لم توظّف سياحياً، وأصبحت عبئاً مادياً على وكالة الآثار. وتعاني الجهات المسؤولة عن التراث العمراني من غياب الوعي بأهميته، وهو أمر يعد من العوامل المهمة في الحفاظ على التراث العمراني وتنميته. والجدير بالذكر أن الإدارات المسؤولة عن التراث في بعض الدول الغربية، تنفق ٣٠٪-٤٠٪ من ميزانياتها على تنمية الوعي، وعلى الدعاية والتعريف بهذا التراث (Fowler 1982: 19).

ولحل بعض هذه المشكلات، تستطيع الهيئة العليا للسياحة الافادة من التجربة المصرية في الحفاظ على التراث العمراني، من خلال البحث الذي قدمه م. حسن الجبالي وم. علاء عباس، ذلك أن المدن المصرية شهدت في مرحلة التطور والتوسع الصناعي هجرة عالية من الأرياف، مما أدى إلى الضغوط على البنية المعمارية؛ فاستبدلت المباني ذات القيمة التاريخية بالمباني المرتفعة. ونتيجة لذلك اندثرت المباني القديمة، وأصبحت الطرز المعمارية الأصيلة قاصرة على المناطق الأثرية والتاريخية. ومن خلال خطط تنمية شاملة للأقاليم والمدن المصرية، استطاعت الجهات المعنية من الحفاظ على الطابع الأصلي، والارتقاء بالبيئة العمرانية. واشتملت هذه الخطط على إستراتيجيات للتحكم في العمران في كل منطقة، في ضوء طبيعتها وخصائصها وإمكاناتها. ونتيجة لهذه الجهود، فإن هذه المناطق لم تعد تعاني من خلط مسبوق في الأشكال والمعالجات المعمارية، إضافة إلى أنها حافظت على تكويناتها المعمارية القديمة.

أما تجربة أمانة المدينة المنورة فتستحق الذكر هنا، بسبب حرصها على توثيق المعمار في هذه البلدة الطاهرة خلال تاريخها الممتد من نهاية العصر العباسي حتى بداية العهد السعودي، وذلك بعمل مجسم للمدينة داخل الأسوار، تضمّن أهم المعالم المعمارية، مثل: الحرم النبوي والمساجد والأحياء السكنية والأحواش والأسواق والمباني العسكرية والمباني الخدمية (المدينة المنورة في نهاية العصر العثماني وبداية العصر السعودي، د. جهاد الصفدي). وهناك تجربة مشابهة قدمها أ.عبد العزيز اللهيم، أورد فيها نتائج المسح التراثي للمباني الطينية في مدينة الرياض، وذلك لمعرفة الوضع الراهن لهذه المباني ومعرفة العناصر المعمارية المميزة لها، ووضع حلول علمية مدروسة من أجل المحافظة عليها. وقد استفاد الباحث من التقنية الحديثة في هذه الدراسة إذ أعدَّ برنامجاً خاصاً لإدخال نماذج المسح في الحاسب الآلي، وتسجيل البيانات ميدانياً وبصرياً. وفي مرحلة تحليل المعلومات وتصنيفها، تم تقييم المباني وتحديد مستوى أهميتها.

وفي تجربة لتأصيل التراث العمراني والمحافظة عليه، عرض م. حاتم عمر طه ورقة عمل تتناول المباني التراثية في مكة المكرمة، وطرق البناء المحلية، ومواد البناء المتوافرة، والملامح المعمارية المختلفة، لما لهذه المدنية من تاريخ طويل تعاقبت عليه الأجيال. وقد وفّت تلك العمارة باحتياجات المجتمع ,فهي عمارة وظيفية جاءت بنسب توافقية، فيها من الابتكار والأصالة ما يعكس القيم الإسلامية. ولذلك لا بد من الحفاظ على هذا الطابع الأصيل، وترميم بعض المباني التقليدية. وركّز الباحث على الرواشين والمشربيات كعناصر جمالية ووظيفية، إضافة إلى كونها حلولاً جيدة للفراغات، تُستخدم لواجهات المباني في المنطقة الغربية، ولها وظائف نفعية كثيرة. ويقترح الباحث إعادة استخدام الرواشين والمشربيات في العمارة بطرق عصرية، بحيث يستفاد منها في الناحية الجمالية والوظيفية، وكذلك لاستمرار هذا الطراز الجميل من التراث المعماري.

وفي عملية إعادة التأهيل والتوظيف، لا بد من التأكيد على ضرورة تحقيق الفوائد للمجتمع المحلي من طريق مشاركة الأهالي في المشاريع السياحية، خاصة الفعاليات الثقافية والاجتماعية، حتى يشعروا بقيمة المواقع الأثرية أو التراثية، وحتى يصبح هذا التراث جزء من حياتهم الآنية. وقد اقترح م. محمود زين العابدين أن يعاد تأهيل البيوت التقليدية بترميمها وإعادة الحياة إليها، من خلال تحويلها إلى مساكن أو مطاعم أو فنادق، وبذلك يُحافظ عليها من التدهور بعدما هجرها



أصحابها. ومن فوائد إعادة تأهيل هذه المباني، التواصل التاريخي بربط الحاضر بالماضي، وإعادة الحياة إلى هذه المناطق من طريق دعوة الأهالي للسكن فيها.

وقد كان من أهداف هذه الندوة دعوة القطاع الخاص للاستثمار في التراث العمراني، أسوة بالدول الأخرى التي بادرت إلى توظيف التراث لأغراض سياحية. وقد تناولت ورقة الغرفة التجارية توجهات القطاع الخاص نحو الاستثمار، في مواقع التراث العمراني في المملكة العربية السعودية. وكان واضحاً أن توجه القطاع الخاص نحو الاستثمار في هذه المواقع، يتطلب عرض حوافز للاستثمار من قبل الهيئة العليا للسياحة، كما يتطلب التغلب على المعوقات، التي قد تعترض المستثمرين لتلك المواقع. وهنا يمكن الاستعانة بالدول الأخرى، التي لها تجارب من النجاحات أو الإخفاقات، في استغلال التراث العمراني لأغراض سياحية. وتُذكر هنا تجربة الأردن في تنمية السياحة في مدينة الكرك التاريخية، التي أشارت إليها م. مرفت خليل، وقد استطاعت أن تحقق تنمية سياحية مستدامة، من خلال التغلب على بعض المعوقات، مثل: القوانين والأنظمة وملكيات الأراضي.

وعرض م. عبد الحكيم السياغي النجاحات والإخفاقات في تجربة مدينة صنعاء في اليمن، حيث قامت الهيئات الدولية بدراسة الوضع، ثم تبعها تدشين حملة وطنية ودولية لحمايتها وإنشاء المكتب التنفيذي للمحافظة على المدينة القديمة. وبدأت أعمال الحفاظ من خلال تنفيذ مشاريع البنية التحتية والترميم وإعادة التأهيل، للعديد من المعالم والمباني والرقابة والتفتيش والإشراف على أعمال الترميم، وإعادة البناء، ورفع مستوى الوعي بأهمية الحفاظ على التراث الثقافي والعمراني. وقد حققت هذه الأعمال نجاحاً كبيراً بتقديم بيئة أفضل للعيش والعمل، أدت إلى عودة السكان وزيادة فرص العمل والاستثمار. كما استطاعت اليمن التغلب على بعض المشاكل، التي نتجت عن هذه التنمية، مثل: التوسع العشوائي ومخالفات البناء. ولكن تم تدارك بعض هذه المشاكل بإقرار استراتيجية الثقافة وقانون المحافظة على المدن التاريخية، وتعديل مهام الهيئة، وإنشاء بيت للتراث في صنعاء، والمزيد من الصلاحيات، ومواصلة برامج التأهيل والتوعية، والتأكيد على تعزيز التعاون والتنسيق المتواصل بين الجهات ذات العلاقة.

من خلال هذه الأوراق ربما تستطيع الهيئة العليا للسياحة تلمس المعوقات، التي تعترض سبل الحفاظ على التراث وحمايته وتنميته. كما تجد الوسائل، التي سوف تساعدها على التغلب على هذه المعوقات، ومن ثم تحقيق تنمية مستدامه لهذا القطاع المهم من الثقافة. ولذلك جاءت التوصيات استجابة للحاجة الماسة لرفع شأن إدارة هذا الموروث الثقافي والرقي به.

أهم التوصيات:

خلصت الندوة إلى التوصيات التالية :

١- الدعوة إلى النظر إلى التراث العمراني في إطار التراث الوطني بمفهومه الشامل، الذي يضم التراث الأثري والعمراني والشعبي والحرف والصناعات التقليدية، والحفاظ عليه وتنميته واستثماره سياحياً، ومطالبة الهيئة العليا للسياحة بالعمل على وضع إطار مؤسسي ونظام وخطة تنفيذية.

٢- تنفيذ برنامج للتوعية بأهمية التراث العمراني يعتمد أسلوب المشاركة التفاعلية، وإدخال موضوع التراث العمراني في المناهج الدراسية.

٣- إعداد قائمة وطنية للتراث العمراني المحمي للمملكة العربية السعودية، وربطها بقاعدة معلومات إلكترونية مبنية على نظام المعلومات الجغرافية.

٤- إيجاد برامج تساعد على تأهيل الكوادر الفنية القادرة على الاضطلاع بمهام صيانة وترميم وتنمية مباني التراث العمراني.

٥- إحياء مواقع التراث العمراني المهمة في كافة مناطق المملكة، بإقامة أسواق شعبية دائمة وموسمية فيها، وتحويل بعضها إلى مراكز للحرف والصناعات التقليدية، وتنظيم فعاليات ومناسبات ذات علاقة بالتراث.

٦- العمل على توظيف قصور الملك عبد العزيز في كافة مناطق المملكة، بوصفها مباني تراث عمراني مميزة،



ولأهميتها التاريخية يجدر ترميمها وتوظيفها.

٧- إيجاد الظروف والبيئة الاستثمارية المناسبة، التي تشجع القطاع الخاص والمجتمعات المحلية على المشاركة والإسهام في تنمية التراث العمراني، ومنها وضع سياسة استثمارية واضحة ومغرية لمواقع التراث العمراني.

٨- تشكيل فريق من الجهات المنظمة لوضع برنامج عمل لتنفيذ هذه التوصيات، ومتابعة عملية التنفيذ.

وفي تقديري، يمكن النظر إلى هذه التوصيات من خلال إطار منهجي يرتكز على ثلاثة عوامل أساسية، تتعلق بإدارة التراث العمراني، بصفة عامة، ويمكن إجمالها في المحاور التالية:

١- الحماية : التراث العمراني مورد نادر، وهو السجل الأساسي لنشاط الإنسان في الماضي، ولذلك ينبغي على الهيئة العليا للسياحة أن تعمل على حماية هذا القطاع من الهدر والإهمال. وتتطلب الحماية إصدار قوانين تشريعية محلية تحدد صلاحيات ومسؤوليات الجهات الحكومية المعنية، وتوضّح الآليات التي يمكن بواسطتها حماية التراث العمراني، مثل: المسح، والتوثيق، والتسجيل، والترميم، ونزع الملكيات في الحالات الضرورية، ونشر الوعي. كما تتطلب الحماية الانصياع للقوانين الإقليمية والدولية، التي توقع عليها المملكة.

٢-البحث العلمي : في مجال البحث العلمي يُنظر للموارد الثقافية على أنها أوعية للمعلومات الحالية أو المحتملة، لنشاط الإنسان في الماضي؛ ولذلك فإن من وظائف إدارة الموارد الثقافية تحديد الوسيلة، التي يمكن أن تُستخلص بها هذه المعلومات. وللتراث العمراني في المملكة عدة وظائف، أهمها الوظيفة العلمية، التي من خلالها نستطيع الحصول على المعلومات الأثرية، والأدلة على نشاط الإنسان في الماضي. وقد يتعارض البحث العلمي للتراث العمراني مع قضية حمايته، إذ كيف يمكن لنا الحصول على المعلومات إذا لم نقم بهدم جزء من الموقع لدراسته، والتوصل إلى معرفة طريقة وتاريخ ومواد بنائه والأدوات المستخدمة في بنائه، وخاصة أن القوانين لا تسمح إلا بدراسة المواقع المهددة بالمشاريع التوسعية ؟ وبعبارة أخرى، كيف نوفق بين إدارة الموقع (حمايته)، وبين دراسته دراسة علمية؟ يذكر أحد الباحثين أنه يمكن عمل ذلك عن طريق إعداد خطة بحث مناسبة، تركّز على منطقة صغيرة بحيث تكون المعلومات الناتجة لها قيمة أكاديمية كبيرة (Fowler, 1982: 21).

٣- التنمية الاقتصادية : بعد عمل إجراءات الحماية اللازمة، وتحقيق أغراض البحث العلمي، يصبح التراث العمراني جاهزاً للتوظيف السياحي. ويمكن القول إن التراث أحد مقومات السياحة في العالم، وهو في حالة المملكة أبرز هذه المقومات. ويتطلب تحقيق سياحة مستدامة إشراك القطاع الحكومي والقطاع الخاص، نظراً لصعوبة قيام الهيئة العليا للسياحة بهذا الأمر وحدها. ولجذب المستثمرين ينبغي على الهيئة أن تقوم بالدراسات الاستثمارية، وتبرز عوامل الجذب السياحي، وتسهل الإجراءات القانونية، وتضمن وجود بنية تحتية، من مواصلات ومرافق خدميه لهذه المواقع. وأقترح على الهيئة العليا للسياحة أن تقوم بدراسات، وتضع اقتراحات لمشاريع تتعلق بتوظيف أنشطة وفعاليات ملائمة للاستثمار، في مواقع التراث العمراني، التي لها عوائد ومنافع مالية واقتصادية، بجانب مردوداتها الاجتماعية والترفيهية. وإذا عُرضت هذه المنافع الاقتصادية والاجتماعية على المستثمرين، فإن ذلك سوف يؤثر على عوائد وتنمية القطاع السياحي، وعلى سبل وكيفية استثمار القطاع الخاص لمواقع التراث العمراني.

وأخيراً يمكن القول إن الندوة كانت ناجحة بكل المقاييس؛ فمستوى الأوراق المقدمة ينم عن اهتمام كبير بالتراث المعماري كما أن التوصيات تصب في صميم خطط الهيئة العليا للسياحة، التي تعمل على تخطيط وتنفيذ مشروعات طموحة لحماية جميع ضروب التراث الوطني، والاستفادة منه ثقافياً واقتصادياً. ونظراً لنجاح هذه الندوة واستقطابها للعديد من المتخصصين في التراث العمراني، أدعو إلى عقد ندوات مشابهة في المستقبل القريب، لا تتناول التراث العمراني الوطني فقط، بل تتعداه إلى التراث الآثاري، بصفة عامة، بالنظر لانتشاره في أرجاء المملكة. كما آمل أن تنال المواقع الآثارية في هذا البلد الاهتمام والعناية، فيعمل على ترميمها وصيانتها، وحفظها، وتوظيفها للسياحة، باعتبارها رافداً من روافد الثقافة والإقتصاد الوطني.



أ. خيريه عبد الله الأصقه - قسم الآثار والمتاحف -الرياض
kh_alaska@yahoo.com

المراجع:

حمدان، هشام، ١٩٨٨، "مسأله الحماية الدولية للآثار"، **الفكر العربي**، مجلة الاتحاد العربي للعلوم الإنسانية، معهد الاتحاد العربي، بيروت م ٥٢، ص ٢٨ .

الثقافة التقليدية في المملكة العربية السعودية، مجلد العمارة، دار الدائرة الثقافية للنشر والتوثيق ، الرياض، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠ م.

وزارة المالية والاقتصاد الوطني ١٣٩٢هـ ، **نظام الآثار**، الرياض.

Fowler, Don 1982. "Cultural Resources Management". In: Michael B. Schiffer (ed), **Archaeological method and Theory**, Vol. 5: 19-21, Academic Press, New-York.

الندوة العلمية الخامسة لجمعية الآثاريين العرب

الجهة المنظمة: جمعية الآثاريين العرب.
مكان الانعقاد: جامعة القاهرة/ مصر.
تاريخ الانعقاد: ٨ - ١٠شعبان ١٤٢٤هـ، الموافق ٤-٦ أكتوبر ٢٠٠٣م.

عقدت جمعية الآثاريين العرب مؤتمرها السادس في جامعة القاهرة، خلال الفترة ما بين ٨-١٠شعبان ١٤٢٤هـ، ٤-٦ أكتوبر ٢٠٠٣م، وندوتها العلمية الخامسة تحت عنوان "دراسات في آثار الوطن العربي- ٤".

افتُتحت جلسات المؤتمر بآيات من الذكر الحكيم، وكلمات الترحيب والتقديم من الأمين العام للجمعية،: ومندوب كل من: مدير المجلس العربي للدراسات العليا، والأمين العام لجامعة الدول العربية، وأمين عام المجلس الأعلى للآثار المصرية، وأمين عام إتحاد الجامعات العربية، ورئيس جامعة القاهرة. وختمت جلسة الافتتاح بكلمة ألقاها المقرر العام للجمعية أ.د. علي رضوان.

وتلا جلسة الافتتاح تكريم الباحثين، الحاصلين على درع جمعية الآثاريين العرب لعام ٢٠٠٣م، وهم: أ.د. السيد محمود عبد العزيز سالم - أستاذ الحضارة الإسلامية (مصر)، المرحوم أ.د. طه باقر - أستاذ الحضارات القديمة (العراق)، أ.د. عبد القادر محمود عبد الله - أستاذ المصريات واللغة المروية (السودان). وتخلل الاستراحة افتتاح معرض اللوحات الفوتوغرافية (أضواء وظلال) للمواقع الأثرية ،التي زارها الآثاريون العرب خلال رحلتهم في سورية ولبنان، بعدسة أ.د. ياسين زيدان (جامعة القاهرة).

تفاعل المؤتمر هذا العام مع الكارثة التي ألمت بالعراق، وما لحق آثاره من تدمير وسلب ونهب، إثر الاحتلال الأمريكي له. ورفع المؤتمرون شعار: (آثار بلاد الرافدين قضية أثرية)، وخُصصت الجلسة الصباحية لآثار العراق القديمة والإسلامية، وفيها ألقيت محاضرات عامة، منها: "لمحات عن المجد العراقي القديم"، قدمها أ.د. علي رضوان؛ و"آثار بلاد الرافدين وريد العروبة وشريانها في الشرق الأوسط"، قدمها أ.د. ابراهيم العدوي، بينما قدّم د. ناهض القيسي، من جامعة بغداد ورقة بعنوان: "الوضع الراهن لآثار العراق تحت الاحتلال"، واستعرض قائمة الآثار المدمرة والمسروقة من المتحف الوطني في بغداد، والحالة المزرية التي أعيدت بها بعض القطع، التي أمكن إرجاعها إلى متحف بغداد.

وتابع المؤتمر الجلسة المخصصة لآثار العراق، إذ انقسمت إلى شقين: الأول: عالج آثار بلاد الرافدين القديمة، ألقيت فيها أربع محاضرات، بدلاً من تسع محاضرات مقررة ؛ كانت على التوالي: " تغيّر العواصم الآشورية القديمة"، و"مسمى العين في السومرية والمصرية القديمة وتأثيرها على العربية"، و"فكرة الملك البديل في العراق القديم"، و"التأثيرات الدخيلة في منحوتات مدينة الحضر بالعراق".

بينما عالج الشق الثاني: آثار بلاد الرافدين في العصر الإسلامي، وفيه ألقيت ثلاث محاضرات، بدلاً من سبع مقررة، ركّزت على بعض التأثيرات الفنية العراقية على مصر، منذ القرن السابع الهجري و" التأثيرات الزخرفية بين آثار العراق ومصر منذ العصور الوسطى". أما المحاضرة الثالثة



فقد تناولت "نقود الخليفة المهدي العباسي بمدينة السلام".
كما ألقيت محاضرة لم تكن مقررة في جدول أعمال المؤتمر، للباحثة العراقية قبيلة فارس المالكي بعنوان: "ضرورة الحفاظ على الموروث الأثري خلال الحروب، العراق أنموذجاً"، مع عرض للمواقع الأثرية التي لحقها الخراب أثناء الحروب، التي مرت بالعراق خلال العقود الثلاثة الأخيرة.

ولا شك، فإن عدم تمكّن عدد من أعضاء الوفد العراقي من الوصول إلى القاهرة ، حرّم الحضور من الاستماع إلى محاضرات عدة كانت مدرجة على جدول أعمال الجلسة. ومن جانب آخر، أدى تغيّب عدد من الباحثين من دول عربية أخرى لظروف مختلفة، الى إلغاء بعض المحاضرات، التي كانت مقررة في برنامج المؤتمر.

وقد قسّمت جلسات المؤتمر- كالعادة في كل مؤتمر - إلى ثلاثة محاور رئيسة، هي: الآثار القديمة، والآثار الإسلامية، والترميم. ووزعت الجلسات على قاعتين: ضمت الأولى محور الآثار القديمة ، وحوت الثانية محوري الآثار الإسلامية والترميم.

١- محور الآثار القديمة: أُلقيت في المؤتمر حوالي خمسين محاضرة، ركّزت على عدة جوانب، أهمها: الأديان، وتشمل عبادة الآلهة ورموزها وخصائصها والطقوس الدينية المقامة لها، وبناء المعابد الدينية إلى النصب الجنائزية.

كما ألقيت محاضرات في اللغات القديمة واشتقاقاتها ومدلولاتها الحضارية، وتبادل التأثر الحضاري، خاصة بين مصر وكل من ليبيا والسودان وفينيقيا، وبين الجزيرة العربية وشمال إفريقيا.

وشهد المؤتمر عدة محاضرات عن الاكتشافات الأثرية الجديدة في بعض المواقع الآثارية في الوطن العربي، مثل: بسيون غربية في مصر، وشمال نوميديا في الجزائر، وكهوف عراق الأمير في الأردن.

وكان نصيب عصور ما قبل التاريخ ثلاث محاضرات فقط، هي: "الأختام في الشرق الأدنى في فترة ما قبل التاريخ"، و"موقع عين حنش ومكانته الثقافية خلال العصر الحجري القديم الأسفل"، و"الحفريات الجزائرية في ما قبل التاريخ". إلى جانب موضوعات مختلفة، مثل: " التسلسل الزمني لكل من مملكتي سبأ ومعين من خلال الشواهد الأثرية"، وتبيان أيهما أقدم، إضافة إلى بعض المحاضرات في الفنون القديمة وإشكالية الحفاظ على التراث، ودراسة أ. د. عبدالقادر محمود عبدالله ، بعنوان: "دراسة مقارنة بين موائد القرابين السودانية القديمة (مويه) والمصرية (بطليمه)".

٢- محور الآثار الإسلامية: ركّزت الأبحاث بشكل رئيس في هذا المحور على العمارة الإسلامية، سواء المدنية منها أم الدينية. وعالجت عدة موضوعات، منها " إحياء المنزل الإسلامي وخصائصه في مدينة الفسطاط "، و"وحدة وتنوع العمارة الإسلامية"، و"القصر العباسي في بغداد نموذجاً"، و"مجموعة العمائر الإسلامية الدينية الباقية في دمشق من العصر المملوكي"، و"الزوايا الدينية في العمارة الدينية الليبية"، إضافة إلى محاضرتين عن "الأبواب الخشبية في العمارة الدينية والمدنية في المغرب والأندلس"، "والمدخل المنكسر في التراث المعماري".

كما ألقيت محاضرة عن كلٍ من: النقود والفن والمخطوطات، وهي: "نقود محمد بن بيهسي من دمشق وتبوك"، و"دراسة نماذج الأمومة لدى الطير والحيوان في الفن الإسلامي"، و"دور المرأة في المجتمع المغربي في القرن العاشر الهجري من خلال مخطوط عبد الله الهبطي"، إضافة إلى أعمال التنقيب في القيروان، و" إلقاء الضوء على الآثار والتراث والقوانين في الأردن وسوريا ولبنان".

٣- محور الترميم: توزعت أبحاث محور الترميم بين: "الاعتبارات من ترميم الزجاج الملون الأثري باستخدام أجهزة القياس الطيفي"، و"دراسة تجريبية لبعض المواد المستخدمة في العلاج الكيميائي للزجاج"، و"تقدير الثبات الحراري للرق والجلود المعالجة بالتقوية".

كما قُدّم بحث مشترك من قبل ثلاثة باحثين مصريين حول: "دراسة لعلاج وترميم وصيانة قبة ضريح الإمام الحسين رضي الله عنه في القاهرة"، إلى جانب بحث عن "ترميم القطع الخزفية والبلاطات بقصبة الجزائر في العهد العثماني". وباستثناء هذا البحث الأخير، فإن أبحاث الترميم الأخرى قدمت من قبل باحثين مصريين.

اقتصرت محاضرات الندوة على يومين فقط، وذلك بسبب



تغيب عدد من الباحثين العرب، الذين أدرجت أسماؤهم في جدول أعمال المؤتمر ، سواء من سورية، والسعودية، والعراق، وتونس. ومع ذلك فقد شهدت جلسات المؤتمر حضوراً مكثفاً، ضم إلى جانب المشاركين في المؤتمر باحثين وطلاب الدراسات العليا من جامعة القاهرة والجامعات المصرية الأخرى، ما أثرى المناقشات في كل جلسة.

إلى جانب ذلك فقد عقدت ندوات خاصة على هامش أعمال المؤتمر بين ذوي الاختصاص الواحد، كانت تقام في الاستراحات أو في نهاية الجدول اليومي لأعمال المؤتمر ما أدى إلى زيادة التفاعل وتبادل الخبرات بين المشاركين والحاضرين من الدول العربية، وإيجاد سبل التعاون بينهم، كل من موقعه في بلده.

توصيات المؤتمر

خرج المؤتمرون بعدد من التوصيات، هدفت في المقام الأول إلى الحفاظ على الآثار العربية، بشكل عام، وآثار وتراث العراق، بشكل خاص، وضرورة تشكيل لجنة لترميم وإصلاح الآثار العراقية، التي لحقها التخريب، وعمل قاعدة بيانات وموقع على الإنترنت للآثار العراقية والدول العربية الأخرى، والتوصية بتشكيل فريق يتولى صياغة مشروع آثار يُصادق عليه من جامعة الدول العربية.

وإلى جانب ذلك صدرت بعض التوصيات التنظيمية الخاصة بجمعية الآثاريين العرب، إذ اقترح تسميتها : "الإتحاد العام للآثاريين العرب"، إضافة إلى التوصية بعقد المؤتمر كل سنتين، في دولة عربية.

وقبل أن يعلن عن انتهاء أعمال المؤتمر، وجهت دعوة للحضور في اليوم التالي لافتتاح مكتبة جمعية الآثاريين العرب، وأكد المؤتر على التوصية بدعم المكتبة بالرسائل والأطروحات والكتب، من قبل الباحثين العرب لتكون مكتبة متخصصة في آثار الوطن العربي. وقد حضر افتتاح المكتبة عدد كبير من أعضاء الجمعية، وقدموا للمكتبة مجموعات من المؤلفات والكتب الآثارية القيّمة.

أحمد يوسف ذياب: قسم الآثار - كلية الآداب - جامعة دمشق - سوريا.

ملتقى اليرموك الثاني لدراسة النقوش والكتابات القديمة

الجهة المنظمة: **قسم النقوش بكلية الآثار والأنثروبولوجيا-جامعة اليرموك- الأردن.**

مكان الانعقاد: **جامعة اليرموك.**

تاريخ الانعقاد: **١١ - ١٣شعبان ١٤٢٤هـ، الموافق ٧-٩ أكتوبر ٢٠٠٣م.**

عُقد في جامعة اليرموك بمدينة إربد "الملتقى الثاني لدراسة النقوش والكتابات القديمة"، في الفترة ما بين ٧-٩ أكتوبر ٢٠٠٣م، والذي نظمه قسم النقوش بكلية الآثار والأنثروبولوجيا بجامعة اليرموك. وتأتي أهمية هذا الملتقى في أنه ناقش الموضوعات الجديدة والمهمة، المتعلقة بالنقوش والكتابات القديمة في منطقة بلاد الشام والجزيرة العربية. وقد حفل الملتقى بالعديد من الأبحاث والأوراق العلمية القيمة، التي ألقت الضوء على جوانب مختلفة من حضارة بلاد الشام وجنوبي الجزيرة العربية.

وقد عقد المؤتمر على مدار ثلاثة أيام، توزعت خلالها الأبحاث والأوراق المقدمة على اثنين وثلاثين جلسة علمية، بواقع ثلاث إلى أربع جلسات علمية متزامنة يومياً. وقد اشتملت على موضوعات متنوعة، خاصة بنقوش وكتابات منطقة بلاد الشام والجزيرة العربية: مثل النقوش الصفوية، والنبطية، والسريانية، والآرامية، واليونانية، واللاتينية، التي وجدت في مناطق مختلفة من بلاد الشام، والأردن، وسوريا، ولبنان، إلى جانب موضوعات أخرى جديدة تتعلق بحضارة جنوبي الجزيرة العربية، منها نقوش سبئية جديدة؛ ودراسات جديدة تتعلق بتأريخ اليمن القديم. وقدمت الأوراق والأبحاث باللغتين العربية والإنجليزية.

شارك في الملتقى أربعة وثلاثون باحثاً وأكاديمياً، من الدول العربية والأجنبية؛ فمن الدول العربية، شارك باحثون من: الأردن (البلد المضيف)، وسوريا، ولبنان، واليمن، كما حالت الظروف دون حضور مشاركين من



السعودية – وذلك لتزامن هذا الملتقى مع مؤتمر دراسات الجزيرة العربية المنعقد في السعودية في الفترة نفسها؛ ومن الجانب الأوروبي شاركت كلٌ من: ألمانيا، وبريطانيا، والدنمارك وفرنسا.

وقُسّمت جلسات الملتقى بمعدل ثلاث إلى أربع جلسات علمية متزامنة يومياً. وقد اشتمل محور الجلسة الأولى لليوم الأول من الملتقى، على النقوش والرسوم الصفوية، فجرى استعراض ومناقشة أربعة أبحاث. فتحت عنوان: "قواعد اللغة الصفوية"، قدمت الدكتورة "كيرستن إيكسل" – فرنسا– ورقة حول "الأفعال الدالة على العواطف في النقوش الصفوية"، ناقشت فيها بعض الأفعال الصفوية، مثل: "وجم، نجع، مظلل، وجع...إلخ"؛ كما ألقى الدكتور زياد طلافحة –الأردن– ورقة بعنوان: "ظاهرتا الإمالة والإبدال في النقوش الصفوية"؛ أما ورقة الباحث إبراهيم صدقة – الأردن– فقد كانت عن "فهم جديد للفعل "خ ر ص" في النقوش الصفوية. وعن جانب الرسوم الصفوية جاءت ورقة الباحث محمد إبراهيم عبابنة –الأردن– بعنوان: "مشاهد الرقص والموسيقى في الرسومات الصفوية"، وفيها استعرض مشاهد الرقص والأدوات الموسيقية المرافقة للراقصين في الرسوم الصخرية. وقد تميز بحثه بالعرض الجيد من خلال الصور والشرائح التوضيحية المصاحبة له.

وضم محور الجلسة الثانية، ثلاثة أوراق متنوعة، قدمها كلٌ من الدكتور محمد علي عبابنة –الأردن– فكانت الورقة الأولى بعنوان "روث" دراسة إثنوغرافية ولغوية في ضوء الحياة الريفية في شمال الأردن". أما الدكتور محمود الزعبي –سوريا– فكانت ورقته الثانية بعنوان: "كتابة أسماء المدن الأردنية في النصوص المصرية". فيما قُدمت الورقة الأخيرة من قبل الدكتور عمر الغول –الأردن– عن: "الهويات اللغوية في أسماء الأعلام المتضمنة اسم الإله قوس".

وأما الجلسة الثالثة، فحمل محورها: الكتابات اليونانية واللاتينية، ألقى فيها الدكتور حسين القدره –الأردن– موضوعاً حول "العناصر اللغوية العربية في النقوش اليونانية"، استعرض فيه الأسماء العربية التي جاءت في النقوش اليونانية. أما د. إسماعيل ملحم فقد قدم بحثاً مشتركاً مع الباحث عبد القادر الحصان –الأردن– بعنوان: "كتابات فسيفسائية من بيت إيدس وزمال في شمالي الأردن"، وهي كتابات مكتشفة على أرضيات فسيفسائية. وتميزت المحاضرة بالعرض الجيد من خلال الشرائح والمخططات التوضيحية للموضوع. فيما قدّم آخر أبحاث الجلسة د. نبيل عطا الله –الأردن– بعنوان: "نقش لاتيني من شمالي الأردن".

وأما الجلسة الرابعة والأخيرة في اليوم الأول، فقد اشتملت على ثلاث أوراق متنوعة، جاءت الورقة الأولى للدكتور يحي عبابنة –الأردن– عن: "البرزخية واللغات السامية: دراسة تاريخية"؛ أما الورقة الثانية فقد كانت بعنوان: "إله تدمر الأعلى"، للباحث د. زياد الشرمان – الأردن–. كما قدم د. نبيل عطا الله ورقة مشتركة مع الباحث نوفل خصاونة –الأردن– بعنوان: "نقوش يونانية مؤرخة للفترة الإسلامية من الأردن".

وحفلت الجلسة الأولى في اليوم الثاني بأربعة أوراق، متعلقة بالنقوش الآرامية والسريانية، منها بحث الدكتور كابي أبو سمرة –لبنان: قراءة جديدة لـ "نقش سرياني من كنيسة القديس ميماس في شمالي لبنان". أما الدكتور "راينهار ليمان" –ألمانيا– فكانت ورقته حول: "الحيز والنحو والعروض في نقش يحو ملك من جبيل". كما قدمت الدكتورة "فرانسواز بريكيل شاتونيه" –فرنسا: "النقش الآرامي المنشور مؤخراً من يانوح (لبنان) ومسألة اليطوريين". وأخيراً الدكتورة "ماريا غوريا" –فرنسا– التي أختتمت الجلسة الأولى ببحث عنوانه: "نقشان سريانيان من الحرة الأردنية".

وفي الجلسة الثانية نوقشت ثلاث أوراق، اثنتين منهما أرتبطا بالكتابات العربية المبكرة، الأول للدكتور فالح حسين –الأردن– عن: "مسألة تنقيط الحروف العربية في ضوء النقوش والبرديات العربية المبكرة"؛ والثاني للدكتور نايف القسوس –الأردن– عن: "دلالة الكلمات الدنيوية المضروبة على العملة النحاسية الأموية قبل إصلاح النقد وبعده". أما البحث الثالث في هذه الجلسة، فقدمه الأستاذ حميد حمادة –سوريا– عن "طقوس دينية سورية قديمة من إيمار



(مسكنة) على الفرات من القرن الثالث عشر قبل الميلاد".

وكانت الجلسة الثالثةعن موضوعات تتعلق بحضارة جنوبي الجزيرة العربية (اليمن القديم)، قدمت خلالها الدكتورة عميدة شعلان -اليمن- بحثاً بعنوان: "مبخرة عليها نقش سبئي جديد للمعبود إلمقه"، استعرضت أهمية البخور في منطقة الشرق القديم، وأنواع المباخر التي عرفت في منطقة الجزيرة العربية، ثم دراسة تحليلية لغوية للنقش. أما الدكتورة "إيفونا غايدا" -فرنسا- فقد جاءت بنقش سبئي جديد بعنوان: "نقش جديد لرب شمس، ملك سبأ وذو ريدان". كما قدم الباحث "مايكل ماكدونلد" -بريطانيا- ورقة حول: "استدلالات جديدة لوضع تسلسل زمني مطلق لليمن القديم"، وتتمثل أهمية هذه الورقة في إجراء دراسات علمية بالطرق والتقنيات الحديثة، والإفادة من نتائج تحليل عينات من النصوص الخشبية (نصوص الزبور اليماني) بكربون ١٤، في وضع تصور علمي، حول التسلسل الزمني لتاريخ اليمن القديم.

وألقيت في الجلسة الرابعة: ورقتان، الأولى للدكتور سلمان القضاة -الأردن- عن: "الأسماء، وألفاظ الحضارة في القرآن الكريم"؛ والثانية للدكتورة آمنة الزعبي -الأردن- عن: "اللغات غير العربية معياراً لغرابة اللغات".

واشتمل اليوم الثالث والأخير في هذا الملتقى على جلستين: محور الجلسة الأولى منها، حول أسماء المواضع ودلالاتها، ألقى فيها الدكتور زيدان كفافي -الأردن- ورقة بعنوان: "رحوب" و "ينو عام": موضعان من العصر البرونزي المتأخر في شمالي الأردن: دراسة في أسماء المواضع". أما الدكتور "شتيفن فيننغر" -ألمانيا- فقد كانت ورقته بعنوان: "يَفْعَلُ: صيغة قديمة من صيغ أسماء المواضع العربية ودلالاتها". وفيما جاء بحث الدكتور هاني هياجنة -الأردن- بعنوان: "نظام الفعل في لغة النقوش العربية الجنوبية القديمة المكتوبة على الخشب"، ويعد هذا البحث إضافة جديدة لقواعد اللغة اليمنية القديمة، وذلك من واقع النصوص الخشبية (خط الزبور اليماني).

أما الجلسة الثانية، فقد تناولت موضوعات تتعلق بتاريخ الأنباط وحضارتهم، وقد ألقى الدكتور أحمد العجلوني - الأردن- ورقة بعنوان "الملك النبطي الحارثة الرابع: تناول نقوشي وتاريخي". وقدم الباحثان: د. يونس شديفات ود. رافع حراحشة -الأردن- بحثاً مشتركاً بعنوان: "نقش ثنائي اللغة نبطي صفوي في مدفن من البادية الشمالية الشرقية الأردنية"، كما قدم الباحث صلاح سعيد - الأردن- ورقته حول: "ملاحظات على النقوش النبطية واليونانية من حملة جامعة برنستون إلى أم الجمال". واختتمت الجلسة الأخيرة للملتقى بورقة مقدمة من الدكتورة "ماري جان روش" -فرنسا- بعنوان: "نقش حيان على الصنم ذي العيون من البترا".

وقد أوصى المشاركون في الملتقى بنشر بحوث المؤتمر.

د. عميدة محمد شعلان: قسم الآثار-كلية الآداب-جامعة صنعاء، ص.ب. ١٢٣٥٧، صنعاء- الجمهورية اليمنية، البريد الإلكتروني: Amida_Sholan@hotmail.com

المؤتمر الثاني للعلوم والتكنولوجيا في الآثار والمحافظة عليها

الجهة المنظمة: **معهد الملكة رانيا للسياحة والتراث - الجامعة الهاشمية الزرقاء - الأردن.**

مكان الانعقاد: **الجامعة الهاشمية.**

تاريخ الانعقاد: **١٣ - ١٧شوال ١٤٢٤هـ، الموافق ٧-١١ ديسمبر**

للعام الثاني على التوالي، يعقد "معهد الملكة رانيا للسياحة والتراث" بالجامعة الهاشمية في الزرقاء بالأردن، مؤتمراً حول "علوم وتكنولوجيا الآثار والمحافظة عليه". ويهدف هذا المؤتمر، الذي يُدعى إليه مختصون في علوم وتكنولوجيا الآثار، إضافة إلى الآثاريين من شتى أنحاء العالم، إلى البحث بشكل خاص في كيفية المحافظة على التراث الآثاري، وإدارة المصادر الثقافية، وكان الأمر لا يخلو، عادة، من عرض لآخر المكتشفات الأثرية.

ولهـذا المؤتمر لجنة علمـيـة، تتـشكل - في الغـالـب - من المتـخـصـصـين في الآثار والعلوم ذات العـلاقـة، في الأردن وخـارجـه. ويرأس اللجنة أ. د. طـلال العكشـه، نائب رئيس الجامعة الهاشمية، عميد معهد الملكة رانيا للسياحة والتراث في الجامعة. وتتولى هذه اللجنة تقويم الأبحاث ودراستها، قبل قبولها في المؤتمر. كما أن للمؤتمر لجنة تحضيرية، تتكون من أعضاء الهيئة التدريسية، وكبار العاملين في معهد الملكة رانيا.

ولأهمية هذه الدراسات، ولإعطائها أولوية، لدى جميع دول العـالم، فـقـد عـقـد مـعـهـد الملكة رانيـا العـزم على انعـقـاد هذا المؤتمر بشكل دوري كل عـامين، كـمـا أقـر عـقـد ندوة أو ورشـة عمل بين كل مؤتمر وآخر، يتـركـز البـحث فيـهـا حول مـوضـوع محدد.

وقـد انعـقـد المؤتمر، هذا العـام في فندق البـحـر الميت العلاجي، بينما جرى حفل الإفتتاح ومحاضرات اليوم الأول في مـقـر الجـامـعـة الهـاشـمـيـة بالـزرقـاء. وقـد شـاركـت في تمويل المؤتمر هذا العام، إضافة إلى اليونسكو والجامعة الهاشمية، مجموعة من المؤسسات الوطنية.

اسـتـمـرت جلسـات المؤتمر خـمـسـة أيام، بمشـاركـة علمـاء ومتخصصين من ٢٥ دولة، من مختلف إنحاء العـالم، ناقشـوا خلالها ١٥٠ ورقة عمل متخصصة في: البحث الآثاري، وكيفية المحافظة عليه، واستثمار التراث الأثري في الدخل القومي، عن طريق تسويقه سياحياً وعالمياً. وإضافة إلى أوراق العمل، فقد نظّم القائمون على المؤتمر ورشات عمل، مدة كل منها ساعتين لمناقشة موضوع مهم ذو علاقة بالتراث الثقافي.

محاور المؤتمر:

١ . المحـور الأول، وعنوانه: "تخـريب المخلفات الأثرية"، وناقش ست أوراق بحثيه، تناولت دراسات حول كيفية مواجهة تخريب المواقع الأثرية، واقتراحات حول كيفية حماية الآثار من السرقة والتخريب، إضافة إلى دور دائرة الجمارك الأردنية، في ضبط الآثار العراقية المسروقة.

٢ . المحـور الثـاني، ويتـعلق بـ "دراسـة القطع والمواقع الأثرية"، وتناول فيـه البـاحـثـون مـجـمـوعـة من المواقع الأثرية الأردنيـة بالدراسة، خاصة مدينة البتراء.

٣ . المحور الثـالث، وتناول "إدارة المصـادر التراثيـة"، مـن خـلال ستة أبحاث، ركّزت على ضرورة توعية المواطنين بأهمية التراث الثقافي.

٤ . المحـور الرابع، وركّـز على أهمـيـة الأسـاليب الحـديثـة في دراسـة الآثار، وتوظيف طرق الاسـتـشـعـار عن بعـد في البـحث االأثري، والاكـتـشـافـات الأثـرية وتوثيق المواقع والمعالم الأثرية، باسـتـخـدام الطـرق العلمـيـة الحـديثـة. كـمـا تـطـرق المؤتمرون إلى أهمية إدارة المواقع السياحة بشكل علمي.

٥ . المحـور الخـامس، وعنوانه: "المتاحف وكيفية إدارة المصـادر التراثية"، وقدّم فيه الباحثون ست أوراق علمية، أهمها الورقة، التي تحدثت عن "المتحف الوطني الأردني"، الذي ما يزال تحت الإنشـاء. ويرى القـائمـون عليـه أن وظيـفـة المتـحف هـي في الأسـاس تربوية، إضـافـة إلى تقـديم قـصـة الأردن الحـضـارية للزائر من خلال معروضات المتحف.

٦ . المحـور السـادس، وفيـه قـدّمت دراسـات حـول إمكانيـة دراسـة العناصـر الآثارية وتحليلها، والمحافظة على الآثار من خلال استخدام طرق من شأنها حماية هذه المقتنيات الآثارية المهمة، دون تدمير أجزاء من هذه الآثار لأغراض الدراسة " (Non Destructive Technique). كما كانت هناك أوراق ناقشت موضوعات مختلفة، مثل: الجيور أركيولوجي والبيئة والآثار والنقوش.

٧ . المحـور السـابع وعنوانه: "الآثار وإدارة المصـادر التراثيـة"، وللأسف فإن عدد الأوراق التي قدّمت لهذا المحور كان قليلاً، مقـارنـة بما قـدم فـي المحاور الأخـرى. ولغياب بعض المشاركين، فقـد تـركّـزت الأبحاث حول منطقـة مدينة الـزرقـاء فـي الأردن "قصر شبيب والسخنه".

٨ . أمـا المحـور الثـامن، فـقـد تنـاسب وأحـداث هذا العـام، إذ تناول بالدراسـة كيفيـة حمـاية التـراث الثقـافي، خـلال الأزمـان العـسكرية مع إعطـاء أمـثـلة من فلسطين والعـراق. وقـد أثـارت الأوراق، التي ألقيت في هذه الجلسـة، نقاشاً بين عدد كبير من المشاركين بالمؤتمر.

٩ . وقـد تناول المحـور التـاسـع قـضـيـة المحـافظة والتـرمـيم، للمـصـادر الثـقـافـيـة. وتركـزت الأوراق، التي قـدمت في هذه الجلسة، على إعطاء أمثلة من الأردن واليمن.

١٠ . وأمـا المحور العـاشـر، فقد تناول بالبحث دراسـة التقنيـات القـديمة في الصناعـات الأثرية. وقـد كـانت الأوراق المقـدمـة

مفيدة وشيّقة، قدّم فيها الباحثون أفكاراً جديدة، مثل كيفية نحت الصخر في مدينة البتراء الأثرية، وكذلك صناعة المفاتيح عبر العصور، وطرق الحصول على الماء بواسطة الشادوف.

١١ . تركز المحور الحادي عشر حول الدراسات السياحية ، فقد قدّمت ست أوراق، تحدثت جميعها عن السياحة في الأردن؛ منها دراسة حول السياحة الدينية بجنوبي الأردن، من وجهة نظر تاريخية وأثرية، وأخرى حول تأهيل ثلاثة من مدن الديكابوليس، هي: أم قيس، وقويلبه، وطبقة فحل الشمالي، في الأردن. كما كانت هناك ورقة عمل تحت عنوان: (The Jordan Tourism Board as the National Marketing Organization).

١٢ . وتناول المشاركون في المحور الثاني عشر "إدارة المصادر الثقافية"، قدمت عدة دراسات، أهمها الدراسة، التي تناولت تحويل مبنى دار السرايا في مدينة اربد إلى متحف من حيث إعادة تأهيل المبنى، بعد إجراء الصيانة اللازمة له.

١٣ . أما المحور الأخير، فقد تناول بالدراسة استخدام طرق غير مدمره في دراسة الآثار وتحليل الفخار (Archaeometery). وقد قدم الباحثون في هذه الجلسة، التي كانت الأخيرة، مجموعة من الدراسات، تناولت، بشكل خاص، الملاط الذي يربط بين الحجارة المستخدمة في البناء، وكذلك الفسيفساء، إضافة إلى موضوع آخر هو "التأريخ باستخدام حلقات سيقان الأشجار" (Dendrochronology).

ورشتا العمل:

وإضافة إلى محاور المؤتمر الثلاثة عشر المذكورة أعلاه، فقد نظّم المشرفون على المؤتمر ورشتي عمل وكلمة رئيسية (Keynote) عنوانها: "القيمة الثقافية للتراث لدى المجتمعات المتوترة " (Valuing Cnltural Bn: It Heritage in Tensioned Societies)، قدمها الدكتور هشام القاضي، وهو أستاذ هندسة العمارة في جامعة " أولستر Ulster"، في المملكة المتحدة. أما ورشتا العمل فقد كانتا على النحو التالي:

١ . الورشة الأولى، وعنوانها: "حماية التراث الثقافي في وقت الأزمات" (Protection of Cultural Heritage During Times of Conflicts) وتحدث فيها ستة من المشاركين، ركزوا دراساتهم على ضرورة حماية الآثار في كل من العراق وفلسطين.

٢ . الورشة الثانية، وعنوانها: "خصخصة وإدارة المواقع الأثرية في الأردن"، وشارك فيها خمسة من الباحثين، ناقشوا إمكانية خصخصة الموارد الأثرية الأردنية. وعلى الرغم من أن بعض المشاركين وافق على الخصخصة، إلاّ أن الغالبية، لم توافق عليها. وقد رأى معظم المشاركين ضرورة توعية المواطنين بأهمية التراث الثقافي، وإصدار القوانين والتشريعات الملائمة، قبل السماح بخصخصة التراث الثقافي.

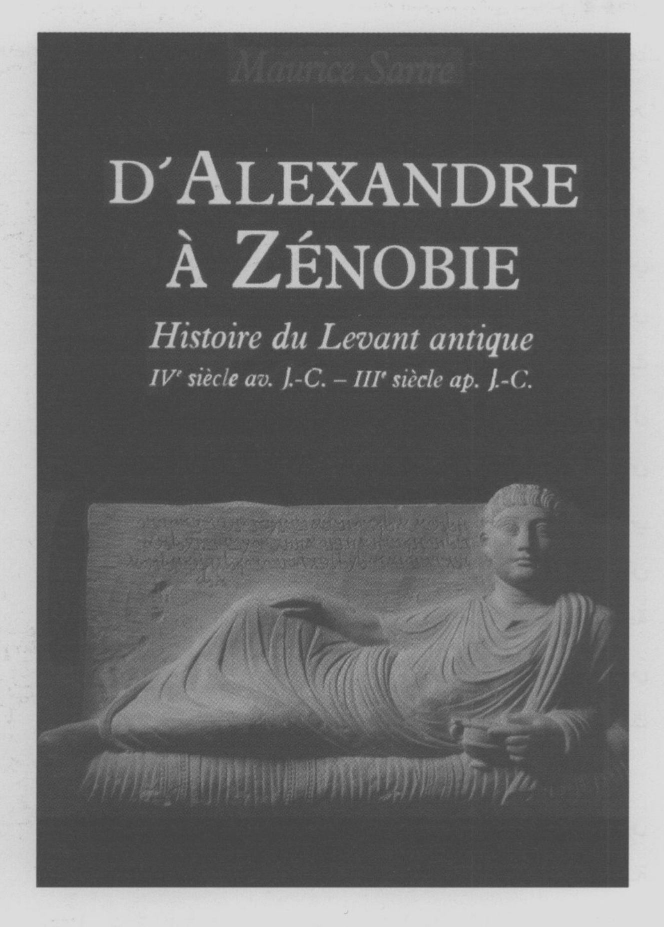
توصيات المؤتمر:

اتفق المشاركون في المؤتمر، على أن موضوع الدمار والتخريب، الذي تواجهه المواقع الأثرية هو من أهم المشكلات، الواجب مواجهتها، بتطبيق المواثيق والقوانين الدولية الخاصة بالحفاظ على المواقع الأثرية. وحددت لجنة التوصيات، التي انبثقت عن المؤتمر، أنواع الدمار والتخريب، التي تندرج تحت هذا الموضوع، وهي ناتجة، في الغالب، بسبب الحروب والصراعات الإقليمية والدولية، والاتجار غير المشروع بالآثار، وكذلك المشاكل الاجتماعية مثل تدني مستوى الوعي بأهمية التراث. كما أكدت التوصيات أهمية توعية الناس بأهمية موروثهم الثقافي، وأن التعليم والتقدير والاحترام والتسامح والتبادل الثقافي، هي الركائز الأساسية في التعامل مع التراث الثقافي في حالة السلم. أما في حالة وجود نزاعات أو صراعات، فقد أوصت اللجنة بضرورة وجود لجنة طوارئ، تكون جاهزة للتصدي للأخطار، التي ستؤثر على التراث الإنساني.

كما أكدت التوصيات أهمية التوعية الثقافية، وأعمال التوثيق والتسجيل للآثار المنقولة وغير المنقولة، والمحافظة عليها خلال الأزمات، ووضع إستراتيجية لمراحل التدخل للحفاظ عليها، والتخطيط لصيانة وإدارة هذا التراث في فترة الصراعات، للوصول إلى تراث ثقافي محمي وبلا حدود.

أ.د. زيدان عبدالكافي كفافي - كلية الآثار والأنثروبولوجيا - جامعة اليرموك- اربد - الأردن

عرض الكتب



اسم الكتاب: من الإسكندر إلى زنوبيا. تاريخ بلاد الشام القديمة من القرن الرابع ق. م. إلى القرن الثالث ب. م.

المؤلف: موريس سارتر.

الناشر: دار فايار.

سنة النشر: ٢٠٠٢م.

رقم التصنيف الدولي: ٧-٦٠٩٢١-٢١٣-٢.

مقاس الكتاب: ١٥ × ٢٣,٥ سم.

عدد الصفحات: ١١٩٤ (وتشمل ٧٢ شكلا ولوحة).

عرض: مولاي محمد جانيف

شكّل كتاب موريس سارتر (D'Alexandre à Zénobie. Histoire du Levant antique, IVe siècle av. J.-C. - IIIe siècle ap. J.-C.)، الصادر مؤخراً عن منشورات دار فايار الباريسية، حدثاً علمياً ذا أهمية خلال سنة ٢٠٠١، مثيراً العديدَ من التعليقات والردود. وكان نفاد طبعته الأولى حافزاً للناشر على طَبْعِه ثانيةً. والكتاب إذ يُغطي تاريخَ بلاد الشام -كلَّ بلاد الشام- خلال الفترة الممتدة بين القرنين الرابع قبل الميلاد والثالث بعد الميلاد، يُعدُّ محاولة جادة في التركيب (synthesis) لا نجد ما يماثلها إلا في أعمال فرانسوا-ماري أبل (F.-M. Abel)، أو جون غرينغر J. D. Grainger)؛ مع تفرد كتاب موريس سارتر بالشمولية، التي تستلزم معرفةً عميقةً بمختلف الجوانب المتعلقة بتاريخ المنطقة، خلال الفترتين الهلنستية والرومانية.

والحق، فإن المؤلف، الذي اشتغل طويلاً على النقوش اليونانية والرومانية، جمع منها كماً كبيراً نشره في مدونات جليلة الفائدة، وألّف مصنفات مهمةً، نذكر منها، على سبيل المثال لا الحصر، كتابَه الذي حمل عنوان: "الشرق الروماني" (L'Orient romain)، ومصنّفَه عن بصرى قبل الإسلام، قد أبان في كتابه الأخير "من الإسكندر إلى زنوبيا. تاريخ بلاد الشام القديمة من القرن الرابع ق. م. إلى القرن الثالث ب. م." عن مقدرة مذهلة على التركيب وجمع شتات مادة مبثوثة في مصادر عدة، لا تخلو من ثغرات.

يتألف كتاب موريس سارتر من واحد وعشرين فصلاً غطّت على امتداد ما يزيد عن ألف صفحة تاريخَ بلاد الشام، خلال فترة تكاد تناهز سبعة قرون، تبدأ قبيل اجتياح الإسكندر المقدوني للمنطقة سنة ٣٣٣ ق. م. ولا تنتهي إلا مع تصاعد نفوذ ملوك الحيرة اللخميين، خلال النصف الأول من القرن الرابع ب. م.

لِمَ سورية ؟ ولِمَ هذا الإطار الزمني تحديداً؟ سؤالان حاول المؤلف الإجابة عنهما باختصار في مقدمة كتابه. فلموريس سارتر، فإن سورية في العهود القديمة هي حيز جغرافي، قد يضيق ليقتصر فقط على الأجزاء الداخلية من بلاد الشام، أي على المنطقة، التي استوطنها الآراميون وأطلقوا

عليها اسمَ "كلّ آرام"، منذ مستهل الألف الأولى ق. م. على الأقل. وقد يتسع ليشمل كلَّ المنطقة الممتدة من البحر الأبيض المتوسط غرباً، حتى نهر الفرات والبادية السورية شرقاً، بما في ذلك فينيقيا وجنوبي بلاد الشام. والإطار الجغرافي الأخير هو الذي اختاره المؤلف حيزاً جغرافيا لدراسته. أمّا لِمَ الفترة الممتدة بين القرنين الرابع ق. م. والقرن الثالث ب. م.، أو تحديدا بين سقوط المنطقة تحت سيطرة الإسكندر المقدوني وخلفائه، وبين احتلال تدمر من قبل أورليانُس (Aurelianus)، فإن موريس سارتر أراد تتبعَ الأحداث ودراستَها على المدى البعيد. وإذا كان اختياره لاحتلال الإسكندر الكبير للمنطقة كمنطلق لدراسته، اختيارا مبرَّرا لأن هذا الحدث شكل نقطة تحول عظمى في التاريخ السياسي لسورية، فإن توقفه عند سقوط تدمر في يد الرومان لم يكن مبرراً إلا بالقدر الذي يمكن أن نُعدّ فيه هذا الحدث فاتحةً لأحداث لاحقة، بلغت ذروتَها في عهد ديوكلتيانُس (Diocletianus) وإصلاحاته، خلال نهاية القرن الثالث وبداية القرن الرابع ب. م.

الفصل الأول (المصادر، ص ١٧-٣٣) هو عرضٌ مستفيض للمصادر المختلفة، التي ضمت أصنافاً أربعة: المصادر الأدبية والتأريخية، النقوش، البرديات والمخطوطات الجلدية ثم الآثار. وفي استعراضه للصنف الأول من المصادر، لا يُخفي موريس سارتر أحاسيسَه المتراوحة بين الأمل والخيبة؛ الأمل الذي تمليه النصوص عندما تكون معاصرة، غزيرة وصادقة تسعف المؤرخ على إعادة بناء الحدث، والخيبة عندما تنتفي كل الشروط السابقة فتنعدم المصادر المعاصرة، ويكثر الغموض والثغرات. والحق أنه إذا كانت المصادر الأدبية والتأريخية المتاحة عن فترة الإسكندر وخلفائه تبعث نسبيا على الأمل، لأن هذه الفترة موثقةٌ بنصوص نُقلت عن أشخاص عاصروا الإسكندرَ، بل منهم من كان ضمن حاشيته مثل بَطليمُس وكليطارخُس وأرسطوبولُس، فإن ما نمتلكه من مصادر عن فترة ما بعد الإسكندر، تحديداً القرن الثالث ق. م.، لا يبعث إلا على الخيبة. ذلك أن المصادر المتعلقة بتاريخ سورية خلال هذه الفترة لا تعدو كونَها شذراتٍ ضئيلةَ الفائدة، وعلينا انتظار المؤرخين الكبار، الذين عاشوا خلال الفترة الرومانية المبكرة، مثل ديودوروس الصقلي وسترابو ونيقولا الدمشقي وفلالفيوس يوسفوس... لنحصل على نصوص بالغة الأهمية عن الفترة الهلنستية بأكملها.

أما الفترة الرومانية المبكرة، فلا تقدم المصادرُ المتاحة عنها فيما يخص تاريخَ سورية سوى شذرات متفرقة، إفادتُها ضئيلة في رسم معالم تاريخ المنطقة خلال هذه الفترة؛ وإن وجب القول إن التعميم هنا لا ينطبق على كل المناطق السورية، إذ نتوافر على معلومات لا بأس بها عن تاريخ فينيقيا، خلال هذه الفترة، بفضل بعض المؤلفات، التي وإن لم تصلنا كاملة، مثل "التاريخ الفينيقي" لـ فيلون البيبلوسي (Philo of Byblos)، إلا أنها أسهمت في تعميق معرفتنا بتاريخ الساحل السوري-اللبناني، خلال الفترة الرومانية. ولعلنا نستغرب ما ذهب إليه المؤلف حين استنتج أننا لا نجد نظيراً سورياً لـ مانيثون المصري، أو لـ بيروسوس البابلي، أي مؤرخاً محلياً صنّف باليونانية تاريخاً موجهاً للإغريق (صفحة ١٩)، ذلك أن فيلون البيبلوسي يشكل النظيرَ الحقيقيَّ للاثنين، وإن جاء زمنياً بعدهما، أو اقتصر تاريخُه على فينيقيا.

وقد نالت المصادر النقوشية والكتابية (البرديات والمخطوطات...) بدورها اهتمامَ المؤلف، الذي خصص لها سبعَ صفحات استعرض فيها أنواعَ النقوش المتاحة خلال الفترتين الهلنستية والرومانية، من نقوش فينيقية وعبرية وآرامية وعربية ويونانية ولاتينية. ولم يستبعد المؤلفُ من دائرة اهتمامه النقوشَ الجنائزية، التي غالبا ما تجاهلها المؤرخون، مقدراً أن هذه النقوش تقدم للباحث، من خلال الأسماء وسلاسل النسب الواردة فيها، معلوماتٍ كافيةً لتحقيق دراسة جيدة عن سكان المنطقة.

أما المصادر الآثارية، فلم يكرّس لها المؤلف أكثرَ من ثلاث صفحات استعرض فيها أهمَّ الاكتشافات، التي تحققت في هذا الميدان، منذ ما يناهز القرنين. وهو لم يُخفِ أسفَه على إندثار المآثر الهلنستية. صحيح أن هناك الكثيرَ من المدن السورية العائدة لهذه الفترة، مثل أنطاكية وأفامية واللاذقية... ولكن هذه المدن، التي استمر الاستيطان في معظمها حتى الفترة الإسلامية، فقدت إلى حد كبير معالمَها الهلنستية بفعل الاستيطان اللاحق، خلال الفترتين الرومانية والبيزنطية. بيد

أن الوضع يختلف للآثار العائدة للفترة الرومانية، التي احتوت مدنُ تدمر وبصرى وبعلبك وجرش... الكثيرَ منها. و لا ينسى المؤلف في معرض حديثه عن المصادر الآثارية، الإشارةَ إلى أهمية المعالم، التي تقدمها القرى السورية العائدة لهذه الفترة، وأبرزها قرى المنطقة المعروفة باسم الكتلة الكلسية (le Massif Calcaire)، أي منطقة أنطاكية وجوارها في الشمال، ثم قرى حوران في الجنوب.

"سورية في عهد الغزو" هو العنوان الذي أعطاه موريس سارتر للفصل الثاني (ص ٣٤-٦٥) من كتابه. و"الغزو" هنا المقصود به -بداهة- غزو الإسكندر المقدوني لسورية. وإذا كان هذا الفصل استعراضا للجغرافيا البشرية للمنطقة، وكذا للعلاقات، التي ربطت بين سكان سورية الكبرى وبين الإغريق، خصوصا في منطقة الساحل أثناءَ الاحتلال الإخميني للمنطقة، فإن هذا الفصل ليس في حقيقة الأمر سوى تمهيد للفصل التالي.

وأما الفصل الثالث : "الغزو: من الإسكندر إلى وفاة سلوقس الأول"، (ص ٦٧-١١٠)، فخصص لفترة ناهزت نصفَ قرن من تاريخ سورية، إذ بدأت مع انطلاق الغزو المقدوني لسورية سنة ٣٣٣ ق. م. وانتهت بوفاة سلوقس الأول سنة ٢٨١ ق. م. وهذه الفترة، على قصرها، قابلة للتقسيم، حسب رأي المؤلف، إلى ثلاثة أطوار: الأول، بدأ مع انتصار الإسكندر الأكبر سنة ٣٣٣ ق. م. على دارا (داريوس) الثالث في معركة إيسُّوس، وانتهى سنة ٣٢٣ ق. م. بوفاة الزعيم المقدوني الشاب؛ والثاني، الذي تميز بعدم الاستقرار والتناحر بين خلفاء الإسكندر، استغرق العقودَ الممتدة بين سنتي ٣٢٣ و ٢٩٠ ق. م. أما الثالث، فلم يبدأ إلا مع نهاية العقد الأول من القرن الثالث ق. م. حين برزت قوتان تقاسمتا النفوذَ في المنطقة، تمثلتا في السلوقيين والبطالمة.

وفي هذا الفصل أبان موريس سارتر عن قدرته الكبيرة، في التعامل مع النصوص التاريخية العائدة لهذه الفترة، وهي في مجملها نصوصٌ عاصرَ كاتبوها الوقائعَ والأحداثَ، أو نقلوها عن أشخاص عاصروا الإسكندرَ وغزواتِه، فاكتسبت مصداقيةً كبيرةً نجح المؤلف، إلى حد كبير، في توظيفها لصالح البحث. غير أن ذلك لا يعني أن سارتر اكتفى بالنقل عن هؤلاء دون تمحيص، بل قابل نصوصَهم بعضَها ببعض، واعتمد الراجحَ منها واستبعد المرجوح. وقد صاحب تحليلَه العميقَ للموضوع استعراضٌ شامل لمختلف الدراسات، التي تناولت الغزو المقدوني للمنطقة، وبداية تقاسم خلفاء الإسكندر نفوذَهم على شرق المتوسط.

أما الفصل الرابع : "مظاهر الاحتلال: المدن ومنشآتُها حتى منتصف القرن الثالث ق. م."، (ص ١١١-١٥٢) ، فبدأه باستعراض نقدي لبعض الدراسات، التي قدمت تحليلا لآثار غزوات الإسكندر على المنطقة. وهو إذ اختار في هذا الإطار أعمالَ مؤرخَيْن بارزَيْن، هما آرثُر جونز (A.H. M. Jones) و وليَم تارن (W. W. Tarn)، فإنما أراد تسليطَ الضوء على منهج، أو أنموذج تفسيري (model)، لم يستطع التخلُّصَ من الروح الكولونيالية، التي طبعت بميسمها النصفَ الأول من القرن الماضي. إنه أنموذج تفسيري رأى في غزوات الإسكندر وأعمال خلفائه، سلوقيين وبطالمة، نقطةَ تحول تاريخي مهم، خلَّص المنطقة من البربرية وأدمجها في ركب الحضارة الإغريقية !

ولا نملك هنا سوى الاتفاق مع موريس سارتر في أن الوعيَ الكولونيالي الزائفَ، جعل هؤلاء يُخطئون السبيلَ نحو الأسئلة الصحيحة؛ تلك الأسئلة، التي أعشى عيونَهم عنها سؤالٌ إنكاريٌّ سقيمٌ، لا يعدو كونَه مصادرةً على المطلوب: كيف يمكن أن نتصور أناسا متحضرين (الإغريق)، يبخلون عمَّن هم دونَهم حضارةً وتقدما (أهل الشرق) بقيمهم السامية وحضارتهم الراقية ؟

وإذا كان الفصلُ الرابع من الكتاب دحضاً بارعاً لمقولات هؤلاء، فإن باقي فصول الكتاب ليست، بصورة أو بأخرى، سوى مراجعة نقدية للنموذج التفسيري المذكور أعلاه، ومحاولة لتقديم نموذج تفسيري آخر، يمكن القول إنه استطاع التخلصَ فعلا من النظرة الكولونيالية، أو من التمركز حول فكرة الإغريقية (hellénocentrisme)، التي ما زالت سائدة حتى اليوم في بعض الدراسات المتعلقة بهذا الموضوع. ومع أن المؤلف ركّز في أكثر من فصل على الزخم، الذي عرفته حركة التمدّن في سورية زمنَ السلوقيين، خصوصاً في عهد سلوقُس الأول (توفي سنة ٢٨١ ق. م.) و أنطيوخُس الأول (٢٨١-٢٦١ ق. م.)،



إلا أنه لم ينفك يدعو في أكثر من موضع من كتابه إلى التخلي عن الفكرة التي تقول إن سورية كانت، باستثناء منطقة الساحل الفينيقي، قليلةَ المدن ضئيلةَ العمران؛ لأنها فكرة باطلة.

فعندما قدمَ الإغريق إلى المنطقة وجدوا مدنا عظيمة، مثل حلب ودمشق وبيروت وصور... وأسسوا أخرى جديدةً إلى حد ما، مثل سلوقية وأنطاكية وأفامية واللاذقية... والقائمة قد تطول جداً إذا نحن قبلنا دون تحفظ كلَّ أسماء "المدن" المذكورة في بعض النصوص الكلاسيكية. وقد لاحظ سارتر - عن حق - أن كثيراً من هذه النصوص استخدمت كلمة "بوليس polis"، أي "مدينة"، لنعت أي إنشاءات إغريقية جديدة في المنطقة، دون تفريق بين مستعمرة عسكرية أو قرية أو مدينة، أقام فيها الجنودُ اليونانيون معسكراتِهم. وحتى المدن، التي يمكن أن تُعدّ جديدةً، لم تقم على أراضٍ عذراء، تماماً مثلما أن الأراضي المُلحقة بهذه المدن، أي مجالَها الحيوي، أو ما أطلق عليه المحتلون اسمَ "كورة" (chôra)، لم تكن خلواً من قرى مأهولة مزدهرة.

ومع الفصل الخامس: "إدارة واستغلال الأراضي السورية خلال الفترة الهلنستية" (ص ١٥٣-١٨٦)، ينتقل سارتر إلى موضوع متمم لما تمَّ التعرض له في الفصل السابق: طرق إدارة واستغلال الموارد السورية من قبل الملوك السلوقيين والبطالمة. وقد أبرز المؤلف في هذا الفصل إلى أي مدى لعبت فكرة تأليه هؤلاء الملوك، سواء بعد مماتهم أو أثناءَ ممارستهم الحكم، دوراً في إخضاع الشعب، وفق أيديولوجيا سُخّرت سياسياً واقتصادياً لإدارة واستغلال موارد منطقةٍ شكَّل السوريون، عرباً وآراميين، الكثرةَ الكاثرةَ من سكانها، ولم يكن الإغريق فيها سوى أقلية.

وإذا كان المؤلف قد ألقى الضوءَ في الفصل السادس المعنون: "سورية بين البطالمة والسلوقيين" (ص ١٨٧-٢٠١)، على الصراع، الذي نشب بين السلوقيين والبطالمة لبسط النفوذ الكامل على سورية، ذلك الصراع الذي امتد عقودا طويلة ولم ينتهِ إلا مع انتصار أنطيوخُس الثالث على بطليمُس الخامس إبيفانُس سنة ٢٠٠ ق. م. وخضوع سورية الكبرى لحكم السلوقيين، فإن هذا الجزءَ من الكتاب شكَّل خاتمةَ الفصول المخَصَّصة للجوانب السياسية والعسكرية، في تاريخ المنطقة خلال الفترة الهلنستية. ذلك أن المؤلف ينتقل بعد ذلك من جمود القضايا الإدارية والسياسية والعسكرية، إلى حيوية وقلق القضايا الاقتصادية والبشرية، التي شكلّت موضوعَ الفصلين السابع: "اقتصاد سورية الهلنستية" (الصفحات ٢٠٣-٢٦٥)، والثامن: "السكان والمجتمعات في سورية الهلنستية" (ص ٢٦٧-٣٠١). وقد تصدّى موريس سارتر بكل اقتدار، على امتداد ما يزيد على ستين صفحة، لموضوع بالغ الأهمية والصعوبة يتعلق بالأنشطة الاقتصادية في سورية خلال الفترة الهلنستية. وبدأ المؤلف تناولَه لهذا الموضوع بدراسة مستفيضة عن الأراضي الزراعية، وطرق امتلاكها في سورية خلال الفترة الهلنستية، مستنتجاً أن المَلِك، سلوقياً كان أو بطلمياً، استفاد من القانون المعروف باسم: "حق الرمح"، الذي لم يخوله فحسب أن يكون المالكَ الأول بامتياز في مملكته، بل أن يُقطعَ ما شاء من الأراضي لمن شاء، جماعاتٍ كانوا أو أفراداً.

كما أوضح المؤلف في الفصل السابع، إلى أي حدٍ لعبت القرية السورية دوراً أساسيا في الإدارة السلوقية والبطلمية للبلاد، مستعرضاً في هذا الإطار مختلف أوجه ملكية واستغلال الأراضي الزراعية، التي انتمى مالكوها إلى فئات اجتماعية مختلفة، برز في قمتها الملكُ وأعوانُه، وفي قاعدتها مزارعون بسطاء، نجهل ما إذا كان لهم حرية التصرف في هذه الأراضي، أم أنهم كانوا خاضعين لإدارة معينة (إدارة القرية مثلا باعتبارها جماعةً تتحكم في توزيع الأراضي والإنتاج ؟). وقد أولى المؤلف أوجها اقتصادية أخرى كثيرا من الاهتمام؛ فاستعرض الصنائعَ والمنتجات المختلفة، من فخاريات وزجاجيات وأدوات معدنية وأقمشة... دون إغفال المبادلات التجارية والإصدارات النقدية، التي حظيت بقسط وافر من التحليل. وأتبع المؤلف استعراضَه هذا بمجموعة من النصوص التاريخية المتعلقة بهذا الموضوع، لعل أبرزَها على الإطلاق نصوص زينون من قونوس (Zenon of Caunos) منتصف القرن الثالث ق. م.، الذي قدم عرضاً مفيداً عن المبادلات بين مصر البطلمية وجنوبي بلاد الشام.

ويمكن أن يُعدَّ الفصل الثامن المعنون: "الناس والمجتمعات في سورية الهلنستية" (ص ٢٦٧-٣٠١)، الفصلَ الأكثرَ إثارةً للاهتمام، إذ حفل بالتساؤلات القَلِقَة حول سكان المنطقة خلال

الفترة الهلنستية: حول ثقافتهم الأصيلة وتفاعلهم مع ثقافة المحتلين الإغريق والمقدونيين. ومع أن المؤلف أبدى حذراً وتحفظاً كبيرين في استخدام مصطلحات لا تخلو من غموض والتباس، بات استخدامُها في الأدبيات شراً لا بد منه، مثل "تَهَلْيُن/ تَأَغْرُق" (hellénisme) أو "هَلْيَنَة/ أَغْرَقَة" (hellénisation)، أو "مُثَاقَفَة" (acculturation)، عندما حاول وضعَ حدودٍ بين ما هو إغريقي وبين ما هو محلي في ثقافة السكان السوريين خلال الفترة الهلنستية، إلا أنه لم يَأْلُ جَهدا على امتداد صفحات هذا الفصل (٢٦٧-٣٠١) في إبراز مظاهر التأثير الثقافي المتبادل، الذي مارسه الغزاةُ على السكان المحليين، من جهة، و"السوريون" على مستعمريهم الإغريق، من جهة أخرى. وهذا ما دعاه، خاصة، إلى استخدام مصطلح "هَلْيَنَة/ أَغْرَقَة" (hellénisation) بتحفظ؛ لأن هذه الكلمة لا تخلو - حسب رأيه - مثلها مثل كلمة "رَوْمَنَة" (romanisation)، من نزعة استعمارية؛ لكنه لم يُخْفِ - في المقابل - تبرُّمَه من أولئك الذين يتمادون في الحطّ من شأن الثقافة الإغريقية، والمغالاة في مدح الثقافات المحلية، بدعوى تخليص التاريخ من هذه النزعة (décolonisation de l'Histoire). وهنا نتساءل: إلى أي حد استطاع المؤلف الالتزامَ في دراسته هذه بموقف متوازنٍ بين الاتجاهين المذكورين ؟

الإجابةُ على هذا السؤال يمكن تلمُّسُها في فصول أربعة هي بالإضافة إلى الفصل الثامن:

- الفصل التاسع: "اليهود واليهودية: من الإسكندر إلى حكم أنطيوخس الرابع" (ص ٣٠٣-٣٣٢).
- الفصل العاشر: "اليهودية الهلنستية: الإصلاح ذو النزعة الإغريقية ونتائجُه"، (ص ٣٣٣-٣٧٠).
- الفصل الحادي عشر: "لتحولات في سورية الهلنستية بين وفاة أنطيوخس الرابع وجلاء تيغران ١٦٤-٦٩ ق. م." (ص ٣٧١- ٤٣٣).

شكلت هذه الفصول استعراضا وافيا للجغرافيا البشرية، التي ميزت المنطقة خلال الفترة الهلنستية. وقد استهل المؤلف استعراضَه هذا بدراسة للسكان، بادئا بالغزاة المقدونيين والإغريق، ومنتهياً بالسكان المحليين. وإذا كان الأوائل قد حظوا في الكتاب بدراسة مستفيضة، متوصلا إلى أن عددَ سكان سورية من المقدونيين والإغريق كان ضئيلا خلال هذه الفترة، خصوصاً في منطقة جنوب بلاد الشام، فإن المؤلف لم يستبعد السكانَ المحليين من دائرة اهتمامه. غيرَ أن هذا الاهتمام انحصر في سكان المدن، خصوصا مدن الساحل الفينيقي، التي تقدم مادة كافية نسبياً لوضع تصور عن سكان هذه المنطقة، وتفاعلهم ثقافيا مع الغُزاة.

حاول المؤلفُ التعرفَ على سكان سورية خلال الفترة الهلنستية، عبر ثلاثة محاور:

١- محور اجتماعي: أبدع فيه موريس سارتر كثيراً، إذ استطاع التخلصَ من رتابة التاريخ الرسمي ليميط اللثام عن بعض مظاهر التاريخ الشعبي، مستفيداً في ذلك من بعض الوثائق الاجتماعية النادرة (عقد زواج، رسالة تظلُّم كتبها سجين...). ويلاحَظُ هنا أن المؤلف وجد نفسَه مضطراً، حسب وفرة المصادر أو قلتها، لإيلاء مختلف الفئات الاجتماعية قدراً متفاوتا من الاهتمام. وهو أمرٌ يفسر بالطبع نصيبَ الأسد، الذي حظي به المستعمرون والجنود المقدونيون والإغريق، في هذا الجانب.

٢- محور ديني: عوَّل المؤلف كثيراً على هذا المحور، الذي حمل عنوان: "آلهة ومعابد"، لقياس درجة تفاعل السكان المحليين دينياً مع مستعمريهم. وقد قسَّم موريس سارتر الآلهةَ، التي عبدها "السوريون" خلال هذه الفترة، إلى ثلاثة أقسام: آلهة إغريقية غريبة تماما على مجامع الآلهة السورية؛ وآلهة محلية اكتست صبغةً يونانية؛ ثم آلهة ظلت بمعزل عن أي تأثير إغريقي. بيد أن هذا التصنيف لا يخلو من تبسيط، لأنه يُغفل التفاعلَ الدينيَّ والثقافيَّ السابقَ للفترة الهلنستية، بين منطقة الساحل السوري، التي يستقي منها المؤلف كثيرا من أمثلته، وبين منطقة بحر إيجه. هذا التفاعل يبرز بقوة في علاقة بعض الآلهة اليونانية الكبرى، مثل أفروديت مع آلهة فينيقية أو كنعانية مثل عشتارت.

٣- محور فكري وفني: اعتمد المؤلف في دراسته لهذا المحور، على مادة وافرة نسبياً تقدمها مصنفاتٌ ألفها باليونانية مفكرون وأدباء "سوريون" و/أو إغريق، عكست انتماءَهم لمدارس فلسفية معينة، كالرواقية (مؤسسُها زينون الفينيقي)،



والأبيقورية. وأكدت إسهامَ السكان المحليين الفعال في الحركة الفكرية والثقافية الناشطة، آنذاك، في الجزء الشرقي من حوض البحر الأبيض المتوسط. وهذا الإسهام ليس أقلَّ بروزاً في مجالات أخرى تتعلق بالفنون، وعلى رأسها العمارة والنحت.

قد يُخيَّل - بشكل عام - لقارئ هذه الفصول أن سارتر تعمَّد إغفالَ السكان المحليين، ودورهم في صناعة الأحداث. فقد وجد المؤلف نفسَه مضطراً إلى عدم الوقوف طويلا على هذا الموضوع، نظراً لضآلة المصادر المتاحة. لذلك، كان على القارئ انتظار الفصول اللاحقة للتعرف بشكل أعمق على سكان المنطقة، ودورهم تحديداً في التاريخ السياسي لسورية، خلال فترة كان فيها الحكم السلوقي سائراً نحو الزوال.

ومع الفصل الثاني عشر: "نهاية الحكم السلوقي وبداية السيطرة الرومانية ٦٩-٣١ ق. م." (ص ٤٣٥-٤٦٨)، ينتقل المؤلف إلى فترة انتقالية خطيرة في تاريخ المنطقة، وهي الفترة الممتدة بين سنتي ٩٦ و ٣١ ق. م. حين شهدت سورية زوالَ حكم السلوقيين، والبداياتِ الأولى للسيطرة الرومانية. وإذا كان موريس سارتر قد اختار حدثاً داخلياً يتمثل في انسحاب تيغران وجيوشه الأرمنية من المنطقة سنة ٦٩ ق. م. كبداية لهذه المرحلة، فإن نهايتَها سنة ٣١ ق. م. ترتبط بحدث وقع خارج سورية: معركة أكتيوم، التي شكلت نهايةَ الحرب الأهلية الرومانية، بانتصار أوكتافيانُس أغسطس على أنطونيُس. هذه الفترة، على قِصَرها، شهدت تحولاتٍ مهمةً مهدت السبيلَ للرومان نحو التوسع شرقاً، وبسط نفوذهم - بشكل مباشر أو غير مباشر- على سورية الكبرى. لم يصل التدخل الروماني في الشرق مرحلةَ الحسم إلا في سنة ٦٣ ق. م.، مع مجيء بومبي إلى المنطقة وإنشاء الولاية السورية. وفي دراسته لهذه التحولات، عرّج مورس سارتر على واحد من أبرز مظاهرها: نشوء مجموعة من الممالك العربية المحلية، لعل أبرزَها مملكة اليتوريين في لبنان وشمالي فلسطين، وفي أقصى الشمال مملكة إدسّا (الرُّها)، وجنوباً مملكة الأنباط، التي امتد نفوذُها بشكل تدريجي ومتصاعد، ليشملَ مع بداية القرن الأول ق. م. منطقةً شاسعةً، تمتد من الحجاز جنوباً حتى دمشق شمالاً، ومن وادي السرحان شرقاً حتى سيناء وجنوبي فلسطين غرباً.

أما الفصل الثالث عشر الذي حمل عنوان: "من أغسطس إلى تراجان: اكتمال عصر الولايات" (ص ٤٦٩-٥٢٧)، فهو تحليل تاريخي لمرحلة تمت فيها السيطرة للرومان بشكل تدريجي على سورية. بدأت هذه المرحلة بمعركة أكتيوم (٣١ ق. م.) وانتهت بسقوط البتراء في يد سنة ١٠٦ ب. م. ونظراً لطول هذه الفترة، فقد كرّس لها المؤلف ما يزيد عن خمسين صفحة (ص ٤٦٩-٥٢٧)، كانت بمثابة استعراض وافٍ لمظاهر التدخل الروماني في المنطقة، سواء بشكل مباشر (عبر الولاية السورية، التي أنشِئت سنة ٦٣ ق. م.، والولاية اليهودية (la Judée)، التي يعود تاريخ إنشائها إلى سنة ٧٠ ب. م.)، أو غير مباشر (عبر ممالك يطلق عليها المؤلف اسمَ "الممالك التابِعة" Etats clients). ويبدو أن موريس سارتر أراد من خلال هذا الفصل التعبيرَ بوفاء، عن وجهة نظر شائعة تقول إن كلَّ الممالك، التي قامت في سورية الكبرى خلال هذه الفترة، بما في ذلك مملكة الأنباط، كانت تابعةً لروما، ولم تستطع الحفاظَ على استقلالها النسبي إلا بالتراضي مع الرومان. وبغض النظر عما إذا كانت وجهة النظر هذه صحيحةً أو غيرَ صحيحة، فإن المؤلف استطاع أن يحلل بعمق الدورَ الذي لعبته هذه الممالك، سياسياً واقتصادياً وثقافياً على امتداد قرنين أو يزيد من تاريخ سورية. وقد خصص لمملكة الأنباط بوصفها أبرزَ "الممالك التابعة"، قدراً وافراً من التحليل، تعرض خلاله للجوانب السياسية (العلاقة مع روما، النزاع الطويل مع هيرود والهيروديين...) والثقافية (مظاهر التأثر بالحضارة الهلنستية...).

أما الفصل الرابع عشر، الذي حمل عنوان: "أزمات اليهودية من هيرود إلى بَرّ كوخبا" (ص ٥٢٩-٦٠٧)، فقد خصصه المؤلفُ كليا للولاية، التي أطلق عليها المحتلون الرومان اسمَ: ولاية سورية-فلسطين، والتي شكل فيها اليهود أقليةً قامت بتمَرُّدَين، الأول بين سنتي ٦٦ و ٧٤ ميلادية، والثاني بين سنتي ١٣٢ و ١٣٥ ميلادية. ويواصل موريس سارتر استعراضَه للتاريخ السياسي للمنطقة في ظل سيطرة الرومان، من خلال الفصل الخامس عشر، الذي حمل عنوان: "من تراجان إلى الأسرة السيفيرية: غزوات وإعادة تنظيم" (الصفحات ٦٠٩-٦٣٧). ونحن إذ نمر هنا بسرعة على هذه الفصول، فلأنها لا تقدم جديداً، وإن واصل فيها المؤلف الإبانةَ عن قدرة لا تُنكَر

على التركيب (synthesis). بيد أن هذه القدرة تتفجر عندما ينتقل بنا إلى موضوعات ذات صلة بالمجتمع والعمران والثقافة والاقتصاد، ففيها يؤكد علوَّ كعبه مؤرخاً قادراً على جمع مادة مشتتة، وعلى محاورة أكثر من مصدر للخروج باستنتاجات مفيدة عن هذه الجوانب جميعاً.

تصدى المؤلف لهذه المهمة الصعبة في الفصل السادس عشر، المعنون: "العمران ومظاهر تطوره خلال الفترة الرومانية المبكرة" (ص ٦٣٩-٧٣٣)، خصّصه للعمران وتطوره في سورية، خلال القرنين الأول والثاني ب. م. موضوعاً من هذا القبيل، يفرض البدءَ -بداهةً- بالمدن والتمدّن، وهذا ما فعله المؤلف حين استعرض حركات إنشاء المدن والمستعمرات في سورية خلال هذه الفترة، مستنتجاً أن ثمة تفاوتاً بين منطقة وأخرى في هذا الشأن، وأن المدن، الجديدة أو "التي ظهرت من العدم" (ex nihilo)، كانت قليلةَ العدد. لذلك فأن التطور، الذي عرفه العمرانُ في سورية خلال الفترة الرومانية المبكرة تمثل، أساساً في إدخال جملة من المؤسسات العمرانية إلى مدن قائمة أصلاً. أما القرى، التي تمت ترقيتها إلى مدن، فالأمثلة عليها قليلة، تكاد تنحصر في منطقة حوران، ويبرز بينها مثالُ الشّهبا أو الشّهباء، التي تحولت بفضل أحد أبنائها، وهو الإمبراطور فيليب العربي، إلى مدينة حملت اسمَ هذا الإمبراطور (مدينة فيليب = فيليبوبوليس).

وفي دراسته للمؤسسات المدينية (les institutions ci-viques)، يتوصل موريس سارتر إلى أن شكلَ إدارة المدينة في سورية، لم يختلف كثيراً عن أشكال الإدارة، التي سادت في باقي أرجاء الإمبراطورية. حاول المؤلف العثورَ على تجليات هذه الأشكال، التي يعترف بأنها تبدو أقلَّ بروزاً في المدن السورية، أولاً في النقوش التشريفية (les inscriptions honorifiques) الدالة، حسب رأيه، على وجود سلطات جماعية كانت تدير هذه المدن، ثم من خلال الإدارة المالية (النفقات والضرائب...)، معتمداً في ذلك على عدد من النقوش والمصادر التاريخية. أما الشواهد الأثرية، وهي الأكثر دلالة على أشكال هذه الإدارة، وخصوصاً على التطور العمراني، الذي عرفته المدن السورية خلال هذه الفترة، فقد استعرض المؤلفُ أبرزَها محاولاً -في الوقت نفسه- إعادةَ النظر في الرأي الشائع، الذي يقول إن العمرانَ في سورية لم يعرف تطورا كبيرا بين الفترتين الهلنستية والرومانية. ولتحقيق ذلك، درس وحلّل الشواهد، التي تقدمها المدنُ السورية، بدءا بمدن الشمال، وعلى رأسها أنطاكية، وانتهاء بمدن الجنوب، وعلى رأسها جرش، مستنتجاً، في النهاية، أن التجانس الذي تبديه هذه المدن ظاهرياً على المستوى العمراني، يُخفي وراءَه تبايُناتٍ ترتبط بالبيئة التاريخية لكل مدينة.

وقد أبدع المؤلف أيضاً في الفصل السابع عشر المعنون: "الحياة في القرى خلال الفترة الرومانية المبكرة"، (ص ٧٣٥-٧٩٠)، خصوصا أنه كُرِّس لموضوع طالما عانى من التهميش، هو موضوع القرية ودورها في المجتمعات السورية خلال الفترة الرومانية. في هذا الفصل، يجد القارئ تحليلاً وافياً لهذا الدور، سواء على مستوى الملكية (الصفحات ٧٣٦-٧٥٥)، أو الإنتاج ووسائله (الصفحات ٧٥٥-٧٦٦)، أو العمارة والإدارة في القرية (الصفحات ٧٦٦-٧٧٩). وقد اعتمد في هذا التحليل على الدراسات المهمة، التي أجراها جورج تشالنكو (G. Tchalenko)، ثم جورج طات (G. Tate) في "الكتلة الكلسية" (le Massif Calcaire) شمالاً، و فرنسوا فيلنوف (F. Villeneuve) في منطقة حوران جنوباً. ولم يتردد المؤلف في التصدي لموضوع قلما أثار انتباهَ الدارسين ، هو: دور البدو في المجتمع السوري خلال الفترة المذكورة (الصفحات ٧٧٩-٧٨٩)؛ فتحدث عن قبائل الحَرَّة (يكتبها حَرًّا)، محاولا اقتفاءَ آثار هؤلاء البدو الخُلَّص من خلال نقوشهم الكثيرة، ثم عرَّج بعد ذلك على أهل البداوة من العرب الأنباط والقبائل، التي ارتبطت بهم في منطقة الحجاز وشمالي الجزيرة العربية (أساسا القبائل المعروفة باسم "الثموديين")، ثم، أخيراً، على بدو الفرات ومنطقة الجزيرة، مستخلصاً في النهاية أن معرفتَنا عن سكان البادية خلال الفترة الرومانية، لا زالت في غاية الضآلة.

أما الفصل اللاحق المعنون: "اقتصاد المدن في سورية الرومانية" (ص ٧٩١-٨٥٠) ، فهو دراسة مستفيضة لاقتصاد سورية في ظل سيطرة الرومان، استعرض فيها المؤلف مظاهر الاقتصاد المختلفة، من: صناعية (أرجوان وأقمشة، ومصنوعات معدنية وزجاجية وفخارية...)، ومالية (المسكوكات



والجمارك...) وشبكات طرق، وتجارة محلية، وتجارة بعيدة المدى، معترفاً -في النهاية- أن استخلاصَ نتائج عامة وشاملة من خلال لُقى متناثرة، قد يكون فيه شيءٌ من المجازفة، ومتسائلا -في الوقت نفسه- حول ما إذا كان الوضع الاقتصادي قد شهد في سورية تراجعاً وانحساراً مع بداية القرن الثالث ب. م. في وقت كان فيه انعدامُ الأمن في تزايد.

بعد ذلك ينتقل المؤلف إلى موضوعات تتعلق بثقافة، أو ثقافات، المجتمعات السورية خلال الفترة الرومانية، وذلك من خلال فصلين، هما الفصل التاسع عشر: "النزعة الإغريقية والثقافات المحلية" (ص ٨٥١-٨٨٣)، والفصل العشرون: "الوثنيون واليهود والنصارى في سورية الرومانية خلال القرنين الثاني والثالث ق. م." (٨٨٥-٩٥٨). وقد حاول فيهما تحليلَ المظاهر الحضارية، التي ميّزت هذه المجتمعات، بادئا بالنزعة الهلينية أو الإغريقية (l'hellénisme)، كما ظهرت في الأوساط المتأثرة بالحضارة اليونانية و/أو الرومانية. وقد تطرق للموضوع من خلال تساؤلات عامة بالغة الأهمية: من كان يتحدث اليونانية من أهالي سورية ؟ ومن كان يتحدث اللاتينية ؟ ولِمَ اختار هذه اللغة أو تلك ؟ مع أن اللاتينية اكتسبت بمرور الوقت صفةَ لغة الإدارة في أغلب مناطق سورية، إلا أنها لم تستطع إنزالَ اليونانية من عرشها في الشرق، بل تراجعت أمامَها، خصوصا في الأوساط البعيدة عن الإدارة. يتوصل المؤلف لهذه النتيجة بعد فحصه لجملة من الشواهد الكتابية (النقوش، البرديات...)، التي تُظهر إلى أي مدى ظلت الإغريقية اللغةَ المفضلةَ في المدن والقرى على حد سواء، مستشهداً على ذلك بنقوش حوران الجنائزية: أكثر من ألفي نقش كُتبت كلها باليونانية ! بيد أنه يعترف بأن هذه الشواهد لا تعكس كلَّ مظاهر الـ "مثاقفة" (acculturation)، محاولاً العثورَ على مظاهر أخرى تتجلى في الفنون (التوابيت، الفسيفساء، الفريسكو، النحت...)، والآداب والفلسفة والعلوم... عبر أسماء لامعة (فورفيرْيُس الصوري، نيقولا الدمشقي، فيلون البيبلوسي، لوقيانُس الأنطاكي...). أما الثقافات المحلية فنالت نصيبَها من اهتمام المؤلف. وهو إذ اعتمد كثيرا على أسماء الأعلام لاستخلاص بعض النتائج في هذا الباب، إلا أنه تساءل : إلى أي حد يكون الكتابي (l'écrit) انعكاسا صادقا للواقع ؟ بمعنىً آخر: هل أسماء الأعلام، التي توردها النقوشُ العائدة إلى هذه الفترة، هي انعكاسٌ حقيقي لواقع إثني ميّز الجغرافيا البشرية في سورية خلال الفترة الرومانية ؟ هل اللغات المكتوبة كانت محكيةً بالقدر نفسه ؟ حاول موريس سارتر الإجابة على السؤال الأخير بدراسته للوضع اللغوي، الذي ميز ثلاثَ ممالك عربية : مملكة تدمر، مملكة الأنباط ومملكة إدسّا (الرُّها). فهذه الممالك تقدم، حسب المؤلف، أوضاعاً لغوية متشابهة نسبياً: جميعُها اختارت لهجاتٍ آرامية في الكتابة، وإن ساد التباين بينها فيما يتعلق بالمكانة، التي أوْلَتْها كلُّ مملكة على حدة للغة اليونانية. وقد توقف بعضَ الشيء عند حالة إدِسّا، التي عرفت كمعقل للسريانية وللنصرانية نهضةً ثقافية، وكانت كتاباتُ الفيلسوف العربي السرياني ابن ضيسان أحدَ أبرز مظاهرها.

والفصل العشرون، وهو الفصل قبل الأخير، يمكن أن يُعد متمما لسابقه، إذ كرسه المؤلف لجانب ثقافي آخر يتجسد في الديانات، التي عرفتها المجتمعات السورية خلال الفترة الرومانية. عرفت هذه الديانات، التي يقسّمها المؤلفُ إلى وثنية ويهودية ونصرانية، قدراً متفاوتاً من الشيوع في سورية. ومع أن المؤلف اعتمد هذا التقسيم العام في دراسته للأديان، التي اعتنقها "السوريون" خلال الفترة المذكورة، إلا أنه حاول التركيز على ظواهر التأثير والتأثر بين هذه الديانات، في زمن شاعت فيه نزعاتٌ غنوصية (gnostiques) وتوفيقية (syncrétiques) غير مسبوقة. بدأ موريس سارتر بدراسة الوثنية ومظاهرها المتعددة (الآلهة والمعابد...)، ملاحظاً شيوعَ عبادة آلهة ارتبطت بأماكن معينة (divinités topiques)، لكنها لم تكن في الواقع سوى المعبودات المقابلة محلياً لآلهة رئيسة من قبيل: هدد و بعل شمين و عطرغتيس... أما تلك، التي يعدّها المؤلف آلهةً عربية مثل: ذو الشرى و اللات و العزى و رُضى و مُنعِم... فلم تحظَ سوى بقدر يسير من التحليل، لم يخْلُ من التبسيط (مثال ذلك قولَه إن الأنصابَ الثلاثة، التي تظهر على بعض مسكوكات بُصرى الشام تمثل تجسيداً لفكرة الثالوث [la triade] كما سادت عند الأنباط !!!).

بعد ذلك يتناول المؤلف بالدراسة بعضَ العبادات، التي عرفت شعبية كبيرة في سورية خلال هذه الفترة، كعبادة مِثرا

(Mithra) و سيرابيس و إيزيس. غير أنه يبالغ حين يذهب إلى أن ثمة آثاراً متعددة دالة على عبادة إيزيس في البتراء، مع أن الجرد الدقيق لهذه الآثار، إذا استبعدنا الدمى الطينية، لن يسفر سوى عن محصلة هزيلة لا تتعدى في أحسن الأحوال أربعةً أو خمسةَ شواهد بينها تمثالُ سد المريرية، الذي يشير إليه المؤلف، دون أن يسميه، على أنه تمثالٌ نصفي (buste)، والصواب أنه تمثالٌ كامل يمثل "إيزيس" جالسةً على عرش. أما المظاهر الدينية الدالة على الـ "مماثلة" (assimilation) أو الـ"توفيق" (syncrétisme) بين الآلهة، فخصص لها المؤلف ما يقارب عشرَ صفحات استعرض فيها كثيراً من هذه المظاهر. بيد أنه لم يحاول تحديدَ هذه المصطلحات المثيرة للجدل قبل استخدامها، ما جعله غيرَ قادر على التمييز بين الـ"مماثلة" والـ "توفيق"، بين حالات الـ "مماثلة" الحقيقية وبين حالات الـ "مماثلة" العابرة، أو ما يُعْرَف بالـ (interpretatio). ومع ذلك، فإن هذا الفصل يبقى واحداً من الدراسات القليلة، التي تقدم للقارئ صورةً عامة وشاملة عن الأديان وأشكال ممارستها في سورية، خلال الفترة الرومانية.

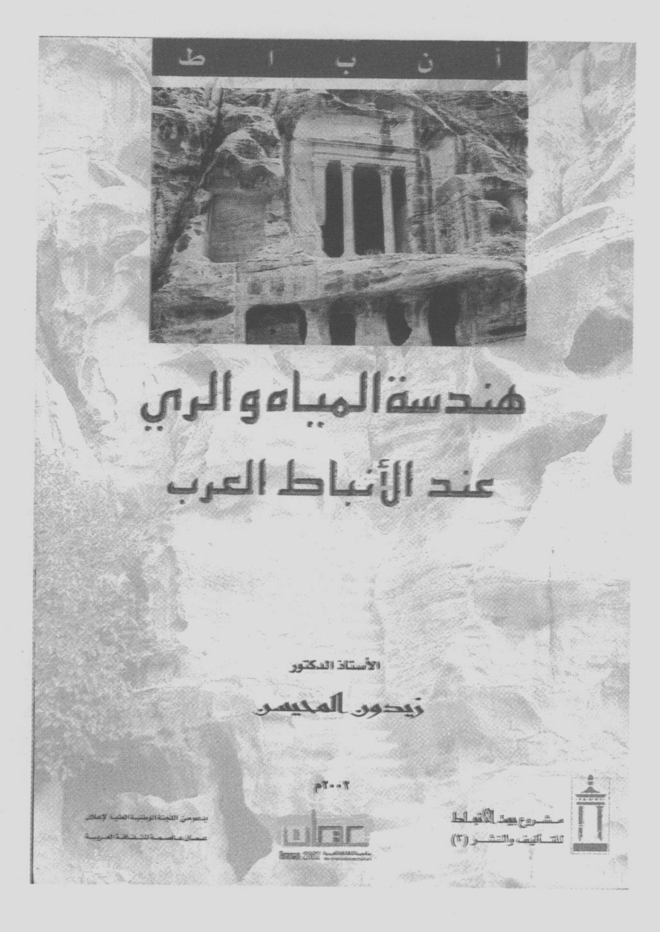
حمل الفصل الأخير الفصل الحادي والعشرون، ص ٩٥٩-٩٩٠) عنواناً في غاية الدّلالة: "زمن المِحَن" (le temps des épreuves). والمحن هنا يُقصَد بها محَن الإمبراطورية الرومانية، حين دخلت مع بداية القرن الثالث ب. م. في طوّر الأفول والتراجع لأسباب داخلية (التطاحن على الحكم بين أباطرة شرعيين وآخرين أدعياء...) وخارجية (المواجهة مع الساسانيين...). وعلى الرغم من أن بعضَ مظاهر القوة العابرة (احتلال إدسًّا و الحَضْر و دورا أوروبُس ثم تدمر...) قد تحجب هذا الأفول، إلا أن هذه المظاهر نفسَها ليست سوى انعكاس لضعف السلطة المركزية، وظهور إمارات محلية قوية، لعل أبرزَها على الإطلاق إمارة تدمر. والمؤلف إذ يستخدم مصطلح "إمارة" (principauté) لا "مملكة" (royaume) نعتاً لـ تدمر، حتى في عهد زنوبيا و وهب اللات، فلأن تدمر لم تكن، حسب رأيه، سوى مدينة رومانية تمردت على روما، واستطاعت الاستقلالَ لبعض الوقت عن السلطة المركزية، بل وتكوينَ إمبراطورية شرقية لم تعمر طويلا.

وأخيراً، يختم المؤلف هذا الفصل بالحديث عن بعض القبائل العربية، التي تحالف معها الرومان لحماية الحدود الشرقية لإمبراطوريتهم. وقد ظهرت على رأس هذه القبائل قضاعة، وملوكُها من تنوخ، ثم اللخميون، ملوكُ الحيرة، الذين برز بينهم امرؤ القيس بن عمرو بن عدي "ملك كل العرب"، كما جاء في شاهد قبره الشهير، المعروف بنقش النمارة (٣٢٨ ب. م.).

وفي خاتمة الكتاب (الصفحات ٩٩١-٩٩٥)، يعيد المؤلف التأكيد على أن التغيرات الحقيقية في التاريخ تحصل على المدى الطويل. وهو إذ يطلب بتواضع جم في ختام كتابه من القارئ، أن يغفرَ له إقدامَه على هذه الخطوة المحفوفة بالمصاعب، فإننا نقول له باسم هذا القارئ أنه أنجز المهمةَ خيرَ إنجاز، وأن كتابَه الشامل والعميق، سيظل طويلا المرجعَ الأساسيَّ لكل مهتم بتاريخ سورية خلال الفترتين الهلنستية والرومانية.

أ. مولاي محمد جانيف - فرنسا: **Moulay M'hamed Janif - 1, rue Maurice Arnoux C207 - 92120 Montrouge France. e-mail: archaeologia77@yahoo.com**

عرض الكتب



اسم الكتاب: هندسة المياه والري عند الأنباط العرب.

المؤلف: أ.د. زيدون المحيسن.

الناشر: بيت الأنباط - الأردن.

سنة النشر: ٢٠٠٢م.

رقم الإيداع: ١٤٧٣ / ٢٠٠٢/٦.

مقاس الكتاب: ١٧× ٢٤ سم.

عدد الصفحات: ٢٥٢ صفحة (وتشمل ١٤٠ لوحة).

عرض: د. عبدالله نصيف.

هذا الكتاب أعد ضمن مشروع "بيت الأنباط" للتأليف والنشر، حول تاريخ الأنباط العرب وحضارتهم. وهذا البيت هو هيئة ثقافية مقرها البتراء في الأردن، تأسست في عام ١٩٩٧ لتسهم في سد الحاجة الماسة للتعريف بتاريخ الأردن القديم وآثاره.

وهذا البحث، الذي يناقش هندسة المياه والري عند الأنباط، لا يُسهم في سد هذه الحاجة فقط، وإنما يقدم طرقاً ووسائل ناجحة، ابتكرها الأنباط في عصور تاريخية للحصول على الماء وتوفيره للمجتمع النبطي؛ فالماء أساس الحياة لكل الكائنات الحية، كما هو معروف، والعجز في الموارد المائية مشكلة بدأت تطل برأسها منذ فترة في عدد من الدول العربية. وبدأت هذه الدول تفكر جدياً في كيفية التغلب على هذه المشكلة، وتبحث عن الحلول لإيجاد مصادر للحصول على هذا المطلب الأساسي المهم. ويبدو أن الأردن من بين هذه الدول، التي بدأت تعاني من هذه المشكلة، كما اتضح من حديث الباحث، الذي أنتقد غياب الدراسات العلمية لحل أسباب هذه المشكلة، وأشار إلى الأساليب الخاطئة - حسب رأيه - التي من المزمع اللجوء إليها للحصول على الموارد المائية، دون استفادة من التجارب السابقة، وما ترتب عليها من آثار سلبية.

وقد طرح الباحث عدداً من الحلول لعلاج هذه المسألة، ومنها وضع جميع المصادر المائية، كالينابيع والآبار الإرتوازية، في يد جهة واحدة، والحث على زراعة الأشجار في كل بقعة لما لها من تأثير في سقوط الأمطار، والعمل على بناء المزيد من السدود، وإنشاء الخزانات في كل بيت وفي كل موقع، وأن تتضمن رخص البناء وجوب إنشاء خزان كبير لجمع مياه الأمطار، وفق المعايير الصحية والطرق الحديثة. وهذا مشابه لما شاهدناه في بيوت مدينة الربذة، الواقعة شرقي المدينة المنورة على طريق الحج العراقي، التي كانت مزدهرة خلال القرون الثلاثة الأولى من الهجرة، حيث كشفت الحفريات الأثرية المكثفة التي قامت بها جامعة الملك سعود، عن وجود خزان واحد أو أكثر في كل بيت تقريباً لحفظ المياه، والاستفادة من مياه الأمطار بدرجة كبيرة. كما وجد



إلى جوار هذه المدينة قريباً من مجرى السيل، خزان مائي ضخم يبلغ قطره نحواً من ٦٥ متراً يمتلئ بمياه الأمطار بعد تصفيتها من خلال بركة مستطيلة أقل عمقاً (للمزيد: أنظر كتاب الربذة بقلم سعد الراشد، ١٩٨٦، ص٦٢و٦٩).

وعلى أية حال فقد جاء هذا الكتاب "هندسة المياه والري عند الانباط العرب" كما يقول المؤلف، ليعطي العبرة من الأجداد القدماء الأنباط الذين برعوا في سبل جمع مياه الأمطار وتخزينها، كما برعوا في ابتكار أساليب متطورة في هندسة توزيع قنوات المياه والري، وإنشاء السدود والخزانات والبرك، وجمعوا المياه في المناطق الصحراوية وشبه الصحراوية. وتمنى الباحث أن يكون هذا الكتاب حافزاً للاستفادة من الهندسة المائية عند الأنباط في مواجهة مشاكل البلاد الكبيرة ، التي قد تؤدي إلى الدمار والحروب في المستقبل.

وقد صدّر الباحث كتابه بمقدمة قسمها إلى ثلاثة أجزاء، هي: تقديم وتمهيد ومقدمة. استعرض في أولها مشكلة المياه في الأردن، الناتجة عن زيادة السكان ومحدودية الموارد المائية، وعدم اتباع الأساليب الصحيحة في الحفاظ عليها، وانتقد الحلول المقترحة للحصول على المياه. وتحدث في ثانيها عن جيولوجية الأردن ومناخه لما لها من ارتباط مباشر بموضوع المياه عند الأنباط، وغيرهم من الشعوب التي عاشت هناك. وقال بأن الأردن يشكل مظهراً تضاريسياً مهما ومتميزاً، بسبب تعاقب مجموعة من العصور الجيولوجية والمناخية عليه.

ويرى الباحث أن المناخ الحالي السائد في الأردن، يشبه المناخ السائد في الفترة المتقدمة من عصر البلايستوسين. ونتيجة للدراسات، التي قام بها في موضوع هندسة المياه والري، فإنه يرى أنه لم يطرأ أي تغيير يذكر على المناخ منذ ألفي عام؛ ولأن الأردن يعد من المناطق الفقيرة في الموارد المائية السطحية، فقد أصبح الاعتماد على مياه الأمطار والمحافظة عليها، هي شغل الإنسان الشاغل منذ العصور القديمة وحتى الآن.

وقد استعرض الباحث جهود الأنباط ومهاراتهم في التقنية المائية، وما وصلوا إليه من تقدم باهر في الزراعة، ليس في الأراضي الخصبة فحسب، بل في المناطق الصحراوية وشبه الصحراوية أيضاً. ويعدّ نظام المصاطب واحداً من الأنظمة التي استخدموها في الزراعة، ومنها كان يتم توجيه المياه بإبطاء نزول مياه الأمطار من خلال هذه المدرجات المزروعة. وبذلك نجح الأنباط في توسيع الرقعة الزراعية في الصحراء أكثر من أي إنسان آخر في هذا العالم، وتمكنوا في الفترة الواقعة بين القرن الثاني ق.م. والقرن الثاني الميلادي من إنتاج القمح والشعير وأنواع الحبوب الأخرى، إضافة إلى زراعة الزيتون والبلسم والكروم.

ومن الأدلة على قدرة الأنباط في مجال الحفاظ على المياه، أن صهاريج وأحواض المياه ما زالت مستعملة إلى اليوم. وكان هناك نوعان من الأنظمة، أحدهما يقوم على أساس تجميع المياه وتقنيتها إلى المناطق المختارة، وكان يتم خزن الزائد لاستعماله وقت الحاجة، وثانيها عمل رجوم من الحجارة، تُصف على سفوح التلال في أنماط متداخلة، لها دور في نظام التحكم بالماء؛ ولذلك فإن معظم التلال في الأراضي النبطية، كان مغطى بالقنوات المصنوعة من الحجارة، وقد تم بناؤها على محيط وشكل الجبل؛ ما يتيح للمياه أن تنحدر من هذه القنوات إلى الأحواض الموجودة في الأسفل.

أما الجزء الثالث من المقدمة، وهي المقدمة، فقد وضّح فيها الباحث أن التآكل وعوامل التدمير المختلفة كالزلازل، كانت وراء خراب العديد من المنشآت المائية، وإن إنجاز هذه الدراسة اعتمد على عدة أبحاث في البتراء، وفي مواقع أخرى من جنوبي الأردن، وقد اختير عدد من المواقع المتباينة من حيث الأهمية. كما اختيرت بعض الأمثلة من داخل النطاق النبطي، أو خارجه، للمقارنة.

وهكذا، باستعراض مضامين التقديم والتمهيد والمقدمة، لا نجد في مضمون أي منها ما يميز أحدها عن الآخر، وليس فيها ما يدعو إلى هذا التقسيم، الذي خالف به المؤلف المنهجية العلمية المعروفة والمألوفة من مقدمة وتمهيد، أو حتى من مقدمة فقط، يبيّن فيها أهمية الموضوع والدراسات السابقة عليه، والأسباب التي دعته لتأليف هذا

الكتاب ونحو ذلك.

وعلى أية حال، فقد قسّم المؤلف كتابه إلى خمسة فصول، تناول في الفصل الأول منها، الظروف الجغرافية والمناخية، ثم المصادر المائية التي تزود البتراء بالمياه. وتناول في الفصل الثاني المنشآت الهيدرولوجية في المواقع النبطية الأخرى في جنوب الأردن. وتحدث في الفصل الثالث عن المنشآت الهيدرولوجية والزراعية. أما الفصل الرابع، فتناول فيه النماذج المقارنة من مواقع أخرى في الأردن والجزيرة العربية وإفريقيا. وخصص الفصل الخامس للحديث عن أهمية التقنيات النبطية في مجال المياه، ثم عن الماء والسكان، وأتبعها بملخص باللغة الإنجليزية من صفحتين عنوانه في قائمة المحتويات (The Nabataeans) وفي المتن (The Nabataeans Period)، ثم أتبعها بملخص آخر باللغة الإنجليزية عنوانه (Water in the Naba-taeans Period)، وتلتها قائمة المصادر والمراجع واللوحات، وهذا التكرار والاختلاف في العناوين مخالف بطبيعة الحال للمنهجية العلمية الصحيحة، بل وخالف القاعدة المتبعة في تسلسل صفحات اللغة الإنجليزية، حيث نجدها مرتبة حسب تسلسل صفحات اللغة العربية، من اليمين إلى اليسار.

ونعود للفصل الأول، فنجد أنه على الرغم من أن المواقع التي تناولتها الدراسة تنتمي لمنطقة جغرافية واحده، إلا أن هناك تباينات كبيرة بينها، طبوغرافياً ومناخياً؛ فبعضها يشتمل على مجموعة من التلال الصخرية ذات الأخاديد الضيقة كالبتراء، وبعضها مناطق منخفضة جداً مثل الغور، وبعضها الآخر صحراوي مثل وادي رمّ. أما التباين في المناخ فيتمثل في درجة الحرارة والأمطار، التي فصّلها الباحث.

أما المصادر التي تزود البتراء بالماء فهي قسمان، أحدهما: الينابيع الطبيعية، وهي لا تزيد عن ثلاثة عيون في رأي المؤلف. والآخر عن طريق جمع مياه الأمطار في خزانات أو آبار. وقد حُفرت بعض الخزانات في الصخور، وشقت القنوات السطحية لتقود مياه الأمطار لتصب في هذه الخزانات، وبعضها ذو حجم كبير إذ تصل أبعاد أحدها إلى ٣٤ متراً طولاً، وخمسة أمتار عرضاً، ومتر واحد عمقاً، وبعضها الآخر أصغر حجماً وأكثر عمقاً، وأحياناً تفيض المياه الزائدة عن هذا الخزان لتصب في خزان آخر. ونجد لهذا الأسلوب ما يماثله في جبل ريدان في اليمن، جنوبي غرب الجزيرة العربية؛ فقد وجد على قمته عدد من الخزانات المحفورة في باطن الصخر لحجز مياه الأمطار، وكلما امتلأ خزان فاض الماء إلى خزان آخر. ويعتقد أن هذه الخزانات تعود إلى ما بين القرن الخامس قبل الميلاد إلى القرن الميلادي الأول.

وقد أجاد الكاتب في إيراد عدد كبير من الخزانات المائية، وإعطاء وصف تفصيلي ودقيق لكل واحد منها. واستغرق هذا الفصل صفحات كثيرة من الكتاب، أدت إلى إخلال كبير في التوازن بين توزيع صفحات الكتاب على الفصول؛ فبينما نجد هذا الفصل قد استغرق ٦٦ صفحة من الكتاب، نجد الفصل الثاني أقل من ٩ صفحات، ومثل ذلك تقريباً الفصلين الرابع والخامس، وإن كان هذا ليس بالأمر المهم.

وقد خصص الباحث الفصل الثاني للحديث عن المنشآت الهيدرولوجية في المواقع النبطية الأخرى في جنوبي الأردن. واستعرض في هذا الفصل عدداً من المنشآت المائية، من قنوات وخزانات، وذلك في المنطقة الشمالية منها، المعروفة بالطفيلة، وفي وادي عربة بالمنطقة الغربية، ووادي رم بالمنطقة الجنوبية. وتعد هذه الأخيرة إحدى أقدم المناطق التي أستوطنها الإنسان في الأردن. وقد ذكر الكاتب نحواً من ١٤ عيناً، وعدداً من الأحواض والخزانات، التي تصب بها هذه العيون.

واعتماداً على ما جاء في الفصل الثاني وما قبله، حول مختلف المنشآت المائية، يرى الباحث في الفصل الثالث، أنه من الممكن طرح دراسة تتناول الطرق التقنية التي استخدمها الأنباط. وتناول الكتاب في الفصل الرابع النماذج المقارنة؛ استعرض فيها المؤلف المنشآت المائية، التي نفّذها الأنباط في عدد من المناطق التي خضعت لحكمهم، مثل: النقب والحجر (مدائن صالح) داخل بلاد العرب، وأم الجمال.. وغيرها. وفي أم الجمال لجأ الباحث إلى حفر عدد من المربعات للكشف عن أنظمة المياه فيها. وقد أسفرت هذه الحفريات عن معلومات جديدة، حول تقنية بناء المجاري



المائية.

أما الفصل الخامس والأخير من الكتاب، فقد خصصه المؤلف لمناقشة أهمية التقنيات النبطية؛ فبيّن مهارة الأنباط وقدرتهم على الإفادة من مياه الأمطار، وتزويد مدنهم وقراهم بالماء، والتغلب على مشاكل قلة الماء في مختلف المناطق؛ وهذا ما فسح المجال أمام انتشار حضارتهم وازدهارها. وقد استمرت المنشآت المائية النبطية تقوم بدورها في استمرار الحياة ونموها، في عدد من المدن والقرى النبطية على مر العصور المتعاقبة، حتى بعد زوال كيانهم السياسي.

وأخيراً جاءت الخاتمة، ليعلن المؤلف أن هذه الدراسة تؤكد أن الاستنتاجات التي توصل إليها الباحث ليارد (A.H. Layard) صاحب كتاب (Early Adventures in Persia) في أن البتراء تعد صحراء جدباء طاردة للسكان، هي أبعد ما تكون عن الحقيقة. ويطمح الكاتب إلى إكمال هذه الدراسة بإجراء عدد من التنقيبات الأثرية في عدة مواقع نبطية وغيرها، لإثبات صحة ما أورده في بحثه.

ولا ننسى في ختام هذا العرض، الإشارة إلى أن الباحث قد أجاد بتزويد الكتاب بمئة وأربعين لوحة، ما بين خريطة وصورة ومخطط، وكلها ذات صلة مباشرة بموضوع البحث. ولا يخفى على القارئ ما لهذه اللوحات من أهمية في شرح الأثر والتعرف عليه.

د. عبدالله نصيف: قسم الآثار والمتاحف - كلية الآداب، جامعة الملك سعود.
Email: atef_mansour2000@yahoo.com



References

Atiat, T. 1986. “The excavation of umm er-Rasas "Mefa'a"”, **Annual of the department of Antiquities**, 23-27.

Atiat, T. 1994. The mosaic of Madaba, Technical Study (Unpublished Ph.D, University of Sorbonne Paris IV).

Ahlstrom, G. W. 1978. “Winepresses and cup-marks on the Jenin-Magiddo survey”, **American School of Oriental Research,** 231: 19-49.

Amiran, R. 1969. Ancient Pottery of the Holy Land, **Jerusalem**, P.141.

Avi-Yonah 1935. “Mosaic Pavements at El-Hammam”, **Beisanm Quartery of the Department of Antiquities in Palestine**, V Nos 1-2, P. 11-30, Plate XIV, 1 .

Bisheh, G. 1982. “The second season of excavation at Hallabat, 1980", **Annual of the Department of Antiquities**, 133-144, PL XXXVII.

Browning, I. 1982. **Jerash and the Decapolis.**

Deut 7:13.

Douphin C 1987. T”he development of the ‘Inhabited scroll’ in Architectural sculpture and mosaic art from late imperial times to the seventh century A. D”, **Levent**, 183-195.

Frankel, R, 1999. **Wine and Oil production in Antiquity in Israel and other Mediterranean countries**, Sheffield, England.

Genesis 9: 20.

Hirschfeld, Y. 1983. “Ancient wine presses in the park of ayalon”, **Israel Exploration Journal**, 33, Nos 1-2, P. 207-218, Fig. 5.

Horn S, 1973. The excavation at Tell Hesban, 1973, **Annual of the Department of Antiquities**, 87-88.

Isaiah 5:1-2. 36:17, 55.

Jeremiah 6: 9, 31: 12, 48: 33

Joel 2:19.

John 2:1-11. 4:4 6. 15: 1, 5.

Kennedy D 1981. “Preliminary report of a survey of Roman Military Installations in North-Eastern Jordan”, **Annual of the Department of Antiquities** 21-24.

King (2) 18:13.

Matthew 26: 26-29 , 39.

Piccirillo, M. 1985. **Rural settlement in Byzantine Jordan, Studies in the history and Archeology of Jordan**, 257-261.

Piccirillo, M. and Atiat, T. 1986. The complex of Saint Stephen At Umm Er-Rasas-Kastron MAFAA first campaigns, August 1986, 341-351.

Piccirillo, M. 1993. **The Mosaic of Jordan**, 40.41-44.

Prag, K, 1974. “The intermediate early bronze-middle bronze age: An interpretation of the evidence from Trans Jordan, Syria and Lebanon” , **levant** 6, P.99.

Prov. 9:2.

Roll 1 and Ayalon E. 1981. **Two large wine presses in the red soil region of Israel in Palestine exploration quanterly** 111-124, fig.7.

Ross J 1962. Vine, vineyard, the interpreters dictionary of the bible, 784-786.

Saller, S and Bagatti B, 1949. **The village of Nebo Jerusalem** .

Schick, R. Fiema, Z. and "Amr, Kh. 1993. The Petra Church Project, 1992-1993 A preliminary report, **Annual of the Department of Antiquities**, 55-66.

Scholl, T. 1986. The chronology of Jerash lamps. A preliminary report, Jerash Archaeological Project 1981-1983 1, 163-166, Fig 1.11.

Walso, P. 2001. **The Byzantine period in Levantine Archaeology** 1, P. 461-502.

Watson, P. N. and O'Hea, M. 1996. “The pella hinterland survey 1994: preliminary report”, **Levant** 28, P.63-76.

Whitcomb, D.1994. **Ayla Art and Industry in the Islamic port of Aqaba**, 25-27, Fig D.

Zayadine, F. 1977-1978. Excavation on the upper citadel of Amman Area A (1975 and 1977), **Annual of the DeR.**



take realities in to consideration. The treaders represented are depicted occupied by their work. Their poise suggests movement, especially the raising hands and legs. Aspects of this presentation revealed that the mosaicists intended to represent a real wine harvest rather than an ideal one. Therefore, we can find differences in the technical way of pressing the grapes like using or not using a screw press, two or more treaders. Moreover, other differences can be seen as well in the clothing of the treaders in the three countries where colthing reflects the different tradition in these countries.

As for color, the mosaicist was guided by realities even though he seems to have had a good deal of freedom. The red wine represented in the churches of St. Stephen at um Er-Rassa certainly indicates the blood of the Christ. It symbolizes the blood of Jesus, when he sacrificed himself to save his people.

Taysir Atiat -Department of Archaeology and Tourism, Faculty of Arts - Mu'tah University P.O. 7, Mu'tah (61710), Al -Karak, Jordan

ملخّص: تشير أعمال التنقيب الآثري في الأردن بوضوح، إلى أن الأردن شهد كثافة سكانية خلال العصر البيزنطي، يُدل عليها اكتشاف العديد من الكنائس؛ إذ من المألوف تمثيل أغصان العنب في أرضيات تلك الكنائس، إضافة الى مشاهد من الحياة اليومية، كالمشاهد الزراعية، خاصة مراحل قطف ثمار العنب وعصرها تمهيداً لإنتاج النبيذ، المشروب المقدس في الديانة المسيحية، بوصفه رمزاً لدم المسيح عليه السلام، عندما ضحى بنفسه لانقاذ البشرية، حسب ما جاء في الإنجيل. وهذا البحث محاولة لإبراز التشابه في تمثيل ست معاصر نبيذ، في أرضيات مختارة في كل من الأردن ، وفلسطين، ولبنان، حيث يبدو التشابه واضحاً في تقنية العمل، وفي الادوات المستخدمة، وفي تمثيل صور الأشخاص القائمين بهذا العمل. وهذا التشابه يدفعنا إلى الاعتقاد بوجود وحدة عامة في إنتاج النبيذ، في منطقة شرق البحر المتوسط خلال العصر البيزنطي، على الرغم من وجود بعض الاختلاف في التفاصيل.



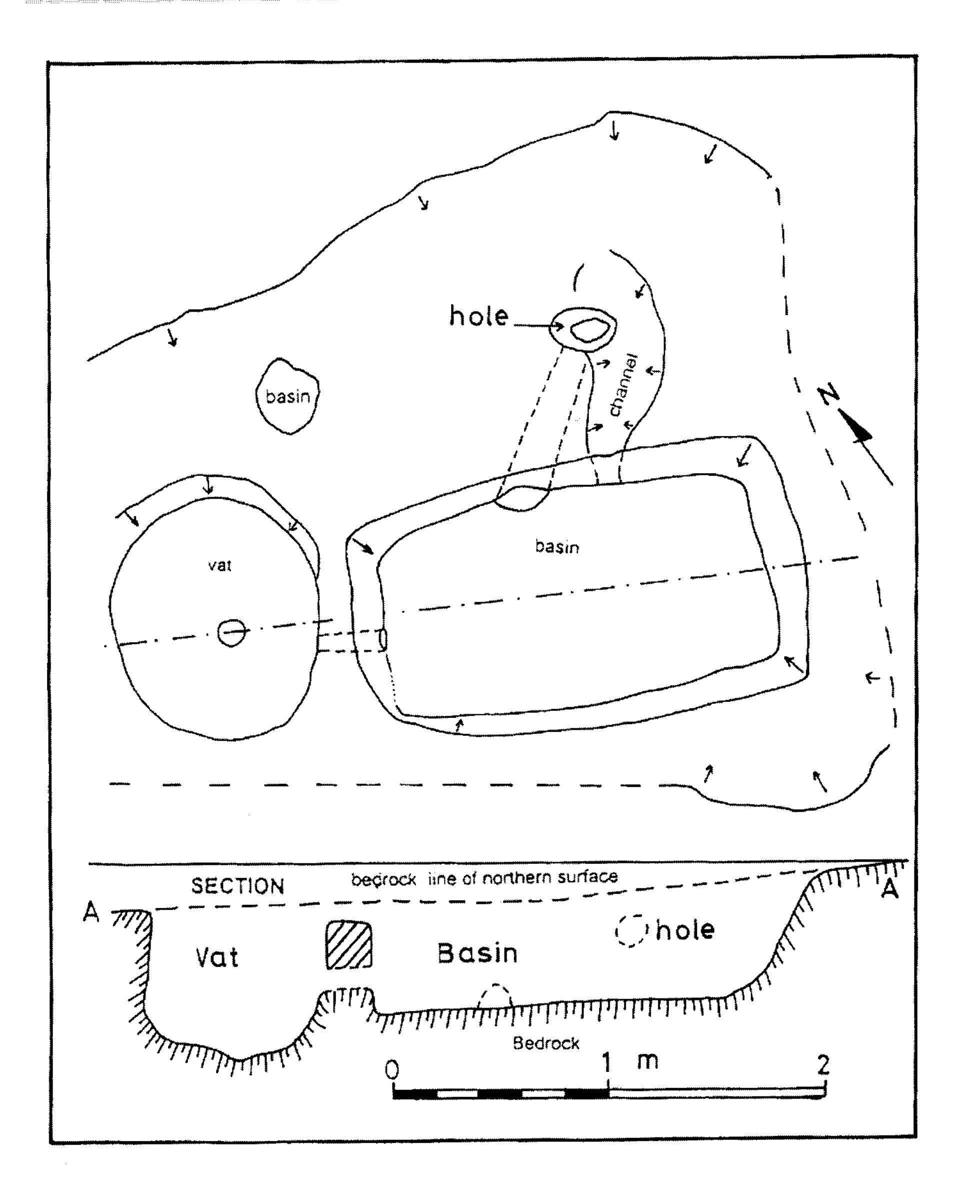


Fig 5 : The most common type of wine press found in Jordan , plan and section (After Watson ,1996,Fig .8).

1.11; Bisheh 1982, PI XXXVII; Whitcomb 1994, Fig d.26)

It is well known that the scenes of daily life are the common motifs in the art of mosaics in Jordan and in the Levant during the Byzantine Period.

The presence of an amphora with two loop handles beside the vat, filled with red wine, seems to practically explain the end of the cycle of the wine harvest.

Conclusion

On the bases of the corpus of the wine presses included in this paper, it is interesting to note that the mosaic pavements in Jordan are of great importance to understanding the art, society, and the Christian religion during the Byzantine and early Islamic periods. These pavements proved illuminating in the study of artistic, economic and religious patronages during those periods.

From the material presented in this article, we can conclude that the winepresses have much in common, in terms of material, style of representation, form of the screw press, and a lesser degree the dress of the treaders. Aspects of this presentation are closely parallelled by the depiction of the winepress, where the pattern in the mosaic floors could be derived from the iconography of the winepress on the ground. There is however a difference in certain elements; the depiction of the pressing and treading is mostly represent in the mosaic floors of Jordan during the Byzantine and Early Islamic periods.

It is immediately apparent that mosaicists





Figure 4,a Depicting of single fixed- screw wine press shows treading, pressing and collecting vat: mosaic, Tyre, Qabr Hiram in Lebanon ,the church of ST christopher

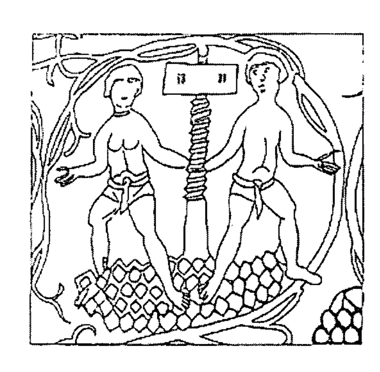


Figure 4,b Depicting of single fixed- screw wine press shows treading and pressing from the church of SS Lot and Procopius, el- Mekhayat in Jordan

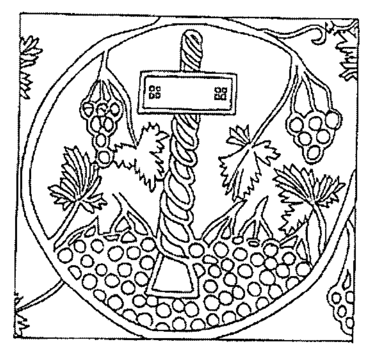


Figure 4,c Depicting of single fixed- screw wine press shows pressing from the church of the Bishop Sergios, um er-Rasas in Jordan.

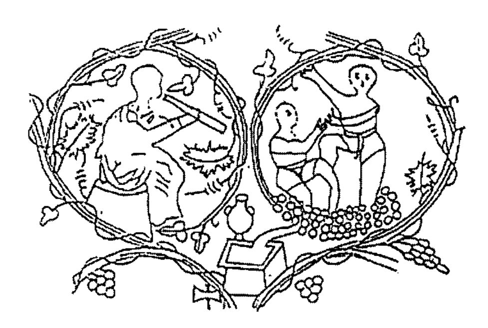


Figure 4,d Depicting treading, and collecting vat from the church of ST Stephen, um er-Rasas in Jordan,



Figure 4.e Depicting of single fixed- screw wine press shows treading and pressing from the church of ST.George, el-Mekhayat in Jordan

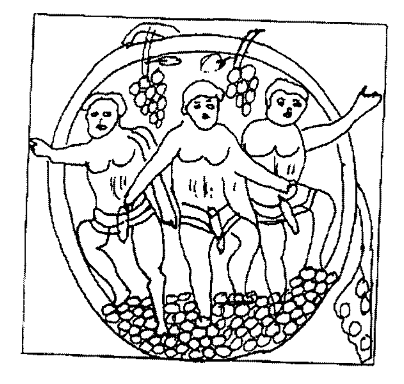


Figure 4,f Depicting three treaders without depicting screw wine from the mosaic of Hammam Bisan-Scythopolis



dan), we can observe a production of wine by treading and by using a screw without the presence of the receiving vat; however, the winepress of figure 4.c (found in Jordan) shows the production of wine by using a screw press but without the presence of the treaders.

The wine press of figure 4.d (found in Jordan) shows the production of wine by means just of treading, without the usage of a screw press. The wine press is made up of a few elements: a treading floor, a rectangular receiving vat, and the filling up of wine into an amphora which was depicted full with red wine beside the receiving vat.

It is clear that the mosaicist intended to present a real wine harvest rather than an ideal one. The depiction of the red wine, flowing from the treading floor to the receiving vat through a small canal and an amphora with two loop handles full with red wine, shows a representation of the end of the cycle of the wine harvest.

In the winepress of figure 4.e (found in Jordan), we can see the production of wine by treading and usage of a screw press, wherease the winepress of figure 4.f (found in Palestine) shows the production of wine by treading only, without the usage of a screw press. This figure shows the representation of three treaders intent upon their work while the others show only two treaders. Perhaps the mosaicist intended to show that the treading work needed more treaders.

The corpus of winepresses recorded in this paper are limited to only few elements; namely, the grapes, the screw in the center of the press and the depiction of two treaders represented almost nude on both sides of the screw. These elements are enclosed inside five volutes of vine, and one is represented inside an acanthus scroll. (Fig. 4). This observation may enhance the theory of Dauphin about the predominance of the vine scroll in Jordan during the Byzantine period.

From the previous compositions we understand that in the ancient times, grapes were certainly always first trodden and then pressed. This information was confirmed by classical literature, from which we learn the process of the pressing operation. Since treading was taken for granted, the representation of only the spirals of screw on mosaic pavements does not help us understand the manner in which this device functioned (Frankel 1999,42).

The mosaic pavements are standard features of almost all Byzantine churches in Jordan; these pavements include depictions of people and animals, as an element of the design. Such images are usually depicted inside volutes of vine.

The range of this composition can be observed in the churches. Beside the geometrical scenes, common are the scenes of branches of grape shoting forth from an amphora to form rows of vine scroll in which scenes of the daily life are often depicted. Those scenes include the scene of hunting, the scene of shepherd with his flock, and the scenes of the cycle of the wine harvest including the picking, transporting, and pressing of the grapes (Dauphin 1987,186).

It is most probable that the vine scroll in the art of mosaics was drawn as a Christian religious symbol after the parable of Christ were the intimate bond between Christ and the church is strongly emphasized.

The range of this composition can be observed on the lamps and on the mosaics where the decoration around the channel of the lamp consists most often of a vine-scroll. However, sometimes there are engravings of crosses, animals, amphorae and human figures on both the discus and the base (Fig 6). These lamps can be assigned to the Byzantine period and to the second half of the 8th Century and later (Scholl 1986,164, Fig



Hirschfeld 1983, 211-212, fig 5).

The wine presses in Jordan were located at the western edge of the western plateau which was heavily settled during the Roman, Byzantine and Early Islamic periods. The economy of these settlements was based on agriculture and the processing of agriculture products, especially wine and olive oil. The wine presses show that there had been a considerable number of farms and villages (Piccirillo 1985, 257-261).

According to Pamela Watson the wine presses are classified under seven types as follows:

A large shallow squared pressing or treading basin with white mosaic floor, connected to a receiving vat located outside the pressing floor.

A large circular or oval pressing or treading basin with white mosaic floor and central rectangular vat with conduits which channeled the juice after treading into the receiving vat.

A deep rectangular basin cut into the bedrock with oval or circular receiving vat connected with the basin by a canal cut into the bedrock. This type is the most common in Jordan (Fig.5); eleven wine presses of this type are recorded by Pamela Watson (Watson 1996, 72, Fig 8).

A shallow irregular treading basin with circular receiving vat.

A small circular or squared treading basin with central depression.

A number of small irregulated basin connected by channels.

A small flat shallow basin with channel.

Analysis of the elements of wine presses above shows a parallel with the wine presses in Palestine, and the symmetry existing between winepresses in to two countries enables us to emphasize this conclusion (Ahlstrom 1978, 19-49). However, it seems more prudent to read the red wine as a Christian religious symbol. The following verse bears out this reading: (and as they were eating, Jesus took bread, and blessed [it] and brake [it] and gave [it] to the disciples and said, take, eat; this is my body and he took the cup [of wine] and gave thanks and gave [it] to them saying drink ye all of it; for this is my blood of the new testament which is shed for many for the remission of sins) (Mat 26: 26-28).

The single fixed-screw press was the main wine press in Jordan and the surrounding countries. This device was meant to squeeze out the must left in the grapes skins after treading. (Fig 4). It appears on six mosaic floors in the Mediterranean region: one in the church of ST Christopher at Tyre-Qabr Hiram in Lebanon; two at el-Mekhayat in the Church of SS Lot and Procopius and in the church of ST George; two others at um er-Rasas in Jordan, in the church of St. Stephen and in the Church of the Bishop Sergios (Piccirillo and Atiat 1986,341-351); and one in the mosaic floor of Baisan-Scythopolis in Palestine (Frankel 1999, 140; Saller and Bagatti, 1949,55-67,67-78; Piccirillo, 1993, 178-179,238-239; Avi-Yohna 1935 19-55).

It will be observed that the single fixed-screw press, exposed in figure 4, shows assemblages in the composition. The treaders in the wine press are drawn with darker contour lines, since the bodies of the treaders are almost nude. They wore only a "cinctus" or loin-cloth.

In fact, many differences in the technique of pressing the grapes can be seen in winepresses of figure 4. We can see the production wine by treading and using a screw press in figure 4.a (found in Lebanon). The winepress in this figure is of few elements: a rectangular passing vat connected with a small rectangular receiving vat.

In the wine press of figure 4.b (found in Jor-

Fig. 3: The cycle of the wine harvest.



(Fig.3). This cycle is retrieved, for example, in the church of SS Lot and Procopius at al-Mekhayat (Saller and Bagatti 1949, 55-67, fig. 7). Other details included in these scenes are an isolated central pole of the winepress showing the sharp spirals of the screw in the church of Bishop Sergios and the vat receiving the red wine in the church of Saint Stephen at um Er-rasas. From this it was drawn off into an amphora depicted full with red wine (Fig 4. d). (Atiat 1994, 147-154).

It is well known that the scenes of daily life are often depicted in colored mosaic floors of the churches in the Mediterranean region of which Jordan part. These scenes are often represented inside rows of vine scrolls in the form of branches of grape.

According to Dauphin, the period between the fourth and the seventh centuries shows the predominance of the vine scroll in the Levant (Dauphin 1987, 185). This observation seems rather accurate and is especially supported by the corpus of winepresses included in figure 4 below. Although it is difficult to gauge the significance of the predominance of the vine scroll in Jordan during those centuries, it seems reasonable that this motif was connected to the importance of grapes and wine in Christian liturgy.

Wine Production:

The cities and towns in the Levant of the Bronze Age were basically agricultural communities. Because of the suitable climate and soil, the grapevine, along with the olive and fig trees, is one of the most distinctive plants of Jordan and Palestine today. As mentioned earlier, the earliest evidence for the yield of vine in the region is referred to by Sinuhe the Egyptian Prince who lived in the land of Canaan during the Middle Bronze Age (Ross 1962,785). Piliny, the Roman Historian, speaks of four colors of wine: white, brown, blood red and black. It seems clear that different colored grapes produce different colored-wine, but the red wine was considered a fine wine, and the best of all is the red fragrant wine (Frankel 1999, 200).

It will be useful here to provide some background information about the land of Jordan and its people during the Byzantine period. The abundance of towns and villages in the country in that period was supported by intensive farming of precious food, especially vine and olive and water resources. The existence of several small winepresses and oil presses in the Western plateau of Jordan proves that the lands were poor as they might have been used for farming some types plants in certain periods. A considerable number of small wine presses, usually hewn in the rock, have been found in this plateau, particularly in the central sector. The size and the distribution of these presses, according to Watson and O'Hea, reveal that such industry was of a small scale, and it was limited to serving local consumption rather than trade (Watson and O'Hea 1996, 63-76).

The archaeological surveys elsewhere in the northern hilly region reveal a similar pattern for these installations where the archaeological sites in the region are characterized as well by remains of wine and oil presses, reservoir and various agricultural implements (Wals, 2001, 481-482). A quic comparision between wine presses in Jorand and Palestine during the Byzantine period reveals different aspects. In Palestine wine installations are of larger scales than they have been in Jordan. In fact, the storage compartment is much larger, accommodating thereby larger quantities of grapes. If the small scale industry in Jordan meant to serve a local, small community, the larger scale in Palestine suggests that it was meant to serve a much larger community (Roll and Ayalon 1981, 111-125, Fig 7):



In Isaiah (36:17) the same point is made: (until I come and take you away to a land like your own land, a land of corn and wine, a land of bread and vineyards). This expression appears again in Jeremiah (31:12). It is also repeated in: (yea, the Lord will answer and say unto his people, behold, I will send you corn and wine and oil and ye shall be satisfied therewith) (Joel 2:19).

Wine appears in the Old Testament as a symbol of spiritual gifts. This symbol is observe in the following verses (she [wisdom] hath killed her beasts, she hath mingled her wine) (Prov. 9: 2). The same symbol appears in the book of Isaiah (55:1). The Old Testament points to the cycle of harvest (Jeremiah 6:9), and mentions the joy of treaders during the work (Jeremiah 48:33).

The Bible addresses the installation of the wine press as follows:

(Now will I sing to my wellbeloved a song of my beloved touching his vineyard. My well beloved hath a vineyard in a very fruitful hill: and he fenced it and gathered out the stones thereof and planted it with the choicest vine and built a tower in the midst of it and also made winepress thereinì) (Isaiah 5:1-2).

In the New Testament we can observe the significance of wine and grapes, their symbolic functions in the Christianity, the importance of the wine in Christian liturgy, and the cycle of the wine harvest. The information concerning these subjects and the connection between Jesus and wine is clearly made. According to Saint Matthew the red wine symbolizes the blood of Jesus as he has sacrificed himself to save his people. The reference to this personification appears in the following:

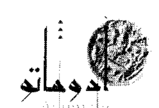
(For this is my blood of the New Testament, which is shed for many for the remission of sins. But, I say unto you, I will not drink henceforth of this fruit of the vine, until that day when I drink it new with you in my Father's kingdom and he went a little further and fell on his face and prayed, saying, O my father, if it be possible, let this cup pass from me: nevertheless not as I will, but as thou wilt) (Matthew 26: 28-29; 39). The greater significance of the vine is when Jesus describes himself as the true vine and his father as the vinedresser. This point appears clearly in the following verse: (I am the true vine, and my father is the husbandman) (John 15:1).

The grapevine, along with the olive and fig trees, is one of the most distinctive plants of Jordan and Palestine today as they were in ancient times; the climate is particularly well suited for growing vines. Besides, there is enough rainfall, heat and fertile land especially on hills where the vineyards were planted because such places were less suitable for cereals crops. It was customary to present wine to guests at feasts and marriages. In the New Testament (John 2: 1-11; John 4:46), we see Jesus miraculously turn water in to wine for the marriage celebration at Cana.

Furthermore, Christ chooses the vineyards in his parable to strongly emphasize the intimate bond between him and the churches. He said, "I am the vine, you are the branches" (John 15: 5).

This expression explains clearly the symbolic importance of vine for Christians.

The agricultural scenes of daily life are often shown in the mosaic floors of the churches in Jordan. In these the common motif usually represents the cycle of the wine harvest, and is always depicted as follows: 1- The harvester, a basket beside him, cuts grapes with a short billhook. 2- A basket full of grapes. 3- The transport of grapes on the back of a donkey, or on the back of a man. 4- The treaders in the wine press. 5- Usually the cycle of the wine harvest is accompanied by a flute-player.



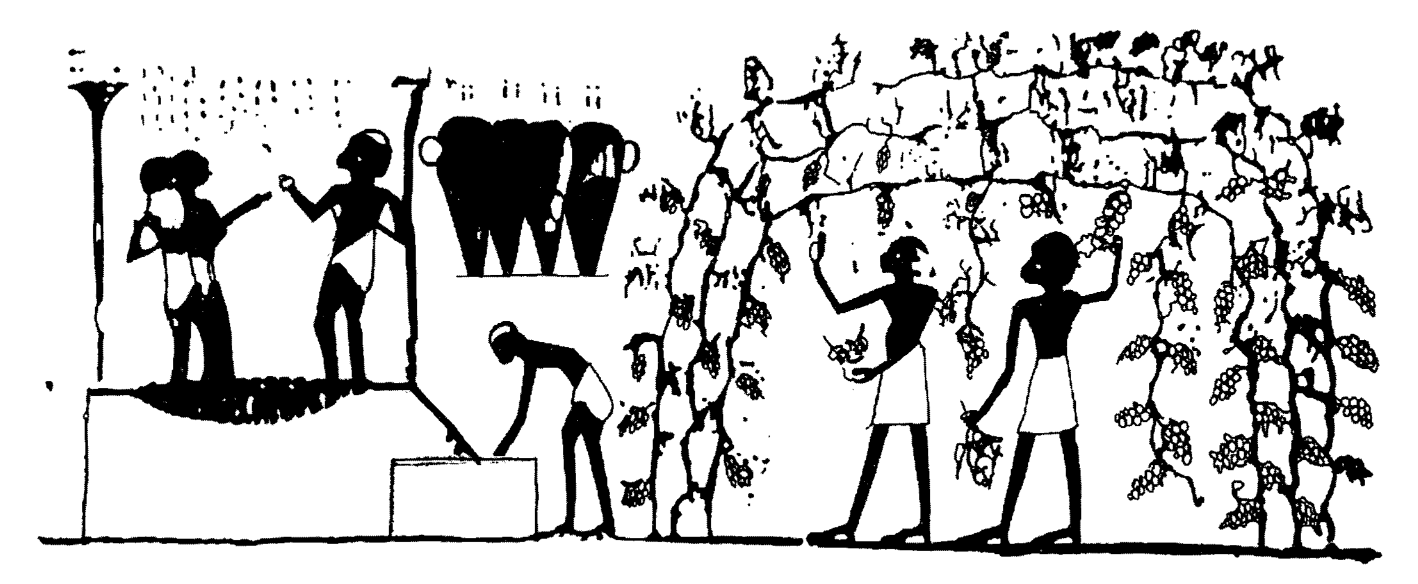


Fig. 2: Drawing of Wall - Paintings in the Tomb of Nakht at Thebes.

shedding light on rural and religious practices in Jordan during the Byzantine and early Islamic periods. It will offer new insights into wine presses in Jordan and enrich our acquaintance with the art of mosaics. It will hopefully add some more practical information about the significance of wine and grapes and their symbolic function in the Christian liturgy.

Vine and Branches

For ages, the Levant has been famous for the quality and quantity of its wine. The grapevine, along with its primary grapes product, is mentioned more than any other plant in the ancient sources, particularly in ancient Egyptian sources, and in the old and the New Testaments. In the book of Genesis, Noah was presented as the father of viticulture (Genesis 9:20). However, the Egyptian sources of the sixth Dynasty describe the grapes of Syria, while Sinuhe, the Egyptian Prince who lived in the land of Canaan, describes the wine of Palestine during the Middle Bronze Age (Ross 1962, 785; Prag 1974, 99).

The wall painting of Tomb 62 at Thebes in the region of Amenhotep III reveals the importation of wine from Canaan to Egypt inside jars with lids (Amiran, 1969, 141).

The cycle of the wine harvest, includimg the gathering of grapes, treading them and storing wine in jars in the form of spindle amphoras, was shown on the wall painting of the tomb of Nakht at Thebes during the Fifteenth century (Fig 2; Ross 1962, 785, Fig 16).

These scenes reveal the significance of wind and grapes for the Egyptians; the representation of the cycle of the wine harvest on the wall painting of the Egyptian tombs demonstrate the importance of the wine in the Egyptian liturgy.

As is pointed out below, viticulture has provided an abundant store of images in both the Old Testament and the New Testament:

Vineyards and vines are symbols for wealth and fertility (2 Kings 18:31)

Wine is one of the graces of the goods of lands. The point is made in the Bible as follows: (He [the lord] will also bless the fruit of thy womb and the fruit of thy land, thy corn, and thy wine) (Deut 7:13).

Fig. 1: Subdivision of Jordan Territory in the Byzantine Period.

Wine presses on mosaic pavements of Jordan, Palestine and Lebanon

Taysir Atiat

Abstract. *Archaeological projects carried out in Jordan pointed out that this country was extensively populated in the Byzantine period where the churches were numerous. Amphorae grape or vine scrolls were depicted in mosaics and scenes of daily life. A common motif depicted on the mosaic pavements is the agricultural scenes especially the cycle of the wine harvest. An attempt will be made here to discuss the representation of six wine presses on mosaic pavements of Jordan, Palestine and Lebanon. The materials of these devices represented on the mosaic floors have much common, in terms of their style of representation and in the iconography of the grape treaders figures. We can propose the existence of a broader Mediterranean vocabulary of the wine presses existing in the Levant as well.*

Introduction:

During the Byzantine period the present borders of Jordan embraced a great number of population and a great number of settlements, especially along Via Nova Traiana and inside the villages and towns of the province of Arabia. This fact led to the presence of churches and houses beyond the enclosure walls of several settlements such as Gerasa, Kherbeh El Samra, Madaba and Um er Rasas (Kennedy 1981-21-24). The natural justification of such a condition is that the settled population was continuously increasing in the region where the population was originally Arab as indicated by numerous inscriptions.

Prosperity extended throughout the pagan and the Christian eras; however, during the Christian period churches began to replace pagan temples in the classical cities of Philadelphia, (Zayadine, 1977-1978, 20-56) Gerasa (Browning, 1982, 94-95), Esbus (Horn, 1973, 87-88), and Petra (Schick et al, 1993, 55-56).

The significant discovery in the archaeological sites of Jordan is the size and shape of churches, which explains the density of population and the prosperity of the country during the Byzantine period. The basic architectural plan of the churches in Jordan was that of the basilica used extensively in the Mediterranean region.

The most impressive features of Byzantine churches in the Mediterranean region are the development and the extensive use of the art of mosaics in the ornamentation of floors. These mosaic floors can also be a valuable source of information on rural and urban lives, and on the religious administration of Jordan during the Byzantine period.

This paper aims to shed light on the agriculture features of Jordan between the sixth and the seventh centuries through selected winepresses depicted on mosaic pavements. The paper seeks to highlight a connection between the construction of wine presses and their depiction on the mosaic floors. It is an attempt to understand the technique of wine pressing and the importance of wine in Christian liturgy. This kind of study has the potential of

Issue No. 9 January 2004
ISSN: 1319-8947 (pp. 19 -30)



western Arabia (unpublished manuscript).

Wanpo, Huang, Russell I. Ciochon, Gu Yumin, Roy Larick, et al. 1995. "Early Homo and Associated Artefacts from Asia", **Nature**, 378: 275-278.

Whalen, Norman M., Jamaludein S. Siraj Au, Hassan O. Sindi, and David W. Pease. 1986. "A Lower Pleistocene Site Near Shuwayhitiyah in Northern Saudi Arabia", **Atlal**: The Journal of Saudi Arabian Archaeology, 10: 94-101.

Whalen, Norman M., Wilbon P. Davis, and David W. Pease. 1989. "Early Pleistocene Migrations into Saudi Arabia". **Atlal,** 12: 59-75.

Whalen, N. M. and K. E. Schatte 1997. "Pleistocene Sites in Southern Yemen", **Arabian Archaeology and Epigraphy**, 8: 1-10.

Whalen, Norman M. and Christopher M. Kolly. 2001. "Survey of Acheulean Sites in the Wadi al Sirhan Basin, Jordan, 1999", **Annual of the Department of Antiquities of Jordan**, 45: 11-18.

Whalen, Norman M. 2003. "Lower Palaeolithic Sites in the Huqf Area of Central Oman", Journal of Omani Studies, Vol. 13 (in press).

Wood, Bernard and Alan Turner. 1995. "Out of Africa and Into Asia", **Nature**, 378: 239-240.



References

Amirkhanov, Kh. 1987. "Understanding the Acheulian in Southern Arabia", **Sovietskaya Arkeologiya**, 4: 11-23 (in Russian).

Amirkhanov, Kh. 1991. **The Palaeolithic of Southern Arabia**, Moscow: Russian Academy of Sciences (in Russian).

Amirkhanov, Kh. 1994. "Research on the Palaeolithic and Neolithic of Hadhramaut and Mahra", **Arabian Archaeology and Epigraphy**, 5: 1-12.

Bar Yosef, O. and N. Goren-Inbar. 1993. **The Lithic Assemblage of Ubeidiya, a Lower Palaeolithic Site in the Jordan Valley,** Hebrew University, Jerusalem.

Clark, J. Desmond and H. Kurasbina. 1979a. "An Analysis of Earlier Stone Age Bifaces from Gadeb (Locality 8E), Northern Bale Highlands, Ethiopia", **South African Archaeology Bulletin**, 34: 93-109.

Clark, J. Desmond and H. Kurashina. 1979b. "Hominid Occupation of the East-Central Highlands of Ethiopia in the Plio-Pleistocene", **Nature**, 282: 33-39.

Clark, J. Desmond and H. Kurashina. 1980. "New Plio-Pleistocene Archaeological Occurrences from the Plain of Gadeb, Upper Webi Shebele Basin, Ethiopia, and a Statistical Comparison of the Gadeb Sites with Other Early Stone Age Assemblages". **Anthropologie**, 18(2-3): 161-187.

Etler, Dennis A. 1996. "The Fossil Evidence for Human Evolution in Asia". Annual Review of **Anthropology**, 25: 275-301.

Gabunia, L. and A. Vekua. 1995. "A Plio-Pleistocene Hominid from Dmanisi, East Georgia, Caucasus", **Nature**, 373: 509-523.

Gabunia, L., A. Vekua, et al. 2000. "Earliest Hominid Pleistocene Remains from Dmanisi , Republic of Georgia: Taxonomy, Geological Setting, and Age", **Nature**, 288: 1019-1025.

Goren-Inbar, N., and I. Sargusti. 1996. "An Acheulean Biface Assemblage from Gesher Benot Ya'aqov, Israel: Indications of African Affinities", **Journal of Field Archaeology**, 23(1): 15-30.

Isaac, Glenn L. 1997. **Plio-Pleistocene Archaeology, Vol. 5, Koobi Fora Research Project**, Clarendon Press, Oxford.

Kimura, Yuki. 1999. "Tool-using strategies by early hominids at Bed II, Olduvai Gorge, Tanzania", **Journal of Human Evolution**, 37:807-831.

LaPorte, Leo F. and Adrienne L. Zihlman. 1983. "Plates, Climate and Hominid Evolution", **South African Journal of Science,** 79: 96-110.

Larick, Roy and Russell L. Ciochon 1996. "The African Emergence and Early Asian Dispersals of the Genus Homo", **American Scientist**, 84: 538-551.

Leakey, M. D. 1971. **Olduvai Gorge: Excavations in Beds I and II 1960-1963**, Cambridge University Press, Cambridge.

Petraglia, Michael D. 2003. "The Lower Paleolithic of the Arabian Peninsula: Occupations, Adaptations, and Dispersals", **Journal of World Prehistory**, 17(2): 141-179.

Semaw, S., Harris, J. W. K., Feibel, C. S., Renne, et al. 1997. "Stone Tools of 2.5 Million Years Old from Gona, Ethiopia", **Nature**, 385(6614): 333-336.

Semaw, Sileshi. 2000. "The World's Oldest Stone Artefacts from Gona, Ethiopia: Their Implications for Understanding Stone Technology and Patterns of Human Evolution Between 2.6-1.5 Million Years Ago", **Journal of Archaeological Science**, 27(12): 1197-1214.

Swisher, C. C., C. H. Curtis, T. Jacob, et al. 1994. "Age of the Earliest Known Hominids in Java, Indonesia", **Science**, 263: 1118-1121.

Toth, Nicholas. 1985. "The Oldowan Reassessed: A Close Look at Early Stone Artifacts", **Journal of Archaeological Science**, 12(2): 101-120.

Vekua, Abesalom, David Lordkipanidze, C. Philipo Rightmire, Reid Herring, et al. 2002. "A New Skull of Early Homo from Dmanisi, Georgia", **Science**, 297: 85-88.

Walwer, Gregory E. 1997. Preliminary Evidence for Plio-Pleistocene Migrations from Africa through South-

clustering of the Yemen'92-DO, Oman'02-DO and Al Guza cave sites reinforces the relationships between these sites that were implied in the ANOVA tool dimension study.

Conclusion

In the absence of radiometric dating for any of the Arabian sites considered here, definitive conclusions cannot be drawn. However, the findings in the ANOVA suggest that Oldowan artefacts from the Arabian surface sites correlate with the Oldowan of the stratified Al Guza cave site to a degree that precludes mere chance. The comparison is interesting because it raises the possibility that certain Arabian surface sites, despite their deflated conditions and potential multi-component character, may retain relevant information. Furthermore, the MDS procedure relates these Arabian sites with the Plio-Pleistocene Oldowan of Olduvai Gorge, which has been substantiated with radiometric dating to be in the range of 1.8 million years old.

The southern route across Yemen and Oman, upon which the premise of this study was based, follows the trajectory emanating from early man sites in East Africa (see Fig. 1) but was not the only path accessible in the penetration and colonization of Asia. The other potential avenue was down the Nile and across the Sinai Peninsula to the eastern (Najd) or western (Tihama) side of the mountains that comprise the Arabian Shield, with a continuance eastward across Yemen and Oman. Obviously, much more survey and excavation work is needed in the regions of these potential routes--the Nile and both flanks of the Arabian Shield. In addition, Yemen and Oman have only been partially explored. All indications suggest that Arabia does contain Oldowan sites scattered along the paths of human migrations and occupations and may well hold the key to the time and place of the earliest human advance into Asia.

Norman M. Whalen: Department of Anthropology. Texas State University, San Marcos. Texas, USA. email: n4wdx@satx.rr.com
Glen A. Fritz :Department of Geography. Texas State University, San Marcos, Texas, USA.

ملخّص: لقد اقترحت عدة طرق، لتفسير حركة النزوح من إفريقيا إلى غربي آسيا؛ إحداها كانت الطريق، الممتدة جنوبي شبه الجزيرة العربية، عبر اليمن وعُمان، إذ توجد ثلاثة مواقع تحتوي على مشغولات يعتقد أنها من العصر الأولدواني. وأحد هذه المواقع، كان كهفاً من طبقات؛ بينما الآخران كانا موقعين سطحيين. وقد قورنت مواد الموقعين السطحيين إحصائياً مع مواد الكهف، كما تمت مقارنة مواد مواقع شبه الجزيرة العربية الثلاثة، مع أدوات الحقبة الأولدوانية المعروفة بـ "أولدوفاي جورج" في إفريقيا. كما أن تحليل التغيّر في أبعاد الأداة، والقياس متعدد الجوانب لهذه الأدوات، يشيران إلى علاقة مواد الجزيرة العربية بمثيلاتها في الحقبة الأولدوانية.



Fig 2: The MDS plot of the tool frequencies of selected sites from Africa and the Arabian Peninsula. The results show a grouping of the Yemen'92-DO and the Oman'02-DO sites with the Al Guza Cave site. In turn, these three Arabian sites appear to be related to the Olduvai Gorge oldowan (OG-OLD). Note the separate clusters for Acheulean (Ach) on the left and other Developed Oldowan (DO, DOA, DOB) sites at the top.

In the chopper category, the relationships were less conclusive as only two of eight null hypotheses were not rejected. However, taken as a whole, membership of the surface artefacts in the population of the Al Guza Oldowan artefacts could not be rejected in 62.5% of the ANOVA tests. Considering the extreme antiquity of these artefacts and their wide geographical separation, this result is rather interesting.

The MDS results (shown in Fig. 2) are based on the tool frequency characteristics of fifteen different sites/sub-sites. As explained previously, some of the sites were included for purposes of comparison and not because of suspected cultural relationships. The discrimination ability in the MDS mapping is illustrated by the grouping of Acheulean sites in the lower left quadrant and of several Developed Oldowan sites in the top center. Most importantly, the plot demonstrates a cluster involving the three Arabian Oldowan sites and the Oldowan of Olduvai Gorge. This pattern implies that a greater similarity exists between these sites than with any of the remaining sites which are plotted farther away. From a standpoint of specificity, the Arabian sites with Oldowan components show an affinity to the Olduvai Gorge Oldowan but not to the Developed Oldowan or Acheulean of Olduvai Gorge. Conversely, minimal relationships are suggested between the Arabian sites and the other African sites, or with Ubeidiya in the Levant. Finally, the



		Significance Values **Oman'02-DO**	*Significance Values* **Yemen'92-DO**	
Scrapers	length	**0.335**	**0.249**	*versus* **Al Guza Cave**
	width	**0.783**	**0.155**	
	length/width	**0.994**	**1.000**	
	thick./width	**0.188**	0.001	
Choppers	length	0.019	≤0.0005	
	width	≤0.0005	≤0.0005	
	length/width	0.005	**0.625**	
	thick./width	**0.797**	≤0.0005	

Table 3: Summary of the ANOVA results after applying Tamhane post-hoc testing. All null hypotheses stated that the Oman'02-DO and Yemen'92-DO chopers and scrapers were from the same population as the in situ Al Guza Cave Oldowan choppers and scrapers on the basis of their dimensions. The bold numbers indicate where null hypotheses could not be rejected at the 95% confidence level. In 7 of 8 scraper comparisons, the Oman and Yemen sites were not shown to be statistcally different from the Oldowan of Al Guza Cave. Two of the chopper dimensions were also not shown to be significantly different from the Oldowan of Al Guza Cave.

1997).

The sites (and sub-sites) from the Arabian Peninsula included the three Arabian sites under discussion plus neighboring sites for which suitable frequency data were available. The Oman and Yemen data consisted of the Oldowan from Al Guza Cave (Amirkhanov 1987, 1991, 1994), the Yemen'92-DO (Whalen and Schatte 1997), the Oman'02-DO (Whalen 2003) and an Oman'02 Acheulean component (Oman'02-Ach).

Other data from the Arabian Peninsula involved the Developed Oldowan from Wadi as Sirhan, Jordan in 1999 (Jordan'99-DO) (Whalen and Kolly 2001), the Developed Oldowan from Saudi Arabian site 201-49 at Shuwayhitiyah (Saudi'85-DO) (Whalen et al. 1986, 1989), and the Ubeidiya Acheulean (Ub-Ach) and Ubeidiya Developed Oldowan (Ub-DO) (Bar Yosef and Goren-Inbar 1993; Goren-Inbar and Sargusta 1996).

Results

The ANOVA tested the relationship of two Arabian surface sites with Al Guza Cave, the only known in situ Oldowan site in the Arabian Peninsula. The variables consisted of the chopper and scraper dimensions of length, width, length-to-width ratio and thickness-to-width ratio. Table 3 presents the ANOVA results. Of special interest is the finding that seven of eight scraper dimensions from the two surface sites were shown to be statistically indistinguishable from the Oldowan scraper dimensions of Al Guza Cave. In other words, 87.5% of the scraper null hypotheses were not able to be rejected at a 95% confidence level.

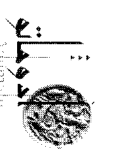


Table 2. Tool frequency data used in the MDS to compare the Arabian Peninsula Oldowan to the Olduvai Gorge Oldowan.

	Site	Chopper		Scraper		Biface		Polyhedron		Discoid		Spheroid		Other		Σn
		n	%	n	%	n	%	n	%	n	%	n	%	n	%	
Olduvai Gorge	OG-OLD	283	52.1	92	16.9	0	0.0	55	10.1	49	9.0	4	0.7	60	11.0	543
	OG-DOA	177	34.9	79	15.6	0	0.0	33	6.5	20	3.9	27	5.3	171	33.7	507
	OG-DOB	463	20.2	491	21.4	162	7.1	48	2.1	131	5.7	134	5.8	868	37.8	2297
	OG-Ach	14	15.4	6	6.6	49	53.8	5	5.5	8	8.8	2	2.2	7	7.7	91
Arabia	Saudi'85-DO	278	40.3	217	31.5	48	7.0	37	5.4	17	2.5	6	0.9	86	12.5	689
	Yemen'92-DO	323	71.0	75	16.5	7	1.5	11	2.4	11	2.4	1	0.2	27	5.9	455
	Jordan'99-DO	423	64.2	134	20.4	17	2.5	13	1.9	12	1.8	3	0.4	51	7.6	653
	Oman'02-DO	505	58.9	258	30.1	9	1.0	21	2.4	9	1.0	1	0.1	55	6.4	858
	Oman'02-Ach	335	42.6	253	32.2	122	15.5	4	0.5	5	0.6	0	0.0	67	8.5	786
	Al Guza Cave	114	61.0	36	19.3	11	5.9	5	2.7	1	0.5	0	0.0	20	10.7	187
Other	Gadeb-Ach	25	35.2	8	11.3	31	43.7	6	8.5	0	0.0	0	0.0	1	1.4	71
	Gadeb-DOB	96	21.5	147	33.0	27	6.1	123	27.6	0	0.0	6	1.3	47	10.5	446
	KF	112	22.0	196	38.4	4	0.8	88	17.3	88	17.3	0	0.0	22	4.3	510
	Ub-Ach	103	28.6	27	8.1	144	40.0	39	10.8	5	1.4	9	2.5	31	8.6	358
	Ub-DO	747	28.9	704	27.3	71	2.8	141	5.5	49	1.9	72	2.8	799	30.9	2583

Olduvai Gorge: Oldowan (OG-OLD), Developed Oldowan A (OG-DOA), Developed Oldowan B (OG-DOB), Acheulean (OG-Ach). Koobi Fora in Kenya (KF). Gadeb in Ethiopia (Gadeb-DO and Gadeb-Ach), Ubeidiya in the Jordan valley (Ub-DO and Ub-Ach). See text for other site abbreviations.

were suited to ANOVA because they were characterized by numerically sufficient collections of choppers and scrapers with detailed dimension measurements. However, this approach was not suited for the second question, which sought to compare the Arabian sites with Olduvai Gorge, because the African records lacked the needed dimension data detail. Therefore, the second question utilized tool frequencies and a technique called Multidimensional Scaling (MDS).

Question One Methods. The dimensions of choppers and scrapers were selected for the comparison because these tool types were the most plentiful and may also be the most diagnostic. Eight separate ANOVA tests were required, one for each chopper and scraper tool dimension comparison: length, width, length-to-width ratio and thickness-to-width ratio. Each ANOVA tool dimension test had an associated null hypothesis that stated that the tools from the two Arabian surface sites belonged to the same population as the Oldowan tools of the Al Guza Cave. A significance value of 0.05 (95% confidence level) was selected as the level required to reject any individual null hypothesis. Post-hoc testing was necessary because the means of the groups were not homogeneous. The Tamhane method was applied in this study. Table 1 summarizes the descriptive statistics of the data from the three Arabian sites.

Question Two Methods. The second question, concerning the potential relationship between the three Arabian sites and the Oldowan of Olduvai Gorge, was approached on the basis of tool frequency counts because these data were amply available. Due to the complex nature of the dataset, MDS was selected as the most appropriate analysis tool. In the MDS procedure, a computer algorithm creates a mathematical composite of all of the various tool frequency variables associated with each site. The program then calculates the relationships of the sites using multiple spatial dimensions or axes and Euclidian distance measures. In evaluating the net results, shorter distances between sites are suggestive of higher similarity.

Although Olduvai Gorge is the prime Oldowan site to employ as a standard of comparison, it was necessary to include additional sites of Plio-Pleistocene affiliation to demonstrate the MDS results in a meaningful perspective. Including the sites already under discussion, a total of nine Paleolithic sites were used, some having both Acheulean and Oldowan components. The tool frequency categories for these sites were determined on the basis of relative artefact prevalence: choppers, scrapers, bifaces, polyhedrons, discoids, spheroids and others. The final MDS calculations therefore involved fifteen tool assemblage groups, each with seven different tool frequency classes. A summary of the tool frequencies is shown in Table 2.

In regard to the MDS database, Olduvai Gorge was represented by four different subgroups: Oldowan (OG-Old), Developed Oldowan A (OG-DOA), Developed Oldowan B (OG-DOB), and Acheulean (OG-Ach) (Leakey 1971). The advantage of testing the Arabian sites against the Olduvai subgroups is that any unanticipated similarities or dissimilarities are given a chance to emerge. Overall, the inclusion of more artefact groups in the MDS increases the range of data available for comparison and may add greater specificity to the results.

The other African sites appearing in the MDS were Gadeb and Koobi Fora. Their data include the Gadeb Acheulean (Gadeb-Ach) and the Gadeb Developed Oldowan B (Gadeb-DOB) (Clark and Kurashina 1979a, 1979b, 1980) and Koobi Fora (KF) (Isaac



Tool	Site	n	length		width		thickness		length/width		thickness/width	
			mean	st. dev.	mean	st. dev.	mean	st. dev.	mean	st. dev.	mean	st. dev.
Choppers	AL Guza Cave	114	104.73	21.658	85.06	15.893	59.80	11.910	1.25	0.215	0.72	0.139
	Oman'02-DO	505	98.52	21.804	75.98	16.186	52.21	11.622	1.32	0.296	0.70	0.168
	Yemen'92-DO	323	118.81	28.446	93.90	20.747	54.49	14.029	1.27	0.206	0.59	0.149
Scrapers	AL Guza Cave	37	90.97	19.609	70.49	14.325	46.90	10.370	1.30	0.191	0.68	0.172
	Oman'02-DO	258	85.65	18.572	68.32	15.746	41.67	9.786	1.29	0.301	0.63	0.157
	Yemen'92-DO	75	98.12	23.037	76.55	17.589	41.53	13.253	1.30	0.213	0.55	0.162

Table 1: The descriptive statistics of the tool dimensions used in the ANOVA study that compared the surface finds of Oman' 02-DO and yemen'92-DO with the in situ Oldowan finds at Al Guza Cave.



polyhedrons, discoids and scrapers. Several layers of Acheulean artefacts were located above the Oldowan level but a distinction existed between the Oldowan and Acheulean layers. The Acheulean levels were characterized by numerous handaxes and several choppers (Amirkhanov 1994).

In 1992, from a series of 16 sites located on an escarpment overlooking Wadi Shahar in southwest Yemen, a survey team collected 729 Oldowan artefacts. Nearly half of the artefacts consisted of choppers, with scrapers, polyhedrons, and discoids comprising most of the remainder (Whalen and Schatte 1997). The Oldowan (or Developed Oldowan) component of these sites will be referred to as Yemen'92-DO.

In 2002, a survey undertaken in the Huqf district of central Oman revealed a grouping of 43 sites that yielded 2,113 Oldowan artefacts (Whalen 2003, in press). Within the Oldowan assemblages, choppers accounted for 59% of the tool inventory in addition to scrapers, polyhedrons, spheroids, discoids and protobifaces. The Oldowan (or Developed Oldowan) component of this survey will be referred to as Oman'02-DO.

The Oldowan artefacts found in southwestern Yemen in 1992 (Yemen'92-DO) and in central Oman in 2002 (Oman'02-DO) were all surface finds. In contrast, the 187 Al Guza Cave artefacts that Amirkhanov classified as pre-Acheulean or Oldowan were excavated from an intact, stratified site. In light of the overriding migratory questions and the circumstances of these discoveries, two research questions arise:

1) To what extent do the surface finds from Yemen'92-DO and Oman'02-DO correspond to the in situ Oldowan artefacts in the base level of Al Guza Cave?

2) Is there a potential relationship between artefacts from these three southern Arabia sites and the Oldowan artefacts recovered from Olduvai Gorge in East Africa?

To provide firm answers to these intriguing questions is important but difficult. First, except for the stratified Al Guza Cave site, the Lower Paleolithic assemblages of the Arabian Peninsula are only known from surface collections, which provide a very limited framework for classification and dating. Skeletal evidences, such as have been found in Africa and Asia, have not yet emerged in the Arabian Peninsula, and the Paleolithic tool finds have no diagnostic fossil associations to provide clues. Finally, radiometric dating opportunities, such as are associated with East Africa, have thus far been lacking in the archaeology research of the Arabian Peninsula.

Methodology

The statistical techniques employed in this investigation utilized artefact frequency counts and tool dimensions to evaluate potential relationships between the sites under discussion. The tool frequency is often the product of specific functional activities carried out in a particular environment. Artefact dimensional patterns may be dependent on the available raw material as well as the prevailing tradition of the culture in which they occur (Kimura 1999).

Two separate statistical approaches were required to address the study questions because of the differences between the databases available for the Arabian Peninsula sites and Olduvai Gorge. Analysis of Variance (ANOVA), using artefact dimensions, was selected to test the relationships between the two Arabian surface sites and the in situ Oldowan at Al Guza Cave. These Arabian sites



Fig. 1: Map of proposed migration routes and the Paleolithic sites mentioned in the text.



elsewhere, most industries are labeled as Acheulean. In lieu of the questions surrounding early migrations from Africa and the geographical distribution of artefact types, the archetypal nature of the Oldowan industry has value as a benchmark for evaluating Oldowan-like finds in the Arabian Peninsula.

The discovery of human remains at remote sites in eastern and southeastern Asia from the range of 1.8 mya would seemingly mandate a departure from Africa many thousands of years earlier in view of the great distances to be traveled and the wide range of environments to be exploited along the way. Although the original locus of the early migrants currently appears to have been in East Africa, questions regarding the migratory mechanisms and routes remain open.

Only two routes out of Africa appear feasible and both of them traverse Arabia. The first could proceed from Ethiopia down the Nile and across the Sinai Peninsula into the Levant and western Asia. The other would follow the arching trajectory of early man sites in East Africa from Olduvai Gorge to Djibouti, then across the mouth of the Red Sea at Bab al Mandab directly into Yemen (Fig. 1). At this juncture, three further routes were open, the first being along the flat coastal plain of the Tihama located between the mountains and the Red Sea. The second, paralleling the first, ranges between the east side of the mountains and the vast stretches of the Arabian desert. The third, continues eastward across Yemen and Oman in the southern Arabian Peninsula, across the Strait of Hormuz, into Iran, and to points east.

The apparent presence of Oldowan artefacts in a series of sites arching from Africa to Oman suggests the existence of an eastward human migration route in Plio-Pleistocene times. However, from the relative abundance of Acheulean artefacts in the Arabian Peninsula, one must also assume that some long term settlement and later population movements occurred as well.

With the onset of a cooler climate during the Upper Pliocene, heralding the beginning of the Ice Ages of the Pleistocene, sea levels declined as much as 100 meters, possibly exposing intermittent land bridges at the Bab al Mandab. In the same timeframe, the distance between the continents was likely less than today, which would also facilitate the passage of early human bands toward eastern and southeastern Asia (Walwer 1995). The same may apply to the Gulf of Hormuz separating Oman and Iran.

The decline in sea level had the potential to convert both the Red Sea and the Arabian Gulf into landlocked seas. Present day Perim Island, located between Djibouti and Yemen may be the sole remnant of a land bridge that once connected Africa and Asia. In this paper, we shall consider the southern route out of Africa, across Yemen and Oman as an option for the infiltration of early human migrants into Asia.

Survey and Excavation

Along the southern route, three sites have been identified as possible early way stations in the journey to the east. Two are in Yemen and one is in Oman and all were tentatively identified at the time of their discovery as pre-Acheulean or Developed Oldowan. The first area was found in 1983-1988 near Wadi Dauan in the Hadhramaut of southern Yemen (Amirkhanov 1987, 1991, 1994). It consisted of three stratified cave sites and two stratified open-air sites, with all five sites having layers of different ages. Two of the cave sites had very few artefacts but the third, Al Guza Cave, harbored many more. In its deepest level, in situ deposits of 187 Oldowan artefacts appeared, mainly choppers with some



The Oldowan in Arabia

Norman M. Whalen and Glen A. Fritz

Abstract. *Various routes have been proposed for the initial migrations out of Africa into western Asia. A potential route traversing Yemen and Oman contains three Paleolithic sites with artefacts presumed to be Oldowan. One site was a stratigraphic cave site while the other two were surface sites. The artefacts of the surface sites were statistically compared with those of the cave. These three Arabian sites were then compared with the Oldowan artefacts of Olduvai Gorge, Africa. Analysis of Variance on the tool dimensions and Multidimensional Scaling of artefact frequencies suggest that the Arabian artefacts have Oldowan affiliation.*

Introduction

The last decade of the twentieth century and the opening years of the twenty-first witnessed in both Africa and Asia a spectacular series of hominid discoveries and a rising interest in early human migration into Asia (Etler 1996; Gabunia et al. 2000; Larick and Ciochon 1996; Petraglia 2003; Swisher et al. 1994; Wood and Turner 1995). No less than four new hominid species were reported during the past few years, all found in Africa. The emerging interest in human migration may be attributed to two events: 1) the discovery of several human cranial and assorted skeletal remains in association with stone artefacts dated 1.77 million years ago (mya) at the site of Dmanisi in Georgia (Gabuma and Vekua 1995; Gabunia et al. 2000; Vekua et al. 2002); and 2) the surprisingly early dates of 1.8 mya at Longgupo Cave in China (Wanpo et el. 1995); together with the redated cranial remains found at Mojokerto (1.81 mya) and at Sangiran (1.66 mya) in Java (Swisher 1994).

Despite the Asian discoveries, the wealth of relevant Pliocene data still resides in Africa. Of the hominid findings that appear in Pliocene deposits, the earliest evidences date from about 3.6 mya at Laetoli, Tanzania and from about 3 mya at Hadar, Ethiopia and Sterkfontein, South Africa (LaPorte and Zihlman 1983). The oldest known stone artefacts, those found in 1992-1994 at Gona in northern Ethiopia, have been securely dated at 2.6-2.5 mya using magnetostratigraphy and radioisotope methods (Semaw et al. 1997; Semaw 2000). In addition, Omo, Ethiopia and Turkana, Kenya have yielded stone tools dated at about 2.3 mya (Semaw et al. 1997). Finds such as these affirm the priority of Africa as a likely birthplace of the hominid lineage.

Semaw (2000) observed that many of the African tool assemblages in the period of 2.6-1.5 mya conveniently group into the prototypical Oldowan Industry associated with Bed I at Olduvai Gorge in Tanzania (Leaky 1971). Olduvai Gorge has been one of the most informative Plio-Pleistocene sites owing to the richness of the finds and a stratigraphic column that is supported with radiometric dates. Olduvai has also yielded slightly later, and perhaps transitional, industries known as Developed Oldowan A and Developed Oldowan B. In the succeeding period of 1.5-0.2 mya at Olduvai Gorge and

Issue No. 9 Jan. 2004
ISSN: 1319-8947 (pp. 7 -18)